موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

رحلة حياة

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة ١٩٨٢ مع تعديلات مهمة وإضافات واسعة

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي
القاهرة

الطبعة الأولى ١٩٧٣
الطبعة الثانية ١٩٧٨
الطبعة الثالثة ١٩٨٢

كتب للمؤلف

اولا : موســوعة التاريخ الاســلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاســلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ — الجزء الأول : (الطبعة العاشرة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاســلامى — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
— السيرة النبوية المعاصرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة
— الدعوة الاسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين

٢ — الجزء الثانى : (الطبعة السادسة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ — الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ — الجزء الرابع : (الطبعة السادسة)

— الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .
— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الاســلام حتى العهد الحاضر) .
— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ — الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
— الحروب الصليبية : دوافعها — احداثها — نتائجها .
— الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — **الجزء السادس :** (الطبعة الثالثة)

الاســـلام والدول الاســـلامية جنوب صحراء افريقيا منذ دخلهـــا الاســـلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .
— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى :
غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجـــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .
— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيـــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — **الجزء السابع :** (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :
— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .
— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — **الجزء الثامن :**

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :
ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا
الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين . .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — **الجزء التاسع :** (الطبعة الثانية)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر محمـــد نجيب وعصر جمـــال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — **الجزء العاشر :**

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر أنور السادات .
(ترجمت اكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسـلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصـاد ، وفى مجـال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، وتشمل :

١١ ـ الجزء الاول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الثانية)

مناهج التعليم فى صدر الاسلام ـ انحرافاتها فى عصـور الظلام ـ وجوب تصحيحها .

١٢ ـ الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره (الطبعة السادسة)

١٣ ـ الجزء الثالث : السـياسة (الطبعة الخامسة)

فى التفكير الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ ـ الجزء الرابع : الاقتصـاد (الطبعة الخامسة)

فى التفكير الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة .

ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ ـ الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة مثل شهادات الاستثمار والايداع بالبنوك ...

٢ ـ النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيهـا .

٣ ـ خطر الشيوعية على الأديان والانسان والدول .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الاسلامية (الطبعة السابعة)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الاسلامى (الطبعة السادسة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
فى التفكير الاسلامى

— فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

— وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى (الطبعة الثانية)
وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
فى التفكير الاسلامى

بحث علمى يبرز موقف الاسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الاسلام فى مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق المجاهد ، والخديعة فى الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقـــارنة الأديـــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمـد على ادق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالجدة والعمق وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهـودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، انبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ — الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة السابعة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدها .

٢٣ — الجزء الثالث : الاسـلام : (الطبعة السابعة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منـه ، السياسة والاقتصاد فى الاسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السادسة)

« الهندوسية — الجينية — **البوذية** »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : بوجاواسسدها ، كيتـا .

— اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجـود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثا أو رسالة (الطبعة الخامسة عشرة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
باللغة الانجليزية :

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٧ — History of Muslim Education
} مكتبة النهضة المصرية

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore):

٢٨ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam
٢٩ — Masjarakat Islam
٣٠ — Hukum Islam
٣١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam I
٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam II
٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam III
٣٤ — Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٥ — Perbandingan Agama (Masihi)
٣٦ — Perbandingan Agama (Islam)
٣٧ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)
٣٨ — Sadjarah Pendidikan Islam
٣٩ — Politik dam Ekonomi Dalam Islam
٤٠ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam
٤١ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi
٤٢ — Perang Salib
٤٣ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah
٤٤ — Pengajian Al Quraan
٤٥ — Sedjarad Kehakiman Dalam Islam

كتب المؤلف

خامسا : تعليم اللغة العربية لغير العـرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثالثة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثالثة)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعـاد طبعها

٤٨ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٤٩ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٠ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

كتب للمؤلف

سادسا : المكتبة الاسلامية المصـــوّرة

لكل الأعمـــار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ومن التاريخ والحضارة وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال

ظهـــر منها الأجـــزاء التـــالية :

ج ١ محمد قبل البعثة
ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)
ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات
ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها
ج ٥ الرســـول الداعية ومربى الدعاة
ج ٦ الرسول فى بيته : ازواجه — اولاده واحفاده — خدمه
ج ٧ الرسول فى بيته : مشكلات الحياة فى بيت الرسول وكيف عالجها
ج ٨ الرسول بين اصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم ويربى المجتمع الاســـلامى
ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام
ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل
ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون
ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود
ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم احداث غزوة بدر
ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التى اخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى
ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء
ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — الصراع ضد الروم — الفترة الأخيرة فى حياة الرســـول
ج ١٧ ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها
ج ١٨ عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية
ج ١٩ عثمان بن عفان والفتنة فى عهده
ج ٢٠ على بن أبى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجهها
ج ٢١ العشرة المبشرون بالجنة
ج ٢٢ المراة فى الاسلام ونماذج من خيرة المسلمات
ج ٢٣ الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف
ج ٢٤ الدولة الأموية : مواهب فريدة : الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز
ج ٢٥ الدولة الأموية : التوسع الاسلامى العظيم فى عهدها
ج ٢٦ الدولة الأموية : نشاط الشيعة خلالها وقصة استشهاد الامام الحسين .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحـــة

الموضـــــــوع	الصفحـــة

مقـــدمــــة

أدركت منذ كنت طالبا بجامعة كمبردج وحين كنت أستاذا بجامعات اندونيسيا فراغا ضخما فى بعض أركان المكتبة العربية والاسلامية :

فلم يكن بالمكتبة العربية على الاطلاق دراسة فى مقارنة الأديان ، وكأن الأقلام بعد الشهرستانى وابن حزم ... قد توقفت عن الخوض فى هذا الميـــدان .

وكان هناك تعبير « الحضارة الاسلامية » ولكن دون مدلول واضح ، وكان هذا التعبير يتجه لتصوير حضارة المسلمين بالأندلس من عمارة ونهضة علمية ويقنع تقريبا عند هذا الحد .

ولم يكن التاريخ الاسلامى متكاملا فى المكتبة العربية ، فقد اتجه المؤرخون المحدثون الى التعمق فى نقاط معينة وتركوا الكثير دون ايضاح وتدوين .

ولظروف خاصة ، شرحتُها فى مكانها فى هذا الكتاب وفى ســـواه ، التزمتُ بكتابة هذا المنهاج الطويل المضنى ، وكان ضمن ما كتبت كتابى « المجتمع الاسلامى : أسس تكوينه — أسباب ضعفه — وسائل نهضته » وفى أحد فصول هذا الكتاب تحدثتُ عن « دراستى فى الأزهر » واستلزم هذا الحديثُ أن أسرد فكرة عن بعض ظروف حياتى ، ولم يكن الحديث عن حيـــاتى مقصـــودا لذاته ، وانما جاء عرضا وأنا أدرس فترة عاصرتُها فى الأزهر .

وصدر بعد ذلك كتاب « مفكرون وأدباء من خلال آثارهم » للباحث الفاضل الأستاذ أنور الجندى ، وقد تفضل فكتب عنىِّ ضمن من كتب عنهم ، واعتمد فى جُلِّ ما كتب على ما سجلتُه عن نفسى بكتابى السابق ، وهنـــاك مقالات اتخذتنى موضوع حديثها ، واذاعاتٌ ألمّت بخطواتٍ من تاريخ حياتى ، واتخذتْ هذه كلُّها حديثى السابق أساسا لمـــا ذكَرتُه عنى .

وقـــد أدركت لذلك ضرورة أن أدوّن مزيدا من التفصيل عن حياتى ، فمن يدرى ؟ قد يحتاجها باحثون آخرون فى مستقبل الأيام كما احتاج الباحثون المعاصرون الى ما دونته فى كتابى « المجتمع الاسلامى » •

وكان ذلك أساسا للتفكير فى وضع هذا الكتاب •

ثم تطورت الفكرة ونمت فاذا بالموضوع يصبح أكثر خطورة وأكثر استقلالا ، فلم يعد الهدف منه أن أقدم شذرات يستفيد بها من قد يحاول الكتابة عنى ، وانما أصبح الهدف تقديمَ زادٍ علمى فى موضوعات مختلفة ، ووصفا لتجارب ومشاهد ذات أهداف مهمة تحمل فى أعطافها اتجاهات حضارية ، وبحوثا متناثرة ذات بال • ثم ان كثير من المفكرين عنوا بتدوين سيرتهم الذاتية ، وتصوير حياتهم ونجد فيما دونوه متعة واسعة وفائدة جمة ، فالحياة الخاصة تنعكس على الانتاج وعلى الحياة العامة •

ومما قوّى عزيمتى على السير فى هذا العمل أن هناك اتجاها يميـــل للدراسات الخفيفة المتنوعة ، ويراها كالبستان اذا كثرت زهوره وتعددت أنواع الثمار فيه ، لأن هذا يتيح للانسان أن ينتقل من لون الى لون ومن طعم الى طعم ، وهذا الكتاب من هذا النوع •

وساعدنى على تنفيذ هذا الاتجاه أن حياتى لم تسر كما تسير حياة معظم الناس رتيبةً سهلة ، وانما كانت حياتى حافلة بالنجاح والمزالق ، عرَفتْ القمم والأغوار ، وذاقت الرخاء وعانت الجوع أو التهديد به ، فقدمتْ بذلك مادة وفيرة يجد فيها القارىء سلوى وعزاء لمـــا يصادف من أحداث ، وكيف بحياة يصبح الانسان فيها أستاذاً قبل أن يصبح أستاذا مساعدا ، ويخطو برغبته وهو فى قمة النجاح من أستاذ الى مدرس ، وكيف برجل يدخل وظيفة مدرس بالجامعة وهو فى الدرجة السادسة ، ثم يعود

فيدخلها نفسها وهو فى الدرجة الثانية وعلى وشك أن ينال الأولى • وهكذا مفارقات مختلفة الأنواع تحكى كلٌ منها قصة ذات معنى •

وكيف برجل عاش فى الأزهر وأخلص للحياة فيه ، وللطلاب فى الأزهر وبخاصة فى جيلنا حياة أهم ما تمتاز به التقشف والخشونة والانغلاق ، ثم بعد فترة ليست بالطويلة رأى نفسه طالبا بجامعة من أعرق جامعات الدنيا هى جامعة كمبردج ، وحاول ان يعيش مع الأمراء وأحفاد المجد بها كواحد منهم او ليس بعيدا عنهم ، وعقب حصوله على الدكتوراه بفترة ليست طويله رأى نفسه بين الدبلوماسيين بالخارج يشغل منصبا مرموقا له كثير من المزايا الماديه والأدبية ، ولكن الأهم من ذلك هو أن هذا المنصب وضعه بين الدبلوماسيين العرب والأجانب ، وللدبلوماسيين العرب قصة حافلة بالعجائب لست اعتقد أن الظروف ستسمح لى برواية كل ما أعرفه عنها ، ولكنى على كل حال استطيع أن اشير الى الأحداث ولون الحياة التى يحياها هؤلاء ، لعل فى هذا بعض العظة والتذكير •

ولمحات فى السياسة الداخلية والخارجية ، ونظرات الى الدواوين والروتين والأخلاق ، بعضها رأيته أنا ورأيت فيه جوانب تدعو للعجب فرويته فى هذا الكتاب ، وبعضها يراه الناس معى وكل دورى فيه أن أدوّنه وأعلق عليه مما يجعل هذا الكتاب فى كثير من الأحوال تعبيرا عما يجول بنفوس الناس •

* * *

ولهذا العمل ملامح ينبغى أن أوضحها ونحن على عتبة الدخول فيه :

أولا : فى رحلة حياتى لن أذكر الأشياء الشخصية التى لا تهم القارىء ، فقد أخذتُ نفسى أن أقدم للقارىء أحداثا لها أهداف ، أقدم تجاربى ومشاهداتى مع التعليق أحيانا ، وبدونه اذا كان الحدث لا يحتاج الى تعليق ، وكل ما أطمع فيه أن يدرك كل انسان أن عيونا ترقبه وتدوّن تصرفاته من حيث لا يدرى ، فيرعى الله ويخشى أسنة الأقلام •

ثانيا : لن أكتب أسماء الذين باشروا الأحداث الا قليلا ، وسادعهم يقرءون عن أنفسهم ، ويقرأ عنهم الناس ، ويكفى أن يرى الانسان نفسه فيخجل ان كان فى تصرفه ما يدعو للخجل ، على أن المربين يرون ان الكتابة عن ظالم دون ذكر اسمه تخيف كل الظالمين ، وكذلك الكتابة عن المرتشين والمنافقين ••• ولهذا فقد تركت الأسماء غالبا حتى لا يكون فى هذا الكتاب أى محاولة للتشهير ، وحتى يكون أوسع دائرة وأعظم اثرا •

ثالثا : ترتبط هذه الأحداث مع « رحلة الحياة » التى هى أساس العمل • فلكل مرحلة من مراحل هذه الحياة مشاهدها وتجاربها ولكن مع ملاحظة أننى عندما أمسك الخيط وأطرق قضية من القضايا أظل معها حتى استكمل دراستها ، وذلك مثل حديثى عن الأزهر الذى ارتبطت به فى مطلع حياتى • فقد ظللت أدرس مشكلات الأزهر كما أراها حتى الآن ، فتخطيت بها حدود الزمن وقدمتها كاملة •

رابعا : ليس كل ما يعرف يقال ، ولو تعرض انسان فى مثل ظروفنا ليقول كل ما يعرف لكان صعبا أن ترى كلماته النور ، ومع هذا ففيما نذكر بعض الغناء ان لم يكن كل الغناء •

خامسا : اننى أدرك أن الحديث عن النفس غير مستطاب ، ولكن طبيعة العمل الذى نقوم به هنا يستلزم الحديث عن النفس من حين لآخر ، وبعض ما يبدو على أنه مفاخر هو فى الواقع حقائق لا يمكن تجاهلها لتأثيرها فى مجرى رحلة الحياة ، فأرجو ألا ينسى القارىء ذلك حتى يغفر لى ما يخلته حديثا عن النفس •

وفى ختام هذه المقدمة أدعو الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وهو نعم المجيب •

دكتور أحمـد شلبى

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٧٣

مقــدمة الطبعة الثالثة

كان اقبال القراء على هذا الكتاب عظيما ومشجعا ، ولم يكتف كثير من القراء بالقراءة ، بل كتبوا الىّ يعلقون على أحداثه ، أو يطلبون مزيدا من التفصيل عن بعضها ، وبعض الجمعيات الاسلامية التى لم يرد ذكرها فى الطبعة الأولى كتبت لى عاتبة لأنى لم أضعها بين مراكز الفكر الاسلامى التى كتبت عنها …

وقــد نفدت الطبعة الأولى والثانية منه منذ مدة ولم أقدمه للطبعة الثالثة عقب نفاد الثانية مباشرة ، بل انتظرت فرصة لأعيد النظر فيه رجــاء أن أحقق بعض ما طلبه القراء أو كله .

ويسرنى اليوم أن أقدم هذه الطبعة بعد أن أضفت لهــا الكثير وأرجو أن تكون أوفى وأشمل … وبالله التوفيــق ،،،

المؤلف

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٢

مطلع الحيَاة

قـرية علـــيم :

برزتُ للحياة فى قرية صغيرة اسمها « عليم » بين مدينتى (أبو حماد) والزقازيق بمحافظة الشرقية ، وهى أقرب الى (أبو حماد) ، ولعل أحــداً لم يحاول أن يتعرف على أساس هذه التسمية ، وهل هى اشتقاق من العلم أو لها به صلة ؟ لست أدرى •

والذى يرى هذا الاسم « عليم » سيقرؤه بفتح العين ، ولكن النطق الشائع هو بكسر العين ولعله تحريف للاسم الصحيح ، وعلى كل حال فان ربط اسم هذه البلدة بالعلم شىء لا يعززه التاريخ ، فقد كنت أول الأفواج التى خرجت من هذه القرية تطلب العلم وتسعى لتحصيله •

وكان طلب العلم فى مطلع هذا القرن قليل الانتشار ؛ ومع هذا فان المنطقة المحيطة بنا عرفتْ العلم وأقبلت عليه ، ففى القرى المجاورة لنــا تسكن أسر عرفت المدنَ والغنى والعلم منذ أنشئت المدارس ، ولكن هذا الاتجاه لم يدق باب قريتنا الفقيرة ، وقنعتْ بأن ترسل قلة قليلة من أبنائها « ليجاوروا » فى الأزهر أو مساجد القاهرة مدة عام أو عامين للتعرف على شىء من الفقه الاسلامى ، ثم يعودون للقرية بعد أن يحمل كل منهم لقب « شيخ » كفاء طلبه العلم هذه الفترة بالأزهر أو ملحقاته •

وقريتنا مع فقرها طيبة هادئة مسالمة تتوزع الثروات فيها بشكل أقرب الى المساواة فلا يوجد غنى متخم ولا فقير مدقع ، فالثروات الواسعة والنفوذ العريق الذى تتمتع به بعض الأسر المجاورة لا وجود له فى قريتنا ، ومع اختفاء هذا الغنى اختفى الصراع والتنافس والحقــد ، وحل بقريتنا خلق التعاون والود غالبا ، والقرية تمثل أسرة كبيرة ، فالقرابة والمصاهرة تربط الجميع ، ولا يكاد يوجد فرد لا يمت للآخرين بصلة من صلات النسب أو القربى •

كلمة عن الأسرة والنسب :

فى هذه القرية وُلِدْتُ فى العقد الثانى من هذا القرن (القرن العشرين) ، ولكن صلة أجدادى بها غير معروفة التاريخ . فمتى انحدرنا الى هذه المنطقة ؟ لا ندرى ، وهناك أقوال أشبه عندى بالأساطير سمعتها من السابقين ، بعضها يرى أن الأسرة تنتسب الى حاكم تركى أرسلته الخلافة العثمانية لحكم تونس ، فلما انتهت مدة حكمه تراجع الى مصر واتخذها وطناً له ، وانساب أولاده فى عدة نواح بها [1] ، وكان أحد أعمامى المعمّرين يؤكد أن الأسرة عربية تنحدر من ذرية سيدنا أبى بكر ، وفدت الى مصر فى عهد الامام على الذى جعل ولاية مصر لمحمد بن أبى بكر . وعندما واجهت عمى بالرأى الأول قال أن فروعا من الأسرة انتقلوا الى تركيا من مصر عقب دخول الأتراك مصر ، وأوفد منهم بعد ذلك هذا الحاكم الى تونس ، ولايزال بعض فروع الأسرة فى تركيا حتى الان ، وهو بهذا يوفّق بين الرأيين .

هل هذه أساطير ؟ هل هذه حقائق ؟ لا أستطيع أن أجزم برأى .

واذا كانت هذه الأخبار قد غطى عليها ضباب التاريخ فأوشك أن يحجب عنها الحقيقة فانه ليس من المهم أن نكترث بها ، فخير للانسان أن يتطلع لحاضره ومستقبله من أن يتسلق نحو الماضى .

على أن هناك أخباراً عن أجدادنا هى سليمة أو الى السلامة أقرب ، فيروى أنه كان للأسرة نوع من الثراء ومساحات واسعة من الأرض ، فجاءت

---

(١) يذكر زامباور فى كتابه « معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » ان من دايات تونس حاكما اسمه أحمد جلبى (١٠٩٣ — ١٠٩٧ هـ) ولقد سمعت عن محاولات لربط اسرتنا به ، ولكن ليس لدى ما يؤكد ذلك ، وان كان لا يوجد ما ينفيه .

« السلطة » إبان حفر قناة السويس وفى مطلع الاحتلال البريطانى ، وكان على أصحاب الأطيان أن يقدموا أفراداً منهم ليخدموا دون أجر فيما يسمى « السخرة » لحراسة الطرق والجسور ، وتخلصا من ذلك استأجر أجدادنا بعض الناس وأطلقوا عليهم اسم الأسرة « شلبى أو جلبى » ليكونوا ممثلين لهـا أو نائبين عنها فى القيام بهذه السخرة ، ومر الزمن وأصبح هؤلاء معدودين من الأسرة فعلا ، وضاق أجدادنا بمطالب « السلطة » فتركوا أرضهم وتشعبت اتجاهاتهم ، وكان ذلك سبب وجود فروع من الأسرة فى عـدة نواح •

واتجهت الأسرة بعد ذلك الى التجارة ، وقد أحرزت الأسرة عن طريق التجارة مالا وفيراً جداً رآه أجدادنا الأقربون وذكروا لنا أن هذه الأموال كانت لكثرتها تقسم لا بالعدّ بل بالكيل ، وكان الطربوش التركى يستعمل فى كيل الذهب عند قسمته •

واذا كنا قد سمعنا عن هذا الذهب فاننا لم نر آثاره اللهم الا بعض مظاهر البذخ التى شهدناها والتى يمكن أن تكون كفيلة بضياع ثروات يؤخذ منها ولا يضاف لهـا ، فان التجارة كسدت رويدا رويداً فتلاشى ما كان أو كاد •

أبى :

وكان أبى أرشد أبناء أبيه ، وقد عمل فى تجارة مستقلة عن تجـارة الأسرة ، وحقق نجاحاً وفيراً ، واستطاع أن يشترى أرضا زراعية مساحتها ١٨ فداناً مع تجارته التى كانت تتسع وتتنوع ، فتشمل القطن والقماش والحبوب وأنواع البقالة ، وباشر أبى الاشراف على زراعة أطيانه واستلزم هذا شراء مجموعة من المواشى وأدوات الزراعة ، ونجحت تجارته وزراعته الى حـد كبير •

ثم ماتَ أبى فى فترة شبابه وأنا طفل فى الرابعة من عمرى ، فضعفتْ التجارةُ وانكمشت ولم يبق منها الا بصيص كان ينتظرنى لأواصل العمل الذى بدأه أبى ، ولكن الظروف اتجهت بى اتجاهات أخرى كما سنرى فيمـــا بعـــد .

لقـــد ترك أبى لى ثروة عشت فى رحابها بشىء من الكفاية ، ولكنه ترك لى شيئاً أهم وأعظم من الثروة ، هو الذكر الطيب ، فقد اتسع صدر أبى الى كثيرين من معاصريه فدفعهم للعمل تحت اشرافه ، وساعدهم بماله ومكانته ، وكسب هؤلاء عن هذا الطريق وسائل حياتهم ، وقد رأيت كثيرين من هؤلاء وسمعتهم يتغنَّوْن بالثناء والشكران له ولأياديه ، وقبيل وفاة أبى راح يوزع ثروته بشكل يدعو للاعجاب حقاً ، فقد منح أباه وأخاه وأخته حوالى ثلث أطيانه أو ربعها وترك لى ولأخواتى الباقى ، والحق أنه من النادر أن يعْنىَ انسان بإخوته مع وجود أبناء له ، ولكنى أرى ذلك نوعا من البر أحاول دائماً أن أحذو حذوه .

التجـــارة وهـــل تورث ؟ :

ولنعد لتجارة أبى وللتجارة على العموم لنتحدث عنها قليلا ، ونتساءل : هل تورث البراعة فى التجارة ؟ اعتقادى أن التجارة صنعة ككل الصناعات وخبرة ككل الخبرات ، فلا أستطيع أن أكون حداداً أو نجاراً أو معلماً اذا لم أُعَدُّ لهـــذا العمل ، وبعض الناس يجهلون هذه الحقيقة ، ويرون التجارة بيعاً وشراء ويتناسون ما بها من حس وذوق وفن وصنعة ، فتفشل تجارتهم دون ابطاء ، وأمامى صور كثيرة لتجار ماتوا وتركوا تجارات واسعة ولكنهم لم يتركوا أفراداً مؤهلين للاستمرار فى ادارة هذه التجارة ، وكانت النتيجة أن ضاعت هذه التجارة دون أن يـُعـْرَف مصيرها ، وخير لورثة التاجر الذى يموت دون أن يكون له وريث يجيد التجارة أن تصفَّى تجارته فى الحـــال ، وأن تصبح مالا أو أرضا زراعية ، والا ضاعت هذه التجارة يوما بعد يوم حتى تفنى دون أن يـُعـْرَف مصيرها .

ولقد كانت تجارة أبى من هذا النوع ، كانت واسعة جدا ، رأيت من آثارها الخزائن الحديدية والحوانيت الواسعة ووسائل الكيل والوزن والقياس ، أما التجارة نفسها فقد أخذت تنكمش ، واتجهت الأسرة للحفاظ على هذه التجارة حتى أشبّ فأتسلمها ، ولكنى عندما نفضت الطوق تطلعت الى ميدان آخر غير التجارة ونفذت تطلعاتى ، وكان ذلك ايذانا بتوقف المحاولة ، وكانت التجارة نفسها قد انكمشت وضمرت ، ثم زالت نهائيا دون أن نعرف لرأس المال أى مصير • ولولا أن أبى كان قد اقتطع من ثروته بعض المال القليل نسبيا ، واشترى به تلك الأرض الزراعية لكان مصيرنا مؤلمـا مريرا •

وبعد هذه الالمامة عن الأسرة ، تلك الالمامة التى امتدت من الأساطير الى الواقع الملموس ، بعد هذا نصل الى كاتب هذه السطور وهو يصارع الحياة فى العقـد الأول والثانى من حياته :

طفـولة الكاتب :

لقد سرتُ فى العقد الأول فى المجال الذى سار فيه أطفال القرية ، التحقتُ بالكتّاب ، وحفظت القرآن الكريم ، وعرفت تجويده ، وعرفت شيئاً من الكتابة وشيئا من الحساب ، وكانت الميول تتجه بى كما أشرت آنفاً لاعدادى لأباشر التجارة التى خلّفها أبى ، ولم تكن لى رغبة أعبر عنها قبولا أو رفضا ، فلما بدأ العقد الثانى من عمرى رأيت بعض « الأفندية » فى القرى المجاورة الذين كانوا قد التحقوا بمدارس الزقازيق وعادوا بعد ثلاث سنوات مدرسين بالمدارس الأولية ، وكان هؤلاء أملا لى ومثَلا أعلى ، فبدأتُ أتطلع لمثل هذه المكانة ، وقررت أن أنصرف تماما عن الاتجاهات التى كانت تدفعنى لأزاول التجارة ، وساعدنى على ذلك أن الأيدى التى أسنِدَ لهـا أن تسيِّر زورق التجارة لم تنجح فى تسيير هذا الزورق ، فأخذ يهبط نحو القاع ، واتجهتُ بكل جهدى نحو التعليم •

ولكن مشكلات جمة اعترضت طريقى نحو العلم ، فأنا الابن الوحيد لأبى ، وقد وجدت أمى وأخواتى أن من المستحيل أن أغترب الى الزقازيق ، فان ذلك يعرضنى لأخطـار الغربة كمـا كانوا يتصورونها ، ولم يكن فى قريتى من يستطيع أن يأخذ بيدى لأخطو نحو معاهد التعليم ، ومن هنا حملت العبء كله ، وكان يبدو لى ثقيلا ولكن لذيذا ، فقد ذهبت أتحسس الطريق لمعاهد العلم وأتساءل عن الأوراق اللازمة ، وأقدم طلباً لشهادة ميلاد ، وأحصل على استمارة التحاق ، وأبحث عمن يملأ لى هذه الاستمارة ، وأضل الطريق فى الزقازيق وأنا متجه نحو هذا المكان أو ذاك .

وكان الله معى فى هذه المرحلة القاسية التى تحدد فيها خط حياتى ، فقد كانت مدارس المعلمين هى كل أمنيتى أو هى الهدف الوحيد أمامى ، فطرقت بابها ، ودخلت امتحان القبول ، ولكن بضاعتى لهذا الامتحان كانت قليلة ، واستعدادى له كان معدوماً ، وأنَّى لى أن أعرف المواد التى سيؤدى فيها الامتحان ، أو الكتب التى ينبغى أن أقرأها لذلك ؟ ومن أجل هذا لم يكن من الممكن أن أنجح فى هذا الامتحان ، ولم يبق أمامى الا باب واحد سمعت الطلاب الذين دخلوا الامتحان معى يتهامسون به ، هو معهـد الزقازيق ، فاتجهت له على مضض ، لأنه طريق طويل ، ولأن المتخرجين منه آنذاك كانوا — بعد دراسة خمسة عشر عاماً — يتقاضون نفس المرتب الذى يتقاضاه خريج المعلمين الأولية الذى يمضى فى دراسته ثلاث سنوات فقط ، ولم يكن الا المـال مقياساً للتفكير ، أما العلم والفكر فكانا أبعد ما يكون عن مستوى تفكيرنا ، ولندع الأزهر الآن فلنا معه حديث طويل فيما بعد ، ولنواصل التعرف على أحداث قريتنا وما سجلته الذاكرة من هذه الأحداث :

من نفـوذ الأغنيـاء بالريف :

قلت فيما سبق ان حياتنا الاقتصادية ارتبطت بالأطيان التى خلفها لنـا أبى ، ولكن هذا المورد هددته القوة الغاشمة ، وأنا فى مطلع الصبا ،

س ط ف

فهذه الأرض الزراعية ومساحتها بالضبط ١٧ ٥ ١٢ كانت تحيط بها من كل جانب أطيان واسعة يملكها اقطاعى اسمه حنا ميرهم ، وهو شقيق رجل سياسى شهير اسمه الاستاذ عزيز ميرهم ، وكان حنا بك هو الذى يدير هذه الأطيان ، ولم يكن متزوجاً وبالتالى ليس له أولاد ، ومع هذا فقد وهب المالَ جهده ، واستحوذ المالُ على نشاطه وعقله ، ورأى حنا بك أن أرضنا عقبة فى وسط عزبته الفسيحة ، ونتوءاً ينبغى أن يزول ؛ وقد أوسَعنا الرجلُ ايذاء وعدوانا ، ولم يكن لنا أن نشكو ، فان نفوذ الرجل كان ممتدا الى أقسام البوليس والى كل باب يمكن أن نطرقه ، ولم نجد وسيلة للتخلص منه الا بالخضوع لرغبته واجراء بدل معه ، نترك له أرضنا ونأخذ أرضاً بدلا منها فى مكان آخر ، وتمَّ للرجل ما أراد ، فأزيلت معالم أرضنا ، وابتلعتها مساحته ، وقَبَعْنا فى الأرض التى أُعطِيناها ، ولم تكن هذه الأرض جيدة بل كانت رديئة التربة ، لا تُقاس من قريب أو من بعيد بأرضنا التى تركناها . وانخفض مستوى معيشتنا الى حد كبير ، ولكن نفقاتنا كانت محدودة فاستطعنا أن نعيش على أىّ حال . ولم يسمع الرجل لتوسلاتنا ولا لوساطة الآخرين ليعيد لنا أرضنا ، وأذكر أن أحد أعيان البلاد المجاورة هدَّده بالمستقبل ، وذكر له مكانة أبى وكيف كان مهيب الجانب ، وأن الابن الصبى سيصبح رجلا مكان أبيه ، ومن الأجدر ألا ننتظر هذا المستقبل ، لأن هذا المستقبل سيحمل فى طياته صراعاً لن يكون حنا بك منتصراً فيه لظلمه . ولكن حنا بك ابتسم ساخراً لهذا التهديد .

ومر الزمن ، وجاء دور شبابى وأخذت أطوى العقد الثانى من العمر ، والتحقت بكلية دار العلوم وكنت أستمتع بشخصية قوية وصحة جيدة ، وأخذت من العلم قدرا لا بأس به ، كما كان لى نشاط فى المجال السياسى ، وكنت وفدىّ النزعة والنشاط ، وعرفت فى هذا المجال السياسى مكانة الاستاذ عزيز ميرهم فى صفوف الوفد ، وتقدمت بكل هذه الطاقات اليه والى حنا ميرهم أطلب الغاء هذا البدل الجائر ، وهدَّدت باثارة المسألة على مستوى عال يصل لزعماء الوفد ، وهددت بوسائل أخرى قانونية ، وكان

عزيز ميرهم مهذباً يخاف على سمعته ، وكان حنا ميرهم ذكيا فوجد من الأوفق ألا ينزل هذا الصراع فوافق سنة ١٩٤٠ على الغاء هذا البدل ، وعدنا من جديد الى أرضنا الطيبة •

وفى مجموعة القرى التى نعيش بها ظهر نوع آخر من الطغيان كان مرير النتائج ، فلقد كان للأسر الكبيرة المحيطة بنا « محاسيب » بالقرى الصغيرة ، وكانت الأسر الكبيرة تؤيد هؤلاء المحاسيب ان عدلوا أو جاروا ، وقد ترتب على ذلك أن ظُلِم أناس ، فهبوا يدافعون عن أنفسهم ، فقُوِموا بقسوة فثاروا حاقدين يضربون باليمين وبالشمال ، وتعاظمت الأحداث ، ولست أحب أن أسجل فى هذا المجال شيئا ، فقط أرجو أن يتذرع الناس بالعدل ، فكل ظلم مآله الزوال والدمار ، ولا يحق للقوى أن يخلق لنفسه عداوات ، ولا للعظماء أن يدفعوا الناس الى الاجرام والخطايا •

القرية المصرية وضرورة اعادة تخطيطها :

وقبل أن ندع قريتنا الصغيرة الى الزقازيق نقرر آسفين أن الزمن مر ، وأوشكنا أن نطوى القرن العشرين ، ولكن قريتنا ككل القرى المصرية تزداد تخلفا وسوءاً ، لقد دخلت المياه النقية قريتنا كأكثر القرى استمراراً لمشروعات بدأت قبيل نهاية النصف الأول لهذا القرن ، وأوشك النور أن يدخل قريتنا وبعض القرى المجاورة ، ولكن هذا وذاك طلاء ضئيل ، أما القرية نفسها بشوارعها الضيقة القذرة ، كثيرة الالتواء ، وأما المنازل الخانقة قليلة النظام ، وأما المصاطب التى تعترض السيارات والمشاة ، وأما أكوام السباخ والقاذورات التى تملأ الشوارع وتقف عملاقة فى مداخل كل قرية تستقبل الوافدين والخارجين بروائحها الكريهة ومناظرها الأليمة ، وأما البرك والمستنقعات التى يربَّى فيها الناموس والديدان والذباب فقد زادت اتساعا وعمقا ، وكل هذا وسواه يطالعك فى القرية

المصرية لا على النحو الذى شاهدته فى العشرينات بل على أسوأ وأسوأ مما كان ٠

ولو عُمل تخطيط لاعادة بناء القرية المصرية ، وكان هذا التخطيط بطيئا طويل المدى ، ولو خمسين قرية فى العام لأصبح أكثر قرى مصر جيدة التخطيط جيدة البناء ، ولكن المشكلة أن القرية مهملة تماما ولا يفكر فيها أحد ، تركت نائمة مع مر العصور وتقدم الفكر ، ويحس الانسان بحسرة وأسف عندما يقارن قرانا بقرى اسرائيل التى تصفها الشعارات بأنها « اسرائيل المزعومة » ولم تفعل ثورة الجيش شيئا على الاطلاق للقرية المصرية للأسف ، وتركتها كما تركت المدن تعيش فى ظلام العصور الوسطى ٠

وانتشر التعليم فى قريتنا كما انتشر فى أكثر القرى ، وقامت على أثر ذلك بالقرى منازل نظيفة بل « فيلات » فخمة أحيانا ، ولكن هذا قليل تراه متناثرا هنا وهناك ، أما المجموع فلايزال يرزح تحت أعباء السنين ، وقد يبنى المتعلم بيتا فخما ، ولكن سرعان ما يحس أنه غريب فى القرية لأن طريقه الى هذا البيت صعب مدمّر ، ولأن المناظر الكريهة تحيط بمنزله من كل جانب ، فلا يلبث أن يدع البيت والقرية الى غير رجعة ٠

لقد أهملت الدولة القرية تماما ، وأهملت المحافظات القرية كذلك ، ونحن نعتب على المسئولين هنا وهناك ونذكرهم بذلك ، ولكن أهل القرية أيضا يتجه لهم بعض العتب ، فطالما تعاونوا لبناء مسجد واعداد أضرحة ، فهل يظنون أن هذا هو الاسلام فحسب ؟ لا ٠ ان عمارة الدنيا من أهم ما دعا اليه الفكر الاسلامى واقتضته الحياة الكريمة التى يجب أن يستمتع بها المسلمون ، ولهذا يتحتم على أهل القرية أن يتعاونوا لتنظيمها وتحسينها وتذليل الطريق اليها ٠

وقد زرت قريتنا مرة وكنت أنوى أن أقضى بين أهلى ورفاق صباى أسبوعا أو أسبوعين ، ولكن الليلة الأولى كانت مريرة فانتظرت الصباح

بصبر أوشك أن ينفد ، وفى مطلع الصباح شددت الرحال عائدا الى القاهرة ، لماذا ؟ لقد كان الناموس يمثل جيشا من الأعداء هاجمنا بقسوة ، فلم نستطع أن نجلس أو أن ننام ، ولم يجد معه أى دواء ولم تنجح الكله « الناموسية » فى حمايتنا ، فودعنا البلدة آسفين ، وبعد أسبوعين اتصل بى أهلى بالقرية ودعونى لزيارتها وأكدوا أن الناموس قد اختفى تماما ، وأسرعت فلبيت الرغبة ، ووجد الناموس قد اختفى فعلا ، فتساءلت عن السبب فقيل لى : ان وزارة الزراعة قامت بعملية رش للقطن فأهلك الدواء الناموس ، وهكذا كانت عناية الدولة بسلامة القطن أكثر ألف مرة من عنايتها بسلامة البشر والمواطنين الذين ينتجون هذا القطن وسواه .

دعوة حارة فيها كثير من الطموح ولكنه طموح ضرورى ، هو أن نعيد بناء القرية المصرية ونعيد تنظيمها ، وأن تشترك الجهود الحكومية وجهود المحافظات وجهود الأفراد فى ذلك ، كلٌ بقدر طاقته العلمية والمالية والجسدية .

وكلمة ختامية أرجو أن تبعث الغيرة فى نفوس المصريين ، هى أن القرية فى السودان أجمل جداً من القرية المصرية وأدق تنظيما ، وهى كذلك شديدة النظافة ، أما اسرائيل عدوتنا اللدود فقد أعادت بناء القرى والمدن فى أكثر فلسطين ، فلنتجه لهذا الهدف ، وليس شىء بصعب على من يحاول العمل بجد واصرار .

* * *

والآن هيا بنا نشد الرحال الى الزقازيق لنبدأ جولة مع الأزهر الشريف ، ولنتابع رحلة الحياة فى هذا المعهد العريق منذ دققت بابه حتى نظرتنا نحوه عند كتابة هذه السطور .

الأزهر

مكانة الأزهر ومكانة علومه :

الأزهر هو ذلك المنار العملاق الذى ترفرف رايته على الكون منذ أكثر من ألف عام ، حَرَسَ الفكر الاسلامى فى كل الظروف وأمام كل القوى ، وأرسل أشعته عبر البلاد وعبر البحار دون أن يعوقه عائق ، فكان طيلة عدة أجيال المكان الوحيد فى العالم الاسلامى الذى سطع فيه نور العلم يوم خبا ذلك النور فى كل مكان ، ثم كان الملاذ الذى اختير منه المبعوثون لدراسة الطب والهندسة وغيرهما من العلوم المدنية يوم بدأت النهضة فى مصر لاحيـــاء هذه العلوم •

فلنعش مع الأزهر ردحا من الزمن لنراه وهو يكبو ويفيق من كبوته ، ولنراه وهو يصارع الزمن ليظل يخدم الاسلام فى مختلف الأرجاء •

وقد كانت خطوتى الأولى نحو التعليم هى دخول معهد الزقازيق ، أحـــد فروع الأزهر الشريف ، وكان ذلك فى مطلع الثلاثينات ، ومنذ ذلك الحين لم تنقطع صلتى العلمية بالأزهر ، عشت فيه طالبا فترة طويلة وتلقيت فيه علوما لم أكن أحس يومها أنها علوم تخدم الاسلام ، وانما كانت مزيجا من الفكر ، النحو والصرف والعروض والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والحساب ••• وكانت فى مجموعها تُسْلِم الطالب من فرقة الى فرقة ، ويرجى أن تُسْلِمه فى النهاية الى وظيفة يتعيش منها •

واذا كان الطابع الروحى قد اختفى من دراستنا ، فانه قد وجد فى زِيِّنـــا ، زى الشيوخ الذين كان عليهم ، بحكم هذا الزى ، وبحكم الانتماء الى الأزهر بشكل عام أن يكونوا من المتحمسين للاسلام والتفقه فيه •

وكأن علوم الأزهر كانت بذورا عاشت فى نفسى مدة طويلة ، فلمـــا هطل عليها وابل الفكر فيما بعد بدأت تزدهر وتنمو ، وكانت خير عون لى عندما هيأتنى الظروف للتعرف الحقيقى على ديننا الحنيف من خلال دراسة « الحضارة الاسلامية » و « مقارنة الأديان » فقد وجدت أن رصيدا ضخما

من دراساتى بالأزهر يمكن أن يُنْتَفع به ، وأخذ هذا الرصيد يتحرك فأمدّنى بكثير من الوسائل التى حملتنى الى الغايات التى بدأتُ أتطلع لهـا لخـدمة الدين ، وخدمة الانسانية عن طريق هذا الدين .

لقد درست فى الفقه موضوع تعدد الزوجات وموضوع الطلاق ونظام الميراث والرق ، وحفظت رأى الاسلام فى هذه الموضوعات وما ماثلها ، ولكنى لم أعرف شيئا قط عن فلسفة الاسلام تجاه هذه الدراسات ، ولم يذكر الشيوخ ولا المراجع القديمة كلمة واحدة عن أسباب اتجاه الاسلام نحو تعدد الزوجات أو اباحة الطلاق ، أو الأخذ بهذا النظام فى الميراث أو الرق ، ولم يكن فى طوقى بناء على ما تعلمته فى الأزهر أن أدافع عن الاسلام اذا هاجمه من يرى أن تعدد الزوجات بلاء ، وأن الطلاق تدمير للبيوت ، وأن من الظلم ألا نساوى المرأة بالرجل فى الميراث ، وأن نجيز الرق ، فلما بدأتُ فيما بعد أدرس تشريعات الأديان الأخرى ، وأقارن بينها وبين الاسلام ، ولمـا بدأت أدرس فلسفة التشريع الاسلامى اتضح لى ما لم أعرفه فى الأزهر ، ولكن علوم الأزهر كانت على كل حال أساسا لكل ما عرفت فيما بعد .

من أجل هذا تجدنى شديد الوفاء للأزهر ، شديد الحرص على خدمته ، سعيدا بالارتباط به ، وأنا أعرف أن كثيرين من الناس الذين لهم جـذور أزهرية يخفون هذه الجذور ، ويضيقون بذكرها ، ولست من هؤلاء ، فان أول جملة تقرؤها فى التعريف بى على ظهر غلاف هذا الكتاب وسواه من كتبى أننى تلقيت علومى فى الأزهر .

ولكن الصورة الحقيقية لانتفاعى بالأزهر يمكن أن تتضح اذا تصورتَ أنك زرت يوما صديقا لك فأعطاك قطعة من حجر ، لم يوضح لك قيمتها ربما لأنه هو نفسه لا يعرف قيمتها ، وبالتالى لم تعرف أنت لهـا قيمة ، وألقيتها فى متاعك غير حريص عليها ، ومرت الأيام فقابلت رجلا صَنَاعاً علَّمك القـدرة على التعرف على الأحجار الثمينة وعلى أن تصوغ منها أجمل حلىّ وأنفعه ، وتحسستَ الحجر الذى أخذْتَه يوما من صديقك فوجدته ثمينا

جدا ، ورحت تخرج منه حليا تخلب الأنظار ، وكان من الوفاء أن تزداد حبا لصديقك الذى منحك هذا الحجر ، وأن يعيش ذكره الطيب فى خلدك ٠

فالذين اعترفوا بصلتهم القديمة بالأزهر وافتخروا بها هم الذين تعرفوا على قيمة الأحجار الثمينة التى أخذوها منه ، أما الذين لم يتعرفوا على قيمتها فقد تنكروا للأزهر وربما ألقوا بهذه الأحجار بعيدا عنهم لأنهم لم يروا فيها الا ثقلا ترزح به حقائبهم ٠

حســاسية الأزهريين :

ووفاؤنا للأزهر الذى يدفعنا لتخصيص مساحة كبيرة للحديث عنه فى هذا الكتاب ، يجعلنا حريصين على الصراحة معه وعلى الرغبة فى أن نجعله كما ينبغى أن يكون ، ولكن شيئا مهما يعيش فى الأزهر وتتعمق جذوره فيه ذلك هو « الحساسية الشديدة » فأى نقد للأزهر يثير ثائرة الكثيرين من الأزهريين ويغضبهم ، ولست أدرى هل يرى هؤلاء فى الأزهر أنه وصل الى درجة الكمال فليس فيه موضع نقد ؟ لا أظن أن أحداً فى الأزهر يرى هذا الرأى ، فالكمال لله وحده ٠

هل يحب الأزهريون أن يبقى الأزهر بعيوبه دون اصلاح ؟ ٠

لا أظن ، فمن الوفاء للدين وللأزهر أن نعرض عيوبه ونحــاول اصلاحهــا ٠

الذى أعتقده أن الأزهريين رأوا أزهرهم هدفا لنقد غير موضوعى أحيانا ، ولنقد غير بناء أحيانا ، ورأوا كذلك محاولات للنيل من الأزهر على أن ذلك وسيلة للنيل من الاسلام باعتبار الأزهر أقوى حصن يخدم الاسلام ، ومن هنا أساء الأزهريون الظن بأى نقد يتجه للأزهر وتحمسوا للرد على ذلك النقد ٠

وفى حديث نشر لى بجريدة الأهرام فى مطلع عام (١٩٧٢) ذكرت

أن علم « مقارنة الأديان » لم يأخـذ مكانة فى الأزهر وكذلك دراسة « الحضارة الاسلامية » على النسق الجديد ، وقد قابلنى عقب ذلك صديق أزهرى ، ووجدته غاضبا لذلك ، وذكر لى أن زملاءه ساءهم هجـومى على الأزهر ٠٠٠

وانا لم اهجم على الأزهر وانما أشيد بذكره فى كل مجـال ، ولكنى أريد له الخير والتطور ، ونقدى للدراسة فيه موضوعى بنـّاء رجاء أن يلعب الأزهر دوره فى كل العالم ، وأن يسترد مكانته فى البقاع التى اهتزت بها هذه المكانة ٠

واللهم اشهد أننى لا أريد الا الخير ، ولا يدفعنى الا الصالح العام ، وسيكون حديثى عن الأزهر حديث عارف به ، طالبا فيه وأستاذا به ، حديث رجل ارتبط به من مطلع الثلاثينات ولايزال على صلة به ، وتنمو هذه الصلة من يوم الى يوم ، وأدعو الاخوة الأزهريين الى دراسة ما أكتبه دون حساسية فليس فيهم من انتفع بالأزهر أكثر مما انتفعت ولا من يحبـه أكثر منى ٠

والآن هيا بنا لدراسات عن الأزهر الشريف ، فيها حقائق وذكريات ونقـد وأمـل ٠

فى معهـد الزقازيق :

من الناس من يؤمنون بالقدَرية ومنهم من يتنكرون لهـا ، ولكنهم جميعا لو تدبروا أمرهم برفق وأناة لرأوا القدَر يلعب فى حياتهم دورا كبيرا ، وأنا آخذ بالوسائل والوسائل قدر الطاقة ، ولكنى أومن أن القدر يتصرف ، وأرضى بتصرفه عندما لا توصلنى وسائلى الى الغاية التى أرجوها ، وعندما ينحرف بى القدر الى غاية أخرى ، وكثيرا ما كانت الغاية التى أرادها لى القـدر أنفع وأمثل ٠

لم يكن الأزهر فى حسابى — كما قلت من قبل — يوم تطلعت الى العلم ،

وكانت أطماعى تقف بى عند مدارس التعليم الأولى ، وتصورْ الفرق الشاهق بين ما أردته لنفسى وما أراده لى القدر ، لقد كنت أقنع بتعليم يوصلنى الى مدرس بالتعليم الأولى ، ولكن الله تعالى فى سماه سدّ فى وجهى هذا الطريق ، وفتح لى طريقا آخر أفسح وأبعدَ مدى ، وكنت أرانى حزينا يوم لم أنل مناى ، ولم أكن أعرف أن ما ادخرتْه السماء لى كان أعظم وأعظم .

شكراً لله على ما منح عبده ولا يملك العبد الا شكر سيده .

على أن باب الأزهر لم يفتح لى بيسر يوم طرقته ، حين لم يبق سواه أمامى وسيلة للعلم ، فقد ذهبت الى معهد الزقازيق صبيحة يوم سبت ومعى كل أوراقى ، ووقفت أمام الكاتب الذى يتلقى طلبات الراغبين فى الالتحاق ، ولكن الكاتب ردّنى قائلا : ان موعد قبول الأوراق انتهى يوم الخميس الماضى .

يا لله .. لقد انتهى آخر خيط من الأمل فى العلم .

واتخذت ركنا وقفت فيه هنيهة ، وهناك قفزت دمعة من عينى ، والحق اننى لم أدْعُ الله أن يجعل لى مخرجا ، فلم أكن أعرف آنذاك أن دعاء الله قد يفتح الأبواب المقفلة ويجعل المستحيل ممكنا .

ورأيت فى موقفى هذا شيخا بدين الجسم ، يرفل فى ثياب فاخرة ، يتجه نحوى ويسألنى برفق عن سبب كآبتى .

ولنقف عند ذلك الشيخ وقفة ، انه الاستاذ الشيخ أحمد شفيع السيد ، عرفته فيما بعد ، وتوثقت صلتى به ، كان شاعرا ممتازا ، مرهف الحس ، طيب النفس ، والشاعر المرهف الحس يشارك الناس آلامهم أكثر مما يفعل الآخرون ، ولذلك اندفع نحوى وسألنى عما يحزننى ويبكينى ، فلما قصصت عليه قصتى ، قال : تعال معى الى شيخ المعهد لعله يجد حلا لمشكلتك . وتصادف أن شيخ المعهد كان يخطر بمشية وزينة نحونا

فاندفعنا اليه ، وعرض عليه فضيلة الشيخ شفيع قضيتى فأصدر أمرا للكاتب المختص أن يقبل أوراقى قائلا : خذ أوراق هذا الطالب فقد يكون انسانا نافعا • وتناول الكاتب الأوراق منى •

من الحق على أن أعطر هذا الكتاب باسم شيخ المعهد ، انه فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحكم عطا ، وكان رجلا مهيب الطلعة ، تقرأ الصفاء فى وجهه وتحس الاخلاص فى كيانه ، انه من الهبات الخلقية والعلمية التى لا تتكرر كثيرا جزاه الله عنى أحسن الجزاء •

ولنمش مع فضيلة الشيخ شفيع سطورا أخرى ، لقد نسى الرجل معروفه الذى قدمه لوجه الله ، وتغير شكلى بعد ذلك من صبى يلبس الجلباب الى طالب يلبس الكاكولة والعمامة ، فلم يكن من اليسير على الشيخ أن يميزنى بين مئات الطلاب ، وما كان هذا يعنيه ، ولكنى كنت أعرفه تماما لأن شكله لم يتغير طبعا ، ولما تقدمت بى السن ، وبدأت أقرض الشعر وأجيده ، توثقت صلتى به ، فقد كان رائد الشعراء من الطلاب ، وكنت أعامله باجلال لا كمعلم فقط بل باسم العون الكبير الذى قدمه لى ففتح لى بابا كان مقفلا ، ولم أخبره قط بتاريخه معى ، ولذلك كان يدهش من شدة اجلالى له ومحاولتى تقبيل يده رغم كبرياء الشباب تجاه هذه العادة •

الخير لا يضيع :

ومر الزمن ••• ودخلت دار العلوم وسافرت الى بعثة وعدت دكتورا مدرسا بكلية دار العلوم وأسرعت الى بيته أحييه وأسأل عنه ، وكان يهش لذلك لأنه لا يعلم سبب كل هذا التقدير الذى لا عهد له بمثله من كل تلاميذه ، وفى يوم تلقيت بطاقة منه يحملها طالب يريد الالتحاق بكلية دار العلوم وكان مجموعه أقل قليلا من المجموع الذى حددته الكلية لمن يقبلون بها ، ويقول شيخى فى البطاقة : ان هذا الطالب قريبى وأنا أتوسل بك أن تساعده ما أمكن •

يا لله ... لقد هزتنى هذه البطاقة هزا عنيفا ، وقلت لنفسى : اليوم آن الأوان أن أُوفِّىَ الدين ، وأسرعت لأستاذنا الدكتور ابراهيم سلامة رحمه الله وقصصت عليه القصة بكل دقة وكان يقوم بعمل العميد فضحك وصفق وقال : ان الدَّيْن لابد أن يقضى ، واتخذتْ الكلية قرارا بتخفيض المجموع الذى اشترطته درجة أو درجتين لتفتح الباب لهذا الطالب ولكل من يحمل مجموعه ، وسدَّدتُ بذلك دينا كان قـد مضى عليه أكثر من عشرين عاما .

ودعاء من الأعماق أن يرحم الله أولئك الذين يسروا سبيل العلم لى ، وأن يجعل لهم ثوابا عن كل عمل أقوم به لخدمة الدين والوطن ، فما كنت لولاهم بمستطيع أن أفعل شيئا .

وهمسة الى القارىء أن يعمل الخير حبا فى الخير غير مترقب له أى جزاء ، وليتأكد أن الجزاء لن يضيع ، وصدق الله القائل « ان الله لا يضيع أجـر المحسنين » ورحم الله الشاعر العربى الذى قال :

لا يضـيع العـرف بين الله والنـاس

ولنعد الى أحداث الحياة بمعهد الزقازيق لأقرر أننى اتجهت الى العلوم التى كانت تلقى لى بِنَهَمٍ ، كالظمآن يصادف الرى ، وكالجائع الضارى يحصل على الطعام ، ولقد أخلصت للعلوم كل الاخلاص ، وعنيت بالدروس كل العناية ، فلم يحصل أننى تخلفت مرة واحدة عن درس ، أو انصرفت لحظة واحدة عن معلم ، وكنت الى جانب ذلك حسن الصلة بزملائى وشيوخى . وسرعان ما جنيت ثمار ذلك الجـد وهذا الاقبال ، فقد دخلت امتحان النقل للفرقة الثانية الابتدائية ، وأعلنت النتيجة فكنت الثالث بين مئات الناجحين ، ويعلم الله أننى الى أن تلقيتُ الشهادة بذلك لم أكن أعلم أن هناك ترتيبا بين الناجحين ، وكانت حياتى الساذجة البسيطة

تخيل لى أن المسألة نجاح أو رسوب فقط ، فلما تلقيت الشهادة بهذا الترتيب أحسست بعاملين متناقضين يعتوراننى ، العامل الأول السرور بهذا التقدم ، والعامل الثانى القلق والتساؤل : لمـاذا لم أكن الأول ؟ وبماذا يفضلنى الأول والثانى اللذان سبقانى ؟ وخطر ببالى أن الأول والثانى ربما كانا من الذين رسبوا فى العام الماضى ، فهم — بسبب بقائهم سنتين فى الفرقة الأولى — أقدر على العلوم من الذين أمضوا سنة واحدة ، وتساءلت عن امكان ذلك ، فقيل لى : ان الراسبين لا يطمعون الا فى النجاح ، والغالب أن مواهبهم لا تؤهلهم للسبق • وعدت للتساؤل عن سبب تأخرى عن سواى ، وأزمعت أمرا •

وفى الأعوام التالية بالقسم الابتدائى والثانوى حققت أمنيتى ، وأصبحت الأول دون منازع فى كل امتحان دخلت فيه بما فى ذلك الشهادة الابتدائية والشهادة الثانوية على كل معاهد القطر •

طرفة عن المنافسـات :

ولم تخل منافساتنا البريئة من طُرَف ، تحضرنى طُرفة منها ، فقد كان لنا زميل لا يهتم بالترتيب أو قل لم يكن له نصيب فيه ، وحدث فى احدى الفرق أن قفز الى الخمسة الأوائل فأصبح الرابع وكان هذا فوق آماله ، فلم يتمالك نفسه وراح يلوح بشهادته وأنه الرابع ، ولابد أن يكون الأول فى العـام القـادم •

لقد غفرنا له سروره بتقدمه لأن ذلك كان طفرة كبيرة بالنسبة له ، ولكن أطماعه فى أن يكون الأول فى العام القادم كانت — فى عالمنا — تحمل تهديدا لى ، بابعادى عن مركز أصبح بالنسبة لى حقا تاريخيا ، وأمام هذا التحدى أعلنت موقفى وهو أننى ملتزم بأن أُبْعِد هذا المتوعد عن العشرة الأوائل جميعا ، وثارت بذلك عاصفة من الضحك بين الزملاء فاذا كنت أستطيع أن أحافظ على مكانتى كأول الناجحين فكيف لى بابعاده عن

التسعة التالين للأول ؟ وأجبت بأننى سأتعاون مع مجموعة من الزملاء لأضمن لهم السبق عليه •

وتعاونت فعلا ، ولكن الزميل كفانا مئونة المشقة فانحدر الى حيث كان بعيدا بعيدا عن الصفوف الأولى •

ازهرنا لم يعرف الامتحان فى المقروء :

ولم يكن فى أزهرنا الآفة التى ظهرت فيما بعد وعششت فى الأزهر واستقرت فيه ، وهى ما يسمى « الامتحان فى المقروء » أنها آفة مريرة عرَفت طريقها للأزهر فحرمت الطلاب من الفكر والثقافة ، وأصبحوا يحضرون الدروس فترات قصيرة يضربون بعدها عن الحضور للمذاكرة ، وينادون بأن الامتحان فى المقروء ، والمقروء قليل ، ويضيع العلم من عام الى عام حتى يتخرج الطالب بحصيلة ضئيلة من الفكر والعلم •

وقد كان أزهرنا مثال النظام والدقة ، وكانت الدراسة لا تتوقف الا قبل الامتحان بأسبوع أو أسبوعين حين تعلن الادارة ذلك لاعداد الأمكنة للامتحان ، وكانت المواد موزعة على الفرق ، يسلم بعضها الى بعض بحيث لا يبقى باب بدون دراسة • فقد درسنا الفقه مثلا فى القسم الابتدائى مرتين ، وفى القسم الثانوى مرتين من أول باب الطهارة الى آخر باب الرق والوقف ، درسناه مجملا فى الفرقة الأولى الابتدائية اعتمادا على كتاب أبى شجاع الذى حفظناه وفهمناه مستعينين بشرح ابن قاسم عليه ، ودرسنا الفقه كله بكثير من التفصيل فى الفرق الثلاث التالية : الفرقة الثانية والثالثة والرابعة فاستوعبنا خلال هذه السنوات شرح كفاية الأخيار على ابى شجاع •

وفى القسم الثانوى درسنا الفقه كله بمزيد من التفصيل فى الفرق الثلاثة الأولى ، ثم شرحنا أهم قضاياه فى الفرقتين الرابعة والخامسة •

والذى حدث فى الفقـه حدث فى النحـو والصرف والتفسير والحـديث ، شمول" لأبواب المـادة كلها ، والتطور بدراستها من مرحـلة الى مرحـلة •

وعرفنا قسطا كبيرا من العلوم المدنية : الحساب والجبر والكيمياء والطبيعة والجغرافيا وغيرها •

ويمكن القول اننا خرجنا من معهد الزقازيق بثروة وفيرة فى كل العلوم الاسلامية واللغوية ، ثروة لم نحتج بعدها لمزيد ، وكل ما احتجنا له بعـد ذلك هو حسن استعمالها والانتفاع بها وبعث الروح فيها ، وهو ما حاولته بعد ذلك فى دار العلوم وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج وحتى الآن •

أحـداث بالمعهـد :

وفى معهد الزقازيق حدثت لى أحداث يتحتم تدوينها ، وكان الحدث الأول قبيل امتحان الفرقة الرابعة الابتدائية أى قبيل امتحان الشـهادة الابتدائية ، وكان لهذه الشهادة آنذاك مكانة ملحوظة ، فهى أول لقـاء بين طلاب المعاهد الأزهرية فى كل مكان ، وبهذا تبرز المنافسة بين المعاهد ، ويحاول كل معهد أن يدفع من طلابه مجموعة لتكون بين الأوائل فى الترتيب العـام •

وتطلعت للسبق وأعددت نفسى له ، ولكن قبل الامتحان ببضـعة أسابيع حدث حادث عكر الصفو ، وكاد يغير مجرى الحياة : فلنسر مع هذا الحـادث خطوة خطوة •

كان من وسائل اهتمامى بالاستعداد للشهادة الابتدائية أن التحقت بالقسم الداخلى بالمعهد ، وكان للقسم الداخلى مشرف من العلمـاء ، وكان هذا المشرف سمحا وصديقا للطلاب . وفى أمسية من الأمسيات كنت أجلس

مع بعض الرفاق نأكل بعض خيرات الريف البسيطة من البلح والفــول السـودانى ••• فدخل علينا الشيخ المشرف وتبسط معنا كعادته ، ودعوناه ليشاركنا ، فاستجاب بكرم نفس وتناول بلحة أو بلحتين ، ودخلنا معه فى حديث حول خيرات الريف المصرى ، وقلنا له ان من الشرف لنا أن يقبل بعض هدايا من هذا النوع لأسرته موضحين أن ثمنها المادى لا قيمة له ، وأن قبولها سيجعلنا نحس بإلف وود بيننا وبينه ، وأصر الرجل على أن نصرف النظر عن هذا الموضوع ، ولكننا تمسكنا به ، ولعلى فى الأسبوع التالى — وكنت أسافر للبلدة كل أسبوع — أحضرت له هذه الهدية المتواضعة ، وفعل زميل آخر مثل ذلك ، وكانت القيمة المادية لكل هدية لا تتجاوز قروشا تعد على الأصابع ، ولم يكن لنا عند الرجل حاجة على الاطلاق ، فالهدية هدية بكل معنى الكلمة وبسيطة بكل معنى الكلمة كذلك •

وبعد فترة برز خلاف بين شيخ المعهد « الشيخ أحمد مكّى » وبين هذا المشرف ، وحاول شيخ المعهد غفر الله له أن يجمع هنات للمشرف ليوقع به ، وذكر له أحد الفراشين قصة البلح والفول السودانى ، فاستدعانى شيخ المعهد وسألنى عن ذلك فأنكرت ، وأنكر زميلى الآخر كذلك ولكنى ، تحملت أكثر الضغوط ، وقابلته بانكار رزين ، فقد قدّرت أن من الظلم أن أتسبب فى عقوبة انسان برىء ، وأن تكون هذه البلحات سببا فى تهديد مستقبل شيخ فاضل وتهديد مستقبل أسرته ، ولم يكن لنا مستقبل نحرص عليه •

وهددنى شيخ المعهد بالفصل من المعهد اذا لم أعترف ، فقلت « وليكن » وطردنى من المعهد ، فحملت متاعى على كتفى وعدت للقرية ، وشجعنى أهلى جزاهم الله خيرا وفضّلوا الفصل من المعهد على كلمة الشر ، وخيل الى اننى عدت من جديد لأباشر التجارة بالريف كما كان أبى يفعــل أو لأباشر الزراعــة •

ومر أسبوع وأسبوعان •••• ثم ذهبت متسللا الى المعهد لأتأكد من أن قرار الفصل قد صدر ، أو لألتمس عفوا ، وهناك عرفت أن هناك مراقبة عامة من خارج المعهد تشرف على امتحــان الشــهادة الابتدائية

(كونترول) وأن رئيس لجنة المراقبة اسمه الشيخ « •••• جاب الله » فاندفعت له وسألته : هل أنا ممنوع من دخول الشهادة الابتدائية ؟ فأجاب دون تفكير : ليس بين طلاب الشهادة الابتدائية مَنْ هو ممنوع من الامتحان • وسألنى عن اسمى ، وطلب الكشوف ، وطمأنى بأن اسمى مدرج بالكشوف وليس هناك شيء ضدى • ولما عرف سبب سؤالى وعرف تفوقى ، هدأ من روعى وطمأننى وأكد لى أنه المسئول الوحيد عن الامتحان وليس لسواه سلطة على الاطلاق فى هذا الامتحان وعاد يسألنى عما اذا كنت مستعدا للامتحان كما ينبغى ، فذكرت له ان ستعدادى هو استعداد من يطمع فى أن يكون أول الشهادة فى القطر • فابتسم ودعا لى •

ودخلت الامتحان التحريرى ولم يكن بالنسبة لى الا اغنية جميلة رحت فيها أُنمّق الاجابة وأجمّلها حتى استحققت النهايات الكبرى ربما فى كل المواد ، وفى أحد الامتحانات جاءنى شيخ المعهد مكفهرا ، وطلب منى أن أقف ليفتشنى فقد تكون معى بعض المذكرات ، وسخرت منه لأنى أستطيع أن أكتب من الذاكرة أروع مما يوجد فى المذكرات ، وبعد لحظات رأيت الشيخ جاب الله يهرول نحوى ودفع شيخ المعهد أمامه وهو يقول : اتركه يا سيدنا الشيخ ، اتركه يا سيدنا الشيخ •

وجاء الامتحان الشفوى ، وكان يُحْسَب له كل حساب ، فحضر الشيخ جاب الله بنفسه ، وعرضتُ على اللجنة جهدى ، ففى النحو مثلا كانت ألفية ابن مالك هى المقررة ، وكنت أحفظها عن ظهر قلب ، وأعرف شرحها تماما ، بل ذهبت الى مدى أبعد ، فان ابن عقيل فى شرحه على الألفية كان أحيانا يختلف مع ابن مالك ، ويذكر شروطا فاتت الألفية ، وكنت — وقد بدأت أنظم الشعر — أكمل ألفية ابن مالك باضافة بعض أبيات أنْظِمها على نسق الألفية تحتوى الشروط التى فاتت ابن مالك ، وفى المحفوظات — كما كنا نسميها — قرأت لهم من شعرى بالاضافة الى شعر الشعراء ، وكانت جلسة جميلة رائعة استحققت فيها تقدير الأساتذة واعجابهم ومنحونى

أرقى الدرجات ، وكنت أول الناجحين فى الشهادة الابتدائية وبينى وبين الثانى أكثر من أربعين درجة .

أغلب الظن ان الذين أساءوا والذين أحسنوا فارقوا هذه الحياة الى رحمة الله ، ولكن الذكريات لا تموت .

فى القســـم الثـــانوى :

ودخلنا القسم الثانوى بالمعهد ، واعترانا شىء غير قليل من الزهو والغرور ، وكنا ننظر لطلاب القسم الابتدائى على انهم صــغار ونحن عمالقة ، وكان هؤلاء ينظرون لنـــا باعجاب وتقدير ، يحتذون حذونا ويروننا قادة وزعماء . وهناك طرفة توضح مكانة القسم الثانوى بالنســبة للابتدائى آنذاك . هى أنه كان بالقسم الثانوى فراش سودانى اسمه نور وكانت له بطاقة كتب عليها :

محمـــد نـــور

فراش ثانوى بمعهـــد الزقازيق

وفى القسم الثانوى بدأنا نتطلع للحياة ، وثابرنا على قراءة مجلة الرسالة والاسلام وتربى عندى ذوق أدبى كان قد بدأ ظهوره فى أواخر القسم الابتدائى ، وتعرفت على دواوين الشعراء ، ورحت أقرؤها والتهم ما بها من صور وفن وبخاصة شعر المتنبى وأحمد شوقى ، ولم يمض وقت طويل حتى كنت أحفظ أكثر الشوقيات وأكثر مسرحيات شوقى ، ورحت أقرأ للعقاد والمازنى وطه حسين وأحمد أمين . ونما ما عندى من ذوق أدبى من عام الى عام . واصبحت بين خطباء المعهد وشعرائه ، وكانت الحركة الوطنية تنمو واستطاع الشباب المتعلم أن يلزم الزعماء بأن يتحدوا لتتم المفاوضة مع المستعمر الانجليزى تمهيدا للمعاهدة التى جاءت على أثر ذلك وهى معاهدة سنة ١٩٣٦ . والمهم أن هذا الاتجاه دفع بى الى جو الخطابة والى المجتمعات والسياسة . وقد تعلمت كثيرا من هذا الاتجاه . وكان من أهم ما تدربت عليه وقفات الخطابة بين الجماهير . والشعر الحماسى

الذى طالمـا أطلق الأكف بالتصفيق ، والشعر العاطفى الذى عبَّر عن أحاسيس الشباب وخفقات القلوب .

وسنعود للحديث عن الشعر بعد قليل ، ولكن الذى يلزم أن أذكره هنا أن هذا الاتجاه الأدبى الجماهيرى لم يقلل اهتمامى بالتفوق العلمى فحافظت تماما على أن أكون الأول بين الطلاب طيلة القسم الثانوى .

وفى نهاية القسم الثانوى حدث لى حادث أثَّر فى مستقبلى ، فقد كنت ابتداء من الفرقة الرابعة الثانوية أعَدُّ من أهم زعماء طلاب المعهـد أو طلاب الزقازيق جميعا ان لم أكن قد أصبحت أهمهم ، وكنت أتزعم الحركات الوطنية للطلاب بهذه المنطقة ، وكنت بمعهد الزقازيق على صلة بباقى المعاهد الأزهرية ، وباللجنة العامة بالقاهرة ، وفى تلك الأثناء كانت هناك حركات سياسية قبيل الحرب العالمية الثانية وحركات تتصل بمستقبل الأزهر ، وكانت اللجنة العامة بالقاهرة ترسل لى خطابات عن الخطط التى تتبع ، أو تسأل رأيى عن اتجاه الطلاب نحو نقطة ما ، وقد سمح شيخ المعهد الشيخ سليمان نوار لنفسه ، سامحه الله ، أن يفتح هذه الخطابات ويعرف ما بها ، فلما أعلنا مرة الاضراب متعاونين مع باقى الطلاب لخير مصر وخير الأزهر ثار الشيخ وأصر على الانتقام ، وكان يعتقد أن الانتظام فى الدروس هو فوق الوطنية وفوق الاصلاح ، وأنه قد ينيله حظوة عند بعض ولاة الأمـور ، حظوة تقـدير لحزمـه على الأقل ، فأنزل بزعمـاء الطلاب عقوبات قاسية ، شملت الفصل من المعهد ، والحرمان من دخول الامتحان عاما أو الحرمان من دخول الدور الأول ، أو قطع بدل الجراية عن الطلاب بضعة شهور ، وقد شفع لى تقدمى ورضاء جميع الشيوخ عنى ، فكانت عقوبتى الحرمان من دخول الدور الأول ، وأمضيت صيفا مريرا أستذكر فيه وأعد نفسى للامتحان ، فى حين كان كثير من رفاقى قد نجح فى الدور الأول .

وقد قوت هذه العقوبة عزمى على مغادرة الأزهر ، فالتحقت بكلية

دار العلوم بعد نجاحى الفائق فى ثانوية الأزهر وحصولى على أكبر مجموع للدرجات فى هذا الامتحان .

الزقازيق : النـــاس والمدينـــة :

قبل أن أغادر الزقازيق الى كلية دار العلوم بالقاهرة لأبدأ مرحلة التعليم العالى ينبغى أن نقف وقفة مع الزقازيق ، فقد عشت فى هذه المدينة تسع سنوات من أهم سنى العمر ، دخلتها صبيا قليل التجربة قليل المعارف ، وعشت بها حتى عهد الشباب ونلت فيها قسطا من العلم عرفت فيما بعد أنه مادة طيبة جدا لمـــا زاولته من دراسة وبحث .

وبالاضافة الى المادة العلمية التى حصلت عليها فى الزقازيق أجدنى تعلمت كثيرا من مجتمع هذه المدينة ، فالناس بالزقازيق أميل الى الخير ، فيهم شهامة وكرم ، وفيهم بساطة لا تعرف الانحراف أو التعقيد ، فهم بذلك جديرون بلقب « الشراقوة » الذى يقـــوله بعض النـــاس عنهم ويغمزونهم به باعتبار هذا اللقب يعنى شيئا من « العبط » والشراقوة يرحبون بهذا اللقب ويؤثرونه مع ما فيه من الغمزات على اتجاهات المكر والغمـــوض .

وانى لأذكر صباى فى الزقازيق ، وأذكر صور العون التى نعمت بهـــا من كل مَنْ تعرفت عليهم من سكان هذه المدينة ، فأصحاب المنازل التى كنا ننزل بها كانوا كرماء ولم يكونوا قط مستغلين ، وأصحاب المتاجـــر التى كنا نتردد عليها كانوا يمتازون بالقناعة والسماحة ، وكذلك كان العمال الذين كنا نحتاج الى عملهم فى كل شىء مثل حياكة الملابس أو كيها ، أما غسيل الملابس فقد كنا نقوم به بأنفسنا ، وكان أساتذتنا وزملاؤنا وأكثرهم من الشراقوة نماذج طيبة فى الصحبة مما جعلنى اخرج برصيد طيب من الأصدقاء خلال هذه الفـــترة .

من أجل هذا تجدنى أحتفظ بأجمل الذكريات لهذا العهد الطيب بمدينة

الزقازيق ، وأحاول أن أرد الجميل لأبناء الذين أكرمونا وساعدونا ، ولست أملك أن أفعل لهم شيئا الا القليل الذى يرمز الى الاعتراف بالجميل ، فاذا دعيت الى أن ألقى محاضرة بالزقازيق استجبت بسرعة مهما كانت الشواغل كثيرة ، وقد حدث مرة أن إلتقيت فى حفل أقيم بمناسبة مولد الرسول بالمركز العام للشبان المسلمين بزميل كريم (أستاذ بجامعة القاهرة) ، وطلب منى هذا الزميل أن ألقى محاضرة فى كليته ، فرجوته تأجيل الموعد اذ كان وقتى مزدحما بالعمل فى ذلك الحين • وفى نفس اللحظة اندفع نحونا الدكتور محمد مصطفى ميتكيس رئيس جمعية الشبان المسلمين بالزقازيق وقال لى ان الجمعية تدعونى لالقاء محاضرة هذا الأسبوع بالزقازيق فقبلت على الفور • قال زميلى : ما تعليل هذا التصرف ؟ تؤجل المحاضرة التى طلبتها منك وتستجيب دون تردد لدعوة أخرى دون تأجيل فأجبت : انها الزقازيق وهى فرصة أغتنمها لأسدد بعض الدين للذين أكرمونا فى أولى مراحل الحياة • ووافق زميلى الفاضل اذ رأى أن فى الاستجابة لونا من العرفان بالجميل •

وهناك محاضرات تنظمها وزارة الشئون الاجتماعية وتصرف مكافآت لمن يلقونها ، ومن الطبيعى أننى لم أقبل قط أية مكافأة عن محاضراتى بالزقازيق وكنت أطلب دائما أن توجه هذه المكافأة الى مكاتب تحفيظ القرآن الكريم أو أمكنة البر بالمدينة ، ثم أصبح هذا دستور حياتى كلما دعيت لالقاء محاضرات بأمكنة أخرى •

ومحاضراتى بالزقازيق كثيرة وجمهورى بها كبير ، ولكن للأسف هناك مكان تمنيت أن أقف محاضرا به ، ولكننى لم أنل أمنيتى ، وقد ذهبت الى مدى لم أذهب اليه قط لأحقق هذه الأمنية ، فقد عرضت استعدادى ، ولكنى لم أجد من يدعونى أو من يقبل أن أدعو نفسى لألقى هذه المحاضرة ، ما هو هذا المكان ؟ • انه معهد الزقازيق الدينى •••

اننى أتذكر صباى بالمعهد ، وأتذكر أحلام الصبا ، وانفعال الطلاب بأى زائر أكبر منهم سنا أو أوسع تجربة ، واعتقادى أن وقوفى بينهم

محاضرا سيكون دفعة قوية لهم ، وسيبعث طاقات من الأدل فى نفوسهم ، وسيحبب لهم الجد ، ولكنى لم أستطع أن أنال هذا الأمل لأخطو نحو هذا البنـــاء العمـــلاق منحنى الرأس اجلالا واكبارا لمـــا نلت فيه من علم ومعـــرفة •

وبعد هذه العجالة بالنسبة للناس تعال بنا الى المدينة نفسها لنتحدث عنها قليلا ، لقد فارقت الزقازيق سنة ١٩٣٩ الى القاهرة أى منذ مدة طويلة ، ولازلت أذهب للزقازيق من حين لآخر ، أجتازها فى الطريق الى قريتى ، وازور بها بعض الأهل والأصدقاء وألقى بها بعض المحاضرات •••• ولكن الشىء الذى يدهشنى بل قد يزعجنى أن المدينة تتخلف يوما بعد يوم فى نظافتها وتجميلها ومظهرها • لقد رأيت ميدان المنتزه وهو روضة جميلة ولكنه الآن مباءة أو أقرب الى المباءة ، ورأيت شارع « البوسطة » شارعا واسعا نظيفا وهو الآن مدمر كريه ، ورأيت ما كنا نسميه « وابور النور » منطقة انطلاق جميلة كنا نهرع اليها للاستذكار والمتعة وقرض الشعر فأصبحت لاشىء ، ورأيت مداخل الزقازيق من ناحية (أبو حماد) وهيا والمدرسة الصناعية ، وكانت مداخل معقولة ولكنها أصبحت الآن أسوأ اعلان عن المدينة ، وكلما دخلت الزقازيق من مدخلنا الذى يقود اليهـــا وهو مدخل (أبو حماد) والتل الكبير أحسست أنى أجتاز منطقة خطرة استعيذ بالله ألف مرة كلما طرقتها ، ورأيت الحسينية وكفر النحال والحريرى وغيرها من الأحياء حيث كنا نعيش أنظف ألف مرة من حالها الآن • واكتفى هواة الخداع بمدخل جديد للمدينة من جهة منيا القمح ، وبعض ابنية شيدوها لاقامتهم ومتعتهم على رأس هذا المدخل ووجهوا الزائرين الى هذه المنطقة ليخدعوهم عن الحقيقة • وعن المدينة الحقيقية التى تعيش فى الظـــلام والآلام •

ولم يحدث مرة أن فكر المحافظون فى التعرف على أبناء الاقليم الذين يعملون بعيدا عنه والانتفاع بأفكارهم أو حتى بجهودهم فكأننا وقد قضى

الله علينا أن نعمـل بالقـاهرة مبعدون عن الزقازيق وليس لنـا حق فى التفكير فيها .

ان الحكومة لا تستطيع أن تعمل كل شىء ، وينبغى أن يتعاون أهل كل قرية وكل مدينة للرقى بقراهم ومدنهم ، وليت هذا النداء يصل الى الآذان والقلوب •

أن فى الزقازيق قصورا ضخمة وفيلات فخمة ، ولكن الطريق اليها قاتم مملوء بالقاذورات ، ولو خصص كل غنى جزءا ضئيلا من نفقات قصره ليسهم به فى تحسين الطريق الى هذا القصر لاستفاد الغنى واستفاد الفقير ، ولكن هذا لا يتم الا بتنسيق تشترك فيه كل الأطراف ، ونأمل أن يبرز هذا التنسيق للوجود ، انها دعوة نطلقها بالنسبة للقرية وبالنسبة للمدينة ونرجو ألا تكون صيحة فى واد •

تطـوير الأزهـر :

كل شىء فى الحياة يحتاج الى تجديد وتطوير ، ويبلى أى شىء بسرعة اذا لم تتجه له العناية بالتجديد والتطوير ، ولعل هذه القاعدة تصدق على كل شىء ، على الملابس والفراش ، وعلى المنزل والأثاث ، وعلى الأرض التى تزرع ، والنهر الذى يجدد حفره وتحرس جسوره •••• ولكن صدق هذه القاعدة على العلم أبرز وأوضح ، فالكشف العلمى فى الطب والهندسة والجغرافيا يتجدد من يوم الى يوم ، والطبيب الذى لا يتابع الدراسات الحديثة يتخلف وينهار بسرعة عجيبة ، والعلوم النظرية ومنها العلوم التى يمثلها الأزهر كالدراسات الدينية والعربية متطورة بطبيعتها من يوم الى يوم كذلك ، وقد رأيت فى جامعة كمبردج كلية اللاهوت وهى فى تطورها تسرع الخطا أو تقفز فلا تلاحقها فى حركة التجديد أية كلية أخرى •

وتجديد الدراسات الأزهرية يمكن أن يكون من عدة نواح بأن تضاف علوم جديدة للمنهاج كمقارنة الأديان والحضارة الاسلامية فى مفهومها

الجديد وكالفقه المقارن الذى يعرّفنا مكانة التشريع الاسلامى بالنسبة للتشريعات الأخرى ، وكملاحظة الصورة الشعرية فى الأدب ، ودراسة قضية الالتزام فى الأدب والتاريخ ••• ويمكن ان يكون التجديد من ناحية اضافة فلسفة الفكر فلا يدرس الفقه الاسلامى وحده وانما تدرس أهدافه ، ويمكن أن يكون التطوير بحذف بعض الفروع التى لم يعد الفكر الحديث يتطلبها كالفروض المبالغ فيها التى أوردتها كتب الفقه فى باب الطلاق أو الطهارة أو حذف ما ازدحمت به كتب التفسير من اسرائيليات ، ويمكن أن يكون من ناحية الأسلوب بأن تعاد كتابة هذه الدراسات بأسلوب العصر وصفائه •

ولست هنا على كل حال أحاول أن أرسم للتجديد فى الدراسات الأزهرية ، ولكنى أذكر امكان ذلك وضرورته ، فقد تعلمت الفقه الاسلامى بالأزهر فلم أحس أنه يدافع عن الاسلام أو يبرز جماله كما قلت من قبل ، وتلقيت محاضرات عن الفقه الاسلامى بأوربا فرأيتها بطبيعتها تدافع عن الاسلام لا عن قصد ، ولكن لأن طبيعة الدراسة اقتضت ذلك ، والأمثلة عن ذلك قد أشرت اليها من قبل ، وحسبك أن تقرأ باب الرق فى كتب الفقه وتقرؤه فى كتابى « الاسلام » الذى تأثر منهاجه بالدراسات الغربية •

ما أهم دعائم التطوير ؟ :

فى تقديرى أن أهم دعائم التطوير هى التطعيم الخارجى ، فالجزر النائية التى لا يطرقها الناس والتى يعيش بها أهلها دون اختلاط بغيرهم يصبح أهلها أقزاما ضعاف العقول والأجسام بمرور الزمن ، وهذا نفسه ينطبق على أية مؤسسة أو مصنع أو معهد لا يمسه التطعيم ولا تدخله دماء جديدة أو فكر جديد من حين لآخر •

والدماء الفكرية الجديدة معناها الاتصال بالتفكير العالمى والتأثير فيه والتأثير به ، فطبيعة الاجتماع بالآخرين تولّد جديدا ، وقد يتحدد مصدر هذا الجديد ، بأن يكون من ابتكار فرد معين ، وقد لا يتحدد بأن يكون من

ابتكار المجموعة ، بأن أسهم كل فرد باشارة أو خطوة بقصد أو بدون قصد ، فينتج عن ذلك جديد مفيد ، **والأزهر الشريف قد أخذ بهذا الاتجاه فأرسل مبعوثيه للتعرف على ثقافة الغرب والاستفادة من مناهجها ، ولكن للأسف هناك حقيقة مهمة ومخجلة هى أن السادة الذين زاملونا فى الخارج وحققوا أشواطا من النجاح لم يعودوا لكليات الأزهر كى ينقلوا ما عرفوا وكى ينمّوا معارفهم ، بل التقطتهم المكاتب والأعمال الادارية ولم تأخذ المدرجات منهم نصيبا يذكر ، ولست أذكر هنا أسماء هؤلاء فهم من الشهرة بحيث لا نحتاج الى ذكرهم . ومن الزملاء من اشتغل بالتدريس ولكن للأسف غلبه القديم فراح يدور فى دائرته لأنه لم يقو على الصراع بين القديم والحـــديث .**

ولجأ الأزهر أحيانا للدماء الجديدة من خارجه ، بأن انتدب لكليات اللغة العربية والشريعة وأصول الدين أساتذة من الكليات المناظرة بالجامعات المصرية ، لكن عمر هذا الانتداب كان دائما قصيرا ، وكان الأزهر ينْهى الانتداب أو كان الأساتذة يتوقفون عن الاستمرار فى العمل ويعتذرون عن عدم السير فيه ، لأن الصراع كان يدور خفية أو علنا بين القديم والحديث ، ولا يستطيع الأساتذة المنتدبون أن يتخلوا عن فكرهم ، فتكون النتيجة هى الانفصال ، وقد كان لى دور فى هذا المجال يتحتم أن أرويه بدقة ، ففى سنتى ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ انتدبت لتدريس مقارنة الأديان فى كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وسررت بهذا الانتداب سرورا بالغا اذ كان فرصة لى لأرد للأزهر بعض أياديه ولأنقل للجيل الجديد خبرات الجيـــل الذى سبقه ، واستقبلت عملى بغبطة واقبال بالِغَى المدى ، ونجح عملى بالكلية نجاحا يفوق كل وصف ، جعل الطلاب يقبلون على محاضراتى بشغف كبير ، وقد كان التزاحم على هذه المحاضرات شديدا حتى كان من العسير أن أخترق صفوف الطلاب لأصل الى منصة المحاضرة ، وطالمـا استعنت بفضـيلة الأستاذ الشيخ زهير مراقب الكلية آنذاك ليساعدنى فى شق الطريق بين مدخل المدرج والمنصة .

ومع هذه الصورة الباسمة للعمل كانت صلتى بالأساتذة الأزهريين طيبة للغاية ، فبعضهم كان أستاذا لى ، وكنت أجلّهم جميعا ، وكانت نتائج الامتحان رائعة تثبت اقبال الطلاب على المادة وحبهم لها واستفادتهم منهـــــا •

وعلى هذا كان الاستغناء عنى عسيرا ، وقَطعُ انتدابى شيئا غير طبيعى ، ولكن الصراع الخفى ضد التجديد سرعان ما نجح ، فألْغِيَتْ المـــادة كلها لغير ما سبب ، ولم يرتفع صوت واحد ليدافع عن « مقـــارنة الأديـــان » •

لقد حزنت على ذلك كثيرا ، وأرجو ألا يتهمنى أحد بأن حرصى على هذه المحاضرات كان لأسباب مادية ، فقد كنت آنذاك مدرسا ، وكان صافى مكافأة المحاضرة لا يتجاوز السبعين قرشا ، وأنا أسكن بالمعادى وأركب سيارتى للأزهر من أجل محاضرة واحدة ولا تكفى السبعون قرشا لتكاليف هـــذه الرحـــلة •

الكتب الدراسية بالأزهـــر :

ثم ان الأزهر لاتزال تعيش فيه الفية ابن مالك والأشمونى والصبان والسعد فلما فكر البعض فى التأليف الحديث تمثلوا بابن مالك والسعد فى النهج ، وبمناسبة الحديث عن هذا التراث أحب أن أثبت أننى شخصيا أجـــله وقد انتفعت به كثيرا ، وأرى أن يتعرف الطلاب الأزهريون على هذه الكتب كدراسة للتراث ولكن ينبغى أن يأخذوا الفكر عن طريقه الميسّر فان أغلب ما اتجهت له عناية هؤلاء الشراح هو حل ألفاظ الكتاب المقرر ، والويل للمدرس والطلاب اذا كان المؤلف — وكثيرا ما كان المؤلفون — ركيك العبارة ، ضعيف الأسلوب مضطرب التركيب ، وكثيرا ما كانت الفكرة واضحة لنا جلية ، ولكن العناية بالفكرة لم تصل الى درجة العناية بطريقة أخذ الفكرة من هذه الألفاظ ، لقد كانت الألفاظ أشبه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هى العـــلم كله •

والعجيب ، ولكن ذلك ليس عجيبا على من دخل الأزهر وعالج كتبه ، انك تقرأ المتن فتفهم أكثره أو كله ، فاذا ذهبت تقرأ الشرح عجزت عن فهم أكثره أو كله فاذا ذهبت الى الحاشـية والتقـرير قابلت ألغـازا ومعمّيـات •

ان الأمل كبير أن يتجه أبناء الأزهر الى معهدهم العظيم لتطويره واشاعة الروح فى علومه ، وحراسة الامتحانات فيه ، مع العلم ان الشائعات تتردد حول هذه الامتحانات ، ولكنى آثرت ألا أطرق هذا الباب الشائك وأن أتركه لأبناء الأزهر البررة ليعالجوه • ان الأزهر منار يحرس الاسلام ويرد المعتدين على كلمة الحـق ، ومن الواجب تزويد طلابه بالسلاح الذى يساعدهم على حمل هذه المسئولية وبخاصة فى فترة أصبح فيها الالحاد سمة العصر فى كثير من المناطق •

تطـوير الأزهر بالقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ :

فى سنة ١٩٦١ صدر قانون بتطوير الأزهر وجعله جامعة تشمل كل فروع الثقافات ، ومن ثم أنشئت به كليات للطب والهندسة والتجارة •••• بالاضافة الى كلياته الثلاثة الأصلية وهى كليات اللغة العربية وأصول الدين والشريعة ، ويشمل القانون كذلك اعادة تنظيم منهاج المعاهد الأزهرية ، ويجدر بنا أن نعيش مع هذا التطوير مدة كافية لنثبت رأينا فيه ، ونسارع فنقرر أن الكثيرين جدا يرون أن هذا القانون أضرّ بالدراسات الأزهرية أبلغ ضرر ، وأن الحكمة وخوف الله يقضيان بالاسراع فى اعادة النظر فيه ، ولنسر مع هذا القانون خطوة خطوة •

أصبح القسم الابتدائى يسمى القسم الاعدادى وبقى القسـم الثانوى يحمل اسمه وهذه التسمية وَضَعت معاهد الأزهر أمام المقارنة بمدارس الدولة ، وسنعود بعد لحظة لنرى أثر هذه المقارنة •

وقضى التطوير أن يشمل القسم الاعدادى منهاجين كاملين تقريبا

أحدهما منهاج الأزهر العادى والآخر منهاج المدارس الاعدادية الحكومية ، أما القسم الثانوى فبه شعبتان احداهما أدبية والثانية علمية ، والشعبة الأدبية بها علوم الأزهر وعلوم القسم الأدبى بالمدارس الثانوية الحكومية ، والشعبة العلمية بها المنهاج الأزهرى ومنهاج القسم العلمى بالمدارس الثانوية •

وقد نتج عن هذا الوضع أن برزت الحقائق التالية :

أولا — أصبح العبء ثقيلا جدا على الطلاب ، ولم يكن من الممكن أن يجيدوا الدراسات الأزهرية وأن يجيدوا معها منهاج المدارس الحكومية ، فهذا وحده ، وذاك وحده ، عبء ينوء به كثير من الطلاب ، فما بالك بحمل المسئوليتين ، وكانت النتيجة الواقعية أن الطلاب لم يجيدوا هذا ولا ذاك • وراحوا ضحية هذا المنهاج السقيم •

ثانيا — وضع الأزهر نفسه فى وضع المنافس بالنسبة لوزارة التربية والتعليم ، فهو يدرس منهاجها ويلتزم بالتزاماتها العلمية ، مع أن الأزهر ليست عنده الامكانيات لذلك • فليس عنده المدرسون اللازمون ولا المعامل ولا التفتيش الكافى •

وطلاب الأزهر يؤدون نفس الامتحان الذى يؤديه طلاب المدارس فى الشهادات العامة ، فأسئلة وزارة التربية والتعليم كانت هى التى يستعملها الأزهر ، ولكن العجيب أن وزارة التربية لم تعترف بالشهادات التى يمنحها الأزهر بناء على هذه الامتحانات ولم تعترف الجامعات المصرية بها ولم تقبل الحاصلين عليها وهذا يعود فيما يقال الى فقدان الثقة فى دقة سير الامتحانات ، وقد استقل الأزهر أخيرا بامتحاناته ليراعى ضعف الطـلاب فيه •

ثالثا — كان أزهرنا قسمين ابتدائى مدته أربع سنوات وثانوى مدته خمس سنوات ، فلما ظهر التغيير فى التسمية وظهرت المقارنة والمنافسة

بين الأزهر ومدارس وزارة التربية ظهرت صيحات تنادى بتقليل سنى الدراسة لتتفق مع سنى الدراسة المناظرة بمدارس الوزارة ، ونتيجة لهذه الصيحات أصبح القسم الاعدادى ثلاث سنوات والقسم الثانوى أربع سنوات ، ومن يدرى لعله ينقص مرة أخرى •

رابعا — كان الأزهر معهدا عملاقا للدراسات الاسلامية والعربية ، وأخذ فى الداخل والخارج مكانته من هذا الاتجاه ، وما كان أحراه أن يتابع السير فى هذه الرسالة وأن يقضى على الصعوبات التى تواجهه وهو ينهض بها بدل أن يبدأ رسالة جديدة فى القسم الاعدادى والثانوى ينافس بها وزارات التربية مع ما لها من امكانيات تفوق امكانياته فى هذا المجال بمراحل عديدة كما سبق القول •

وخروجا من هذه المآزق ، وعودا الى الحق والصالح العام نقترح أن يعود للقسم الابتدائى والثانوى بالأزهر طابعهما الدينى ، وان تكون الدراسة بهما دراسة أزهرية ، بها — كالعهد بأزهرنا — علوم الاسلام وعلوم اللغة العربية وبعض المواد الثقافية واللغات ، ويلتحق الحاصلون على الثانوية الأزهرية بالكليات الأزهرية النظرية ، ويكونون نواة لباحثين فى العقيدة والشريعة والأخلاق ، وباحثين فى اللغة العربية وآدابها . ومعلمين لهذه الدراسات وحماة لهـا •

ولنعد لهذا القانون اللعين الذى أصدره عبد الناصر فى ليلة واحدة ليقضى به على الأزهر ، فنذكر أن الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الذى عاصر اصدار هذا القانون ذكر فى « ندوة العلماء » بالتليفزيون أن القانون كان يتجه لاغلاق كليات الأزهر الثلاث والاستعاضة عنها بكائن هزيل ميت هو كلية الدراسات الاسلامية التى عادت بالدراسة فى الأزهر الى عهد الأروقة والحصير ، ولكن الله سلم فلم يستطع عبد الناصر أن يكمل هذا الدور •

ولنعد لقانون التطور من ناحية أخرى ، فقد قضى هذا القانون أن

تنشأ كليات عملية بجامعة الأزهر وفى تقديرى أنه ليس هناك اعتراض على الاكثار من التعليم الجامعى استجابة لمطالب الناس . وليس هناك اعتراض أن نعيد للأزهر رعايته لمختلف العلوم ، فقد كان عبد اللطيف البغدادى يجلس بأروقته يعلّم الطب . ولكن هناك اعتراضات أخرى ذات بال تتصل بالكليات العملية بالأزهر . ونحن نجملها فيما يلى :

أولا — نرجو ان يستكمل الأزهر عدته لهذا اللون من الدراسات ، فليس من الممكن أن تحقق كلية للطب أى نجاح بدون المستشفى والمشرحة ، ولا كلية للعلوم أى تقدم بدون معامل ، ولا كلية للهندسة أى وجود بدون ورش ولن تستطيع كلية للزراعة أن تثبت نفسها بدون مزارع وتجارب ، وهكذا ... ونحن نسمع كثيرا ونقرأ كثيرا عن نقص فى هيئات التدريس بهذه الكليات الأزهرية وعن نقص فى الامكانيات ، وهذا سيجعل خريج الكليات العملية بالأزهر أقل من زميله المتخرج فى الجامعات الأخرى ، وهو شىء لا يقبله الغيورون على الأزهر .

ثانيا — ماذا يدرس من العلوم الاسلامية لطلاب الكليات العملية ؟ .

فى الاجابة عن هذا نصرخ بأن منهاج الدراسة لطلاب هذه الكليات يحتاج الى تعديل سريع . فالدراسات الاسلامية ليست ألغازا ، ولا يقصد بالطبيب الأزهرى أن ينافس الأئمة والوعاظ أو مدرسى المعاهد الدينية . ولو قصدنا به ذلك لكان هذا خلطا بين التخصصات ، انما يقصد بالطبيب الأزهرى أو المهندس الأزهرى ، أن يكون طبيبا يجيد فنه ويُخْلِص له ويطوره ، ويكون له مع هذا روح اسلامى يجعله أكثر حساسية وشفافية وسماحة ، وتربية الروح الاسلامى لا تحتاج الى المنهاج الدراسى الذى يراه الطلاب عبئا ولا يستفيدون به مدى حياتهم .

واننا نتساءل :

هل استطاع المنهاج الحالى جذب الطلاب الى الفكر الاسلامى أو فشل فى ذلك ؟ .

هل ربى المنهاج الحالى روح الاسلام فى نفوس الطلاب ؟ •
هل قدم المنهاج الحالى قدرات اسلامية حقيقية للطلاب ؟ •
هل ستعيش هذه الأفكار فى نفوس الطلاب وهم أطباء ومهندسون ••• أو أنها أفكار من أجل الامتحان فحسب ؟ •

ليتنا نقدم هذه الأسئلة للطلاب أو الخريجين لنعرف رأيهم ؟ وعلى كل حال فان صلتى بطلاب كليات الطب بجامعتى القاهرة وعين شمس تجعل من المؤكد أن أهم ما يحتاجه طلاب مثل هذه الكليات هو مادة مقارنة الأديان ومادة الحضارة الاسلامية ، وأحب أن أوضح اننا قد نضع اسم المادة دون أن يكون لها مدلول حقيقى فى المحاضرات ، ولذلك فالمطلوب أن نقرر هاتين المادتين تقريرا حقيقيا وأن تدرسا على النمط الصحيح ، وتشمل هاتان المادتان كل ما يخطر بالبال حول تزويد الطبيب والمهندس ، بخير زاد ينفعه فى نفسه ، وينفعه فى أية بيئة يعيش بها بالداخل والخارج ؛ وتجعله يناظر أو يفوق الطبيب المستشرق أو المبشر •

ثالثا — هناك خطر شديد على الدراسات الاسلامية بالأزهر ، لأن كل الطلاب الأقوياء الأذكياء الموهوبين يتجهون للشعبة العلمية وبالتالى الى الكليات العملية بالأزهر ، ولا يلتحق بالقسم الأدبى الا الطلاب الضعاف أو العاديون وعلى هذا ستختفى المواهب تماما من بين الذين يكون فى أيديهم زمام الفكر الاسلامى ، وهم الذين يلتحقون بكليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية ، واذا كان جيلنا قد حقق بعض التفوق فى مجال الدراسات الاسلامية فذلك لأننا لم نجد طريقا آخر غير هذا الطريق ولو كانت أمامنا فرصة للالتحاق بكلية الطب أو الهندسة لالتحقنا بهما وأخلينا مكاننا كباحثين فى الفكر الاسلامى •

واقتراحى الذى اقدمه فى نهاية هذه الدراسة هو :
الغاء الشعبة العلمية من القسم الثانوى بالأزهر ، وتزويد الكليات العملية بجامعة الأزهر بطلاب من القسم العلمى بالثانوية العامة •

تطوير مناهج الأزهر باصلاحها التــام باحياء العلوم الاســلامية التى اختفت من المناهج كمقارنة الأديان والحضارة الاسلامية وتصحيح العلوم التى انحرفت كالفقه والتفسير ... وحذف العلوم التى ادعت أنها اسلامية وهى فى الحق غير اسلامية [1] .

والخــير أردت وما توفيقى الا بالله .

قضــايا أزهرية أخــرى :

فى مذكراتي التي أستعين بها علي كتابة هذه المرحلة نقاط خطيرة تتعلق بالدراسات العليا بالأزهر من ناحية موضوعات الأبحاث وفائدتها والاشراف عليها ، ونقاط خطيرة تتصل بمجمع البحوث الاسلامية ودوره في حراســة الاسلام وخدمة الفكر الاسلامى ، ونقاط خطيرة ترتبط بصوت الأزهر فى مواجهة أعداء الاسلام ورد كيدهم ، وحراسة الدين والوطن ...

ولكنى لا أجد أنى فى حل من شرح هذه القضايا ، فأكتفى بهــذه الاشارة العاجلة ليتذكر شيوخنا أيا كانت مواقعهم أن العالم يفتح عليهم عيونه ، ويرصد تحركاتهم ، واذا كانت ظروف تقضى بأن ليس كل ما يعرف يقال ، فقد يكون غيرى فى ظروف تسمح له أن يقول كل ما يعرف .

فلنتعاون معــا لخير الدين والوطن ، ولنجعل الله وجهتنا فى كل عمل نقـــوم به .

الأزهــر بالخــارج :

نعود فى ختام هذه الدراسة الى مطلع الحديث لنذكر ونتذكر الدور الضخم الذى لعبه الأزهر عبر العصور وعبر الأقطار لخدمة الاسلام

(١) تراجع الدراسة المفصلة لذلك فى كتابنا « تاريخ المناهج الاسلامية » .

والقضايا العامة ، وكم سجل التاريخ للأزهر من أعمال مجيدة فى ميدان خدمة الدين وخدمة الأوطان ، وطالما كان منبر الأزهر هو منبر الشرق ومنبر الحرية ، وكان شيوخ الأزهر هم ملاذ المظلومين وقادة المصلحين .

وقد حذت المعاهد الاسلامية بالعالم حذو الأزهر فى أكثر خطواته ، فمناهج الأزهر هى التى تدرس فى أكثر المعاهد الدينية بالعالم ، وأسماء كلياته تسمى بها الكليات المناظرة هنا وهناك ، ففى السودان واندونيسيا وغيرهما توجد كليات اللغة العربية وأصول الدين والشريعة ، وتقتبس نفس المناهج التى تدرس بكل كلية من كليات الأزهر ، وهذا يجعل مسئولية الأزهر أعظم وأضخم ، لأنه يقود حركة الفكر الاسلامى لا فى مصر وحدها بل فى أكثر دول العالم ، وهذا يستلزم أن تسير خطا الاصلاح والتحسين دون توقف ، فالتوقف هو الجمود والجمود هو الفناء .

في كلية دار العلوم

مكانة دار العلوم بين مراكز الفكر الاسلامى :

يميل أبناء دار العلوم الى السرور بما قاله الأستاذ الامام محمد عبده عن هذه الدار وهو « تموت اللغة العربية فى كل مكان ، وتحيا فى دار العلوم » وهى قولة كريمة من امام كريم ، ولكن الذى شهدته عن دار العلوم وبخاصة فى عهدها الجديد أفسح من نطاق اللغة العربية الذى ذكره الأستاذ الامام ، والدليل على ذلك أننى رأيت مرة احدى الدول الشرقية تحاول وتلح ليعار أحد أساتذة دار العلوم لتدريس التاريخ الاسلامى بجامعاتها ، وقال أحد المسئولين المصريين لمندوب هذه الدولة : اذا تعذر الحصول على أستاذ من دار العلوم فمن الممكن أن نحصل عليه من كلية أخرى مناظرة ، وأجاب مندوب الدولة بأن أستاذ التاريخ الاسلامى من أبناء دار العلوم يمكن أن يشترك أو يساعد فى منهاج اللغة العربية ، والأدب العربى والفقه الاسلامى وتفسير القرآن الكريم بالاضافة الى التاريخ ، وقد يساعد فى مقارنة الأديان والتربية ، وأن أستاذ الشريعة الاسلامية من أبناء دار العلوم يمكن أن يعاون كذلك فى علوم كثيرة بالاضافة الى الشريعة ••• وهذا ما لا يتيسر لغير أبناء دار العلوم ، وكأنما دار العلوم بذلك تحاول أن تحقق الفكرة الأصيلة لانشائها وتسميتها ، فقد أنشئت وسميت لترعى صورا من الفكر على غرار « دار الحكمة » بمصر ، « دار الفنون » بتركيا حيث كانت هذه وتلك تمثل جامعة متعددة الدراسات •

وقد عشت فى دار العلوم طالبا ، وعشت بها مدرسا وأستاذا مساعدا وأستاذا ، وأسهمت فى نشاطها خلال كل هذه المراحل ، فمن حقها أن نقف معها وقفة نستعرض الماضى ونقترح للمستقبل •

دار العلوم فى عهدنا :

كانت دار العلوم فى عهدنا ست سنوات منها أربعة لعلوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية تنتهى بشهادة « الليسانس » فى هذه

المواد ، أما السنتان الأخيرتان فلدراسة التربية وعلم النفس لتأهيل الطالب لمهنة التدريس اذا شاء ، ويمنح « دبلوما » بذلك ، وفى سنة ١٩٤٤ خرجت أول دفعة من هذا النظام ، وجاءت فرقتنا بعدها فتخرجنا سنة ١٩٤٥ ، ثم حولت دراسة التربية وعلم النفس الى معهد التربية ، وعادت دار العلوم أربع سنوات مخصصة كما كانت لعلوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، واكتفى بعض خريجى دار العلوم بهذه الشهادة وراحوا يعملون فى الصحافة والاذاعة والوزارات والمصالح المختلفة ، وبعضهم التحق بالتدريس ونال دبلوم التربية فى دراسات مسائية ...

وكانت دار العلوم فى عهدنا « داخلية » فقد كان عددنا قليلا جدا اذ كانت فرقتنا حوالى ثلاثين طالبا وكذلك الفرقة التى قبلنا وهى مبدأ هذا النظام وجاءت الفرقة التى بعدنا على هذا النحو ، وكأن القسم الداخلى كان قد أنشىء لرعايتنا فقط لأنه توقف بعد ذلك ، فقد أخذ عدد الطلبة يتزايد ولم يتسع المكان لمزيد من الطلاب بالقسم الداخلى ، ولم تبذل جهود لتدبير مكان آخر ، وبقينا نحن بالقسم الداخلى حتى تخرجنا .

لقد حمانا هذا النظام من متاعب الحياة التى كان الطلاب يعانونها بالقاهرة ، حمانا من الأزقة والحارات والأمكنة التى تبعد الى حد كبير عن النظافة وعن حسن المعاملة ، وخلق هذا النظام صداقات ، وودا بين جماعات الطلاب الذين كانوا يحسون أنهم الى حد كبير أسرة واحدة ...

وكانت دار العلوم تقف فى مهب العواصف ، وتتناوبها الأعاصير . اذ كان الأزهر قد أعلن نظامه الجديد فى مطلع الثلاثينات والذى يقضى بقيام كلية للغة العربية مع كليات أخرى ، وكان يعتقد أن وجود كلية للغة العربية بالأزهر يعنى عدم الحاجة لدار العلوم ، ثم كان الأزهر يمر بفترة ازدهار فى قياداته ، فقد تسلم مشيخة الأزهر شيخان يعتبران من قمم الاصلاح والفكر هما المرحومان الأستاذان الظواهرى والمراغى ، وكان لهما نفوذ علمى وسياسى ، وقد نجحت هذه الحركة الأزهرية بقيادة

المختلفة فأوقفت « تجهيزية دار العلوم » وهى المدرسة التى كانت تعـد الطلاب للالتحاق بدار العلوم ، وكان معنى الغاء التجهيزية أن المعين الذى تستقى منه دار العلوم قد نضب ، وستنضب بالتالى الدار نفسها ، وأخذت الدار تأخذ طلابها من الحاصلين على ثانوية الأزهر مؤقتا حتى تدبر أمورها أو تزول •

ولعل قلة عدد الطلاب الذين سمح لهم بالالتحاق بدار العلوم ابتداء من النظام الجديد كان أيضا استجابة للضغط الذى تعرضت له هذه الدار ، فلما ظهر أن ميزانية الدار أوسع من عدد هؤلاء الطلاب اتجه القائمون بالأمر الى انشاء القسم الداخلى ليمتص هذه الميزانية •

ولم يكن الأزهر وحده هو الذى يصارع دار العلوم بل اشتركت كلية الآداب بجامعة القاهرة فى هذا الصراع (لم تكن الجامعات الأخرى بمصر قد ظهرت بعد) وكانت كلية الآداب أيضا تعيش أزهى عصورها حيث كان بها مجموعة من أساطين الفكر آنذاك مثل طه حسين وأحمد أمين ، وكان من وسائل طه حسين للقضاء على دار العلوم والقضاء على كل صوت يدافع عنها وعن ضرورتها أنه جذب الى كلية الآداب مجموعة كبيرة من خيرة أبناء دار العلوم حتى لا يقال أن للدار طابعا خاصا يحتم وجودها ، ومن هؤلاء الأساتذة أحمد الشايب والسقا وابراهيم حمودة وغيرهم ليغنوا كلية الآداب بما عندهم من خبرات ، وليتقلوا اليها طابع دار العلوم •

وبين هذا الصراع كان الزمن يمر ، وخرجت من المعاهد الثلاث دفعة أثر دفعة ، وتزامل الخريجون فى التعليم بوزارة التربية والتعليم وجاءت التقارير تحتم ضرورة بقاء دار العلوم • وبقيت دار العلوم •

ورأت جامعة القاهرة أن تحسم الخلاف بين دار العلوم وكلية الآداب فضمت دار العلوم كلية بين كلياتها سنة ١٩٤٦ وحل التعاون الى حد كبير محل المنافسة والصراع •

واتجهت بعض محاولات الأزهر لصرف الحاصلين عن الشهادة الثانوية منه عن الالتحاق بدار العلوم وذلك للقضاء على المعين الذى تستمد منه دار العلوم طلابها فقفز عميد كلية دار العلوم قفزة خطيرة النتائج ، واستصدر قراراً سنة ١٩٥٣ بجواز أن يلتحق بالكلية الحاصلون على الثانوية العامة من الذكور والإناث ، ومنذ ذلك التاريخ انكمش عدد الطلاب الأزهريين بالكلية ، ودبت بفنائها ومدرجاتها أقدام الجنس اللطيف .

مستوى الكلية عبر نصف قرن :

ماذا نرى لو استعرضنا مستوى الكلية العلمى عبر نصف قرن [1] ؟ .

فيما يتعلق بالمناهج نرى أن المناهج الحديثة منذ ضمت الكلية للجامعة أصلح من المناهج القديمة ، وأوفى بالغرض وأشمل بالحاجات التى يتطلبها الانسان المسئول عن الثقافة العربية والاسلامية ، ففى الكلية قسم لتاريخ الأدب والنصوص ، وقسم للبلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن ، وقسم للنحو والصرف والعروض ، وهذه الأقسام الثلاثة تشمل بالدراسة مختلف الأبواب ومختلف عصور الأدب واتجاهات النقد .

وفى الكلية قسم للشريعة الاسلامية وقسم للتاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية وقسم للفلسفة الاسلامية ، وفى هذه الأقسام دراسات فيها شمول وعمق فى هذه الاتجاهات المختلفة .

وفى الكلية لغات حية وبعض اللغات الشرقية وبعض المواد الثقافية .

وهناك فَرْق واضح رأيته وعاشرته فيها يتعلق بما عرفته طالبا من التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، وما أقدمه أنا وزملائى من

---

(١) انشئت الكلية منذ قرن كامل ، ولكن المقارنة تتصل بنصف هذا القرن فقط ، فقد شهدنا خلاله جيل أساتذتنا وجيلنا وجيل طلابنا (انظر تاريخ الكلية فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف) .

هذه المادة فى المنهج الجديد ، فالذى كان يدرس لنا شذرات لا تعطى صورة ما عن أحداث التاريخ من ناحية عرضها وناحية شمولها وناحية فلسفتها ، أما الذى نقدمه فيمتاز الى حد كبير بالشمول والعمق والاحاطة فيما يتعلق بالتاريخ وفلسفة التاريخ وحضارة الاسلام والمسلمين ومثل هذا يقال بالنسبة للمواد الأخرى .

وفيما يتعلق بالأساتذة نقرر أن كل جيل أدى مهمته فى عصره خير أداء ، وكان الجيل الماضى يضم أعلاما فى علوم اللغة والأدب لهم جهد عظيم فى هذا المجال ، أما الجيل الحاضر فتخصصات دقيقة من مختلف جامعات العالم فى كل فروع الفكر الذى يرتبط بهذه الكلية ، وأعضاء هيئة التدريس بالكلية جميعا ممن يحملون درجة الدكتوراه ولهم دراسات وبحوث يعد الكثير منها فى نطاق البحوث العالمية ، ولو عرضنا المؤلفات التى ظهرت لأعضاء هيئة التدريس بالكلية منذ انضمت للجامعة الى الآن لرأينا مكتبة عربية واسلامية تدعو للفخر والاعجاب ، فيها دراسات عن القصة والشعر الحديث وشعر المهجر والالتزام فى الأدب والتاريخ ، وفيها موسيقى الشعر وموسوعة عن التاريخ الاسلامى وموسوعة عن الحضارة الاسلامية وسلسلة عن مقارنة الأديان وفيها أفانين وأفانين فى الفلسفة والتصوف والشريعة وغيرها من العلوم .

اساتذة الكلية فى المحيط العالمى :

وجهود أساتذة كلية دار العلوم لا تقف عند هذه الكلية ، فان كثيرين جدا منهم أعيروا لجامعات كثيرة فى العالم ، وأثبتوا بها أرقى درجات النجاح ، وانك لتراهم فى كل الجامعات العربية فى مختلف الأقسام التى تدرس اللغة العربية والأدب العربى والتاريخ الاسلامى والفلسفة الاسلامية والشريعة وتراهم كذلك فى جامعات الشرق الأقصى وفى نيجيريا وانجلترا وغيرها . هذا بالاضافة الى ما يسهمون به من نشاط فى الكليات الأخرى وفى كثير من معاهد الدراسات العليا ، وبالاضافة الى نشاطهم

الملموس فى الاذاعة والتليفزيون والصحافة والمحاضرات العامة والخاصة .

طـــلاب الكلية من عهد الى عهد :

وفيما يتعلق بالطلاب نجد الامر الآن يختلف تمام الاختلاف ، صحيح أن بعض الطلاب الآن ممتازون ولكننا هنا نتكلم عن المجموع بصفة عامة . لقـــد كان طلاب دار العلوم فى الماضى يمرون بمراحل مهمة تهيئهم للالتحاق بالدار ، كانوا يلتحقون بمدارس المعلمين الأولية ثم بتجهيزية دار العلوم ، وهم بذلك يمضون سنوات متعددة تؤهلهم للالتحاق بالدار وعندما يصلون اليها يكونون فى مستوى طيب فيما يتعلق بالعلوم العربية والاســـلامية ، وعندما ألغيت تجهيزية دار العلوم استمدت الدار طلابها من حاملى ثانوية الأزهر بعد اجراء امتحان تحريرى وشفوى للمتقدمين ليختار منهم أحسنهم ، والحاصل على ثانوية الأزهر أمضى تسع سنوات فى دراسة العلوم العربية والاسلامية بالأزهر ، فاذا اختير من بين هؤلاء صفوتهم فمعنى هذا أن طلاب دار العلوم كانوا قمما فى مجال الدراسات العربية والاسلامية .

وكان طلاب دار العلوم محدودى العدد ، فكان المدرس يعرفهم واحدا واحدا وكان تدريبهم على التطبيق والأبحاث عملا ممكنا ، ولم نكن ونحن طلاب بدار العلوم نعرف رفاهية العصر الحديث المتمثلة فى صــــور متعددة كالكافتيريا ، وحرية دخول المحاضرات أو النزهة بالفناء ، والبـــاب المفتوح دائما لمن شاء أن يدخل أو أن يخرج وقتما يشاء ، وكانت الساعة التى ليست بها محاضرة لأننا خالية بالجدول أو لغياب الأستاذ المحاضر ، تعـــد ساعة دراسة بالمكتبة ، ويمكن القول دون مبالغة أننا كنا نعرف محتويات المكتبة أو أكثرها ، وكنا أصدقاء لأمنائها .

ماذا عن طلاب العصر الحـــديث ؟

كل شيء مختلف تماما ، فبدل صفوة الحاصلين على ثانوية الأزهر ، تستقبل الدار آخر الحاصلين على الثانوية العامة ، والفرق كبير جدا بين

الطائفتين ، فأنا مثلا وزملائى لم تكن بنا حاجة — بعد ثانوية الأزهر — الى أية دراسة أو زيادة فى مجال النحو والصرف والعروض فقد كنا نعرف مستوى رفيعا فى هذه الدراسات وكل ما كنا نحتاجه هو بعض الفلسفات حولها وبعض فروع التخصص فيها وكنا فى الفقه الاسلامى وتفسير القرآن الكريم وغيرهما من الموضوعات ، على هذا النحو كذلك .

أما الحاصل على الثانوية العامة من ذوى المجموع المتواضع فمستواه العـام ضعيف ، ومعارفه بعيدة كل البعد عن التخصص فى علوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية .

وانه المجموع وحده هو الذى ألقى بالطالب فى هذه الكلية ، ولاشىء آخر غير المجموع الهزيل . انه يدخل الكلية خالى الوفاض ويحتاج الى تشكيل جديد ، وبناء جديد ، وسنوات الجامعة لا تتسع لهذا التشكيل .

قد يكون ضعيفا فى اللغة العربية ، وعدوًّا لها ، ولكن المجموع يدفعه ليتخصص فيها . يا لله ! !

أما الطلاب الأقوياء فيتجهون للقسم العلمى ، والطلاب الذين يحصلون على مجمـوع مرتفع من القسم الأدبى يتجهون الى كلية الاقتصاد والعلوم السـياسية ...

والحق أنه يتحتم ان تختار صفوة من الطلاب لكلية دار العلوم ونظيراتها مـن الكليات التى تخرج المعلّمين ، لأن هـؤلاء هم الذين سيعلمون الجيل الذى سيصبح منه الأدباء والمهندسون والقضاة والمفكرون فيما بعد . ويوم يضعف المدرسون سيضعف كل هؤلاء ، ان طالب دار العلوم الذى يدخل ضعيفا سيخرج ضعيفا على كل حال ، مهما حاولنا معـه ، ولن يستطيع أن يداوى تلاميذه ، وسيطّرد الضعف من جيـل الى جيـل .

وبالاضافة الى مستوى الطلاب عند الالتحاق هناك مشكلة العدد ، فقد كنا طلابا فى دار العلوم وعدد الفرقة حوالى أربعين طالبا ، وأصبح عدد الفرقة الآن عدة آلاف ، وعدد المدرسين أقل من عددهم من قبل .

والكافيتريا تجذب عددا كبيرا من الطلاب الذين يُحْسَبون علينا دون أن يجلسوا الينا ، ويمضون أوقاتهم فى ظل شماسى البحر ونسيم الأشجار وأحاديث الصبا .

والطالب حرٌ أن يدخل المحاضرة أو يجلس فى الفناء أو يبقى فى بيته الى آخر العــام أو يلتحق بوظيفة ما وهو طالب ويحسب أيضا علينا ، وليست لنــا به صلة ، ولا يمكن أن نعرف الغائب من الحاضر فى هذه الأعداد الكبيرة .

وباب الكلية مفتوح ككل أبواب الكليات والجامعات ، وكان هذا الباب ، فى عهدنا موصدا دائما الا فى مواعيد محدَّدة ، واذا اضطررنا الى الخروج فى غير هذه المواعيد كان علينا أن نأخذ إذناً من « خليل أفندى » أو نهمس ببعض القروش الى « عم محمد » فيلتمس فرصة ليخرجنا .

وطلاب هذا العهد ليس لهم على المكتبة اقبــال ، ولا يربطهم بهــا ارتباط ، وهم لا يعرفون ــ غالبا ــ الا الكتب الدراسية البسيطة .

هل من علاج لهــذا الداء ؟ .

نعم هناك علاج ناجح ودواء سريع المفعــول بعــد ما ذكرناه من تشخيص للمرض وايضاح للمشكلة .

أنه الطالب يتحتم أن تُوَجَّه له كل العناية ، وعلى الجامعة أو مجلس الكلية أن يقرر ألا يدخل كلية دار العلوم الا من حصل على مجموع مرتفع فى الثانوية العــامة على أن يكون مجموعه فى اللغة العربية مناسبا كذلك .

ربما يعترض بأن طلاب هبذا المستوى لا يقبلون على كلية دار العلوم والاجـابة هى :

أولا ــ الإكتفاء بالطلاب الأقوياء وان قل عددهم فلا فائدة من الكثرة الضعيفة ولن يربى المعلم الضعيف جيلا ناجحا للمستقبل .

ثانيا ــ القضاء على الفكرة التى خلقها الاستعمار ، وهى التقليل من شأن مدرس اللغة العربية كوسيلة لاضعاف الوطنية بين العرب ، وتصحيح هذا الوضع بابراز أن اللغة القومية أسمى اللغات عندنا كحال اللغة الانجيزية فى انجلترا ، والفرنسية فى فرنسا .

ثالثا ــ تبرز امتيازات الكلية بطريقة الإعلام ، فمن الواضح أن لهذه الكلية امتيازات كبيرة ، وبها وسائل للاغراء ، ولكن التعريف بها قليل ، ومن هذه الامتيازات :

(أ) سرعة التعيين دون انتظار ما يسمى بالقوي العاملة التي يتأخر صدور قرارها عامين بعد التخرج أو أكثر من عامين .

(ب) الإستمتاع بوظيفة عالية المستوى مرتبطة التخصص بدراسة الطالب ، فلا يلقى بالطالب هنا أو هناك دون عمل أو فى عمل بعيد عن تخصصه ودراسته .

(جـ) الاستمتاع باجازة صيفية طويلة .

(د) اتاحة الفرصة للمدرس ليسافر للخارج معيارا لكثير من الدول التى تطلب المدرسين المصريين وتقدم مرتبا كبيرا .

(هـ) الحصول على دخل اضافى عن طريق الدروس الخصوصية التى تنظمها المدارس ، وعن طريق الانتداب للمراقبة وتقدير الدرجات فى الشهادات العامة .

(و) تأجيل التجنيد أحيانا فى فترة يجتذب الجيش كل الخريجين أو أكثرهم بمجـــرد تخرجهم •

رابعا ــ تقدم الدولة حوافز لتغرى الطلاب بالالتحاق بهذه الكلية ، ويمكن أن تكون حوافز مادية كمبلغ شهري يقدم لكل طالب •

خامسا ــ من الحوافز التى تغرى الطلاب بالالتحاق بكلية دار العلوم أن نقضى على صورة ارهابية تهدد الطلاب ، وتتمثل هذه الصـــورة فى الرسوب الضخم الذى يحصل كل عام فى الأدب العربى أو النحو أو البلاغة . ويترتب على ذلك اعراض الطلا بعن هذه الكلية خوفا من هذه المواد ، فمن الواضح أن الطلاب لايخافون من التاريخ أو الفلسفة أو الشريعة خوفهم من القـــواعد ، ولست أحب أن أدخل فى تفاصيل ما يتم من تسهيلات ، وأدع ذلك لأساتذة هذه المادة ، والى تقديرهم لخوف الطلاب من سلاح مصلت يهددهم فيجعلهم يبتعدون عن هذه الكلية ، وأكتفى بأن أذكر أن الجاحظ كان يوحى « بالا يشغل قلب المتعلم بالنحو الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام ، فى كتاب ان كتبه ، وشعر ان أنشده ، وشىء ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغله عما هو أولى به كرواية الخبر الصادق والمثل الشاهد والمعنى البارع » [1] •

ان قواعد اللغة العربية شىء مهم جدا للطلاب ، ولكن المستعمل من القواعد هو ما ينبغى أن توجه له أكثر العناية ، أما التصغير وبعض صور الاعلال والابدال •••• فيكفى الإلمـــام بها كثرات فقط •

ومرة أخرى لابد من عمل شىء فيما يتعلق بهذه المواد ، وما أجدر أساتذتها بعمل ذلك الشىء والاتجاه بهذه المواد الى التدريب وحســـن الاســـتعمال •

* * *

(١) رسالة المسلمين للجاحظ ورقة ١٣ ، ١٤ (مخطوط) •

ويتتبع مع طالب كلية دار العلوم طريق آخر غير ذلك الذى يسير فيه طلاب الكليات الأخرى ، فينزع معلم المستقبل من أسلوب الحيــاة الجامعية الجديد الذى وصفناه آنفا ، ويربى معلم المستقبل فى جو تربوى أصيل ، يلاحظ فيه جانبه العلمي والأخلاقى معا ، ويدرب ليكون مربيا يهتم فى مدرسة المستقبل بالنظام والخلق كما يهتم بالعلم .

ونعقد صلحا بين الطالب والمكتبة لنربى فيه الرغبة فى الاطــلاع وتوسيع الثقــافة .

ويزداد عدد المدرسين والمعيدين بحيث يكون هناك اشراف على ذلك الطلاب ، ودرجات لأعمال السنة حتى يهتم بها الطلاب ...

ولاشك أننا بذلك نخرج المدرس الناجح الذى تتطلع له النفــوس وتهفو له الآمــال .

* * *

وهناك مسألة خفيفة تثور بين الزملاء أحيانا ، وهى عن مدى ضرورة التوسع فى الدراسات الاسلامية بكلية دار العــلوم ، ويجيب أســاتذة الدراسات الاسلامية فى ذكاء وود بأن اللغة العربية جاءت الى هذه البلاد فى أعقاب الدراسات الاسلامية وتابعة لها ، ومحاولة عزلها عن القرآن وعلومه وعن التاريخ الاسلامى والفلسفة الاسلامية محاولة تضعف اللغة العربية أكثر مما تغنيها وتثريها وقواعد اللغة العربية ليست هدفا وانما وسيلة ليحسن الانسان التعبير عن كلام يقوله ، وهذا الكلام هو ما يقدمه له أساتذة الدراسات الاسلامية والأدبية .

« المودات » والمساحيق للطلاب والطالبات

وهناك همسة مهمة نهمس بهـا فى آذان طلاب الكلية وطالباتها ، ولعلها تنقلب من همسة الى صرخة ، ومن طلاب كلية دار العلوم وطالباتها الى الطلاب والطالبات فى مختلف الكليات والمعاهد ، بل الى المرأة فى مختلف المصـالح والادارات •

الهمسة أو الصرخة تتحدث عن موقف الطالب والطالبة مما يسمى « المودة » وأقرر فى هذا الحديث أننى لست رجعيا لأنى عشت فترات طويلة من العمر فى أرقى بلاد العالم ، ولأنى لازلت أعيش فى مستوى طيب من مستويات الحياة ، ولذلك فان عرضى لهذا الموضوع يتسم بالدقة والاتزان •

فى كليتنا — ككل الكليات والمجتمعات فى بلادنا — شباب أطـال سوالفه وأطلق شعره ، وشبابنا فى ذلك يقلد اتجاهات غربية ، وأنا شخصيا ليس لى اعتراض على هذا ، فطول الشعر عرفه التاريخ فى عصور مختلفة ولم يكن به ما يدعو للتقزز ، ولايزال الناس يرون صـورة المصـلح جمال الدين الأفغانى وقد تدلى شعره من تحت عمامته ، وأوشك أن يسدل على كتفيه ، وفى الغرب عرف بعض « الخنافس » بالبراعة فى الموسيقى والغناء ، وفى الدورة — الأولومبية التى عقدت فى أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٢ بمدينة ميونيخ بألمـانيا الغربية نقلت لنـا الشاشة الصغيرة صور العديد من أبطال الرياضة وقد أطلقوا شعورهم وأطالوا سوالفهم ، كما نرى صور العديد من الشبان الطموحين الذين يشتغلون بمختلف الفنون والعلوم وقد فعلوا ذلك أيضا •

ولكن « المودة » فى بلادنا تختلف عنها فى أكثر بلاد العالم ، فأكثر الذين يطيلون سوالفهم هنا ويطلقون شعورهم يرون هذا هدفهم الأوحـد ولا يحققون معه أى نبوغ ، فاذا ما أطال الشاب شعره أمسك فى يده

سيجارة وارتاد أماكن اللهو أو سار يتسكع هنا وهناك وحسب أنه حقق كل شيء ، ولم أر قط فى كليتنا شابا أطلق سوالفه ثم أدى واجبه واستحق التقدير ، فالسوالف فى بلادنا مظهر من مظاهر التفاهة واللامبالاة .

همسة عميقة الى شبابنا أن يهتموا بواجباتهم ، وأن ينالوا من الملاذ المباحة ما لا يقصّر بهم عن أداء الواجب .

فاذا جئنا الى الطالبات وجدنا الأمر أقسى وأصعب ، ففى كليتنا وفى الكليات الأخرى ، وفى المصالح والوزارات تظهر بعض النساء على نحو يتنافى مع الدين ومع تقاليد الشرق ومع الذوق العـــام ، فالملابس القصيرة (المينى جيب والميكرو جيب) تبدو هنا وهناك وأوجه كثير من الفتيات والسيدات تعلوها طبقة كثيفة من المساحيق ، ولسنا نستطيع أن نبيح هذه الملابس حتى للطالبات المجتهدات كما أبحنا طول الشعر ، لأن المشرع الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى حرّم هذا الوضع وليس لانسان أن يجتهد فيما فيه نص ، قال تعالى « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » (الأحزاب ٥٩) وقد حسمت بعض البلاد هذا الأمر فأصدرت قرارات بمنع هذه الملابس ، ورضى الجميع بهذه القرارات ، وترك الأمر فى بلادنا للآباء مع أن المجتمع له سلطانه ، فمن الصعب علىّ أن أمنع ابنتى مع أن زميلتها فى الكلية أو النادى أو العمل تلبس ما تشاء ، اننا بذلك نخلق صراعا فى البيوت وصراعا فى المجتمع ، ولو صدر قرار عام لرحب به الجميع حتى المرأة المتحررة .

أما المساحيق فشأنها عجيب ، كيف تستطيع المرأة العاملة أو الطالبة أن تجـــد الوقت لوضع هذه الألوان وحبكتها ؟ وما فائدة هذا الجهد ؟ انه لن يجذب رجلا لراغبات الزواج ، لأن الراغب فى الزواج يكره غالبا الحلوى المكشوفة التى تجذب الذباب ، واذا جذبت هذه المساحيق زوجا فانه لن يكون زواجا مستقرا وربما جذبت هذا الرجل مساحيق أخرى أعظم اتقانا وأدق صنعا .

اننى أعبر عن رأى الكثيرين حين أقرر أننا نشمئز من هذه المناظر بالجامعة ، ونراها فى غير مكانها اللائق ، وكم تستطيع المرأة أن تجذب لهـا الأنظـار بأخلاقها وأناقتها التى لا تكلف فيها ولا خروج عن المألوف .

ان الرجل الفنان يحب الجمال فى الزهرة الفينانة ، وفى الخضرة اليانعة ، وفى المـاء المنساب ، ويحب الجمال الحى فى المرأة ، ولكنه يتطلع بعمق الى ما تحت المساحيق ولا تخدعه المساحيق . أما أولئك الذين تخدعهم الألوان الزائفة فهم ضعاف النفوس والأفكار .

والعجيب أن بعض الزوجات العاملات يهملن أنفسهن بالمنزل أمـام أزواجهن ، فاذا جاء وقت الخروج جاست الواحدة أمام المرآة فترة طويلة لتعد زينتها وتتألق فى ملابسها فأصبح المنظر الجميل هبة المرأة للخارج . وأصبح نصيب الزوج من أناقة زوجته ضئيلا محدودا .

وقد تجتذب المساحيق عين الرجل . ولكنه فى الواقع اعجاب بدقة الصنعة لا بروعة المرأة التى تصنعها ، لأن عين الرجل الذكى لا تقف عند المساحيق ولكنها تنفذ الى ما تحت المساحيق ، الى الطبيعة التى حاول الزيف اخفـاءها .

وهناك صيحات بهذا المعنى تقدمها كاتبات مصريات ، وتقدمها زائرات أجنبيات تطرين المرأة المصرية ، وتقدمن لهـا دعوة أن تعود للطبيعة وأن تترك التبذل الذى يضر أكثر مما ينفع .

ومن هذه الآراء ما كتبته محررة « أخبار حواء » بجريدة الأخبار يوم ١٩٧٢/٩/٢٤ وفيما يلى خلاصة ما كتبته :

كان ينبغى أن تكون الطالبة الجامعية والمدرسة والموظفة عنوانا طيبا ومثلا أعلى للفتاة المصرية ، ونحن لا نطالب هؤلاء بالتخلى عن الأناقة ، ولكنا ننبه الى أن الأناقة والذوق الرفيع هما عكس البهرجة والاسراف فى

الماكياج والملابس الخليعة ، وتأخذنا الغيرة أحيانا على الفتاة المثقفة فنصرخ بأن الفتاة التى تسرف فى البهرجة وتلبس الملابس الخليعة ليست عنوانا لمصر . وانما هى من الفتيات اللاتى تتجهن للتسكع فى الشوارع ولفت أنظار الجماهير . ولكن تصيبنا الصدمة عندما يقال لنا ان اللاتى تلبسن هذه الملابس وتظهرن بهذه البهرجة هن فى الواقع من طالبات الجامعات .

رجاء وأمنية أن تنقذ الفتاة الجامعية سمعتها من هذه الاتهامات وأن تصبح بحق الصورة المشرفة لوجه مصر .

بقيت — عن كلامنا عن دار العلوم — فكرة تظهر فى مذكراتى وتعيش فى خلدى . فقد كنا — كما سبق القول — بالقسم الداخلى بالكلية ونحن طلاب ، وكان عنبرنا يُطِلُّ على شارع المبتديان ، وكنا نشاهد مرة فى الأسبوع على الأقل عملية غسيل للشـــارع أوتوماتيكيا ، فكانت سيارة مجهزة بجهاز أوتوماتيكى للغسيل تروح وتغدو بالشارع حتى تتركه كالمرآة كما يقولون ، وتنتقل من حى الى حى .

ولايزال شارع المبتديان يعيش ، ولكن الحال قد تغيرت بعد أكثر من ربع قرن من الزمان . فقد اختفت السيارة الأوتوماتيكية ، واختفت كل وسائل النظـــافة تقريبـــا ، وارتفعت حـــول الكلية أكداس الزبالة ومناظـــر القاذورات ... يا لله ! ! كيف انحدرنا وكان ينبغى أن نصعد ؟ .

مع الشعر

الأدب والشــعر :

بعد الحديث عن القسم الثانوى بمعهد الزقازيق والحديث عن دار العلوم ينبغى أن نقف وقفة نتحدث فيها عن الشعر ونصيبى فيه ، وقد سبق ان قلت ان نزعة أدبية لمستُها فى نفسى فى أخريات عهدى بالقسم الابتدائى ، وأن هذه النزعة الفجة قد نضجت فى القسم الثانوى ، فلما التحقت بدار العلوم صُقِلَت هذه الموهبة الى حد كبير ، وهذه الموهبة الأدبية كان لها عندى مظهران ، المظهر الأول الشعر وسنخصه بحديث طويل بعد قليل ، أما المظهر الثانى فهو النثر خطابةً وكتابة ، وهذا المظهر الثانى كان ولايزال وسيلتى فى كتابة ما ألفت من كتب وما نشرت من بحوث ، وما ألقيت من محاضرات عامة وخاصة ، فقد كانت سهولة التعبير عما بنفسى من أفكار من أهم الأسباب التى يسَّرت مهمتى دمؤلف وأستاذ ، والحمد لله واهب المنن الذى هدى لهذا وما كنت بسواه قادرا على التأليف بسلالة وانسياب ، وهناك كثير من المفكرين والباحثين لديهم أفكار مفيدة ، ولكن تعبيرهم عنها بالكلمة المقولة أو بالكلمة المكتوبة صعب ، وقد تعجز العبارات التى يكتبونها عن حمل الأفكار التى يحملونها ، فليت هؤلاء يتجهون بمزيد من الجهد لتكوين الأداة أو الوسيلة كاتجاههم لتكوين الفكر والبراعة فى البحث ، فالكلمة هى سبيل نقل الفكرة من داخل الانسان الى المجتمع ، وسبيل حراسة الفكرة من جيل الى جيل ، وقد عاشرت كثيرا من الزملاء بالخارج وبعضهم كان يسهل عليه أن يعبر عن نفسه بالانجليزية أكثر مما يستطيع بالعربية وقد كانت تأخذنى الغيرة على لغتنا الجميلة ، وعلى ما تمدته لكثير من الباحثين بما يسمى السهل الممتنع •

ولنكتف فى الحديث عن النثر والخطابة بهذا القدر ففى الكتب التى أخرجتها والمحاضرات التى ألقيتها ما يشفع لى بالاكتفاء بهذه الاشارة ، أما الحديث عنى كشاعر فيحتاج منى هنا الى وقفة أطول وأفسح ، فلقد لعب الشعر دورا مهما فى حياتى ، واذا كنت الآن أطيل الجلوس بمكتبى

مع المراجع لأدوّن فكرة ، أو أحمــل بعض مراجعي الى النادى لأبحث فيهــا ، فطالمــا فعلت مثل ذلك مع الشعر فى مطلع الشباب . ولكن أفكارى العلمية ظهرت للوجود ممثلة فى عشرات الكتب التى طبعتها وأعدت طبعها مرارا ، بيد أن شعرى أوشك أن يختفى ، وكثيرون جدا ممن يعرفوننى كاتبا ومؤلفا لا يعرفون عنى شيئا كشاعر . وهى مرحلة من العمر آن أوان للاشارة اليها فليس من العدل أن تضيع .

طــرف حــول الشــعر :

ولا يخلو الحديث عن الشعر من طرف أسرد فيما يلى بعضها :

فى معهد الزقازيق كان هناك بطبيعة الحال منافسات بين الطــلاب المتفوقين ، وكانت هذه المنافسات بريئة وطيبة . وكانت أحيانا تتعدى المنافسة الفردية الى الجماعية بمعنى أن جماعات من الطلاب كانت تتكون وتتعاون علميا وأدبيا ، علميا فى المذاكرة وأدبيا فى جماعات الشعر والخطابة والتعصب لهذا أو ذاك ، وكان لى زميل ينافسنى فىمجال الشعر . وكنا وقفنا معا فى المناسبات المتعددة ليلقى كل منا قصيدته . فانال أكثر الاعجاب أو يناله زميلى ، وكان هناك طالب من بلدة هذا الزميل يصفّق لشعرى ويعتزّ به أكثر مما يفعل مع ابن بلده ، وفى مرة ضاق منافسى الشــاعر بصديقى ابن بلده فقــال له : انك تفاخر بشعر شلبى وأنت لا تعرف الشعر ، ولمــا عرفت ذلك أوعزت اليه أن يجيب بأنه يقرض الشعر على نسقٍ لا يقل عنه ، ولكنه لا يجب اظهاره احساسا منه بأنه دون المستوى المطلوب ، ومنذ ذلك الحين بدأت منافسة جديدة بين الاثنين .

لم يكن صديقى هذا شاعرا ، ولعله لم ينظم بيتا واحدا من الشعر طيلة حياته ، ولكنى كنت خلـْفه ، أنظم له قصائد من حين لآخر ليظهر بها فى المناسبات ، وهبّ صراع طويل ، فهناك شكوك واسعة بأن هذه المفاجأة

الشعرية ليس لهـا أساس ، وأن المؤلف الحقيقى لهذا الشعر هو أنا ، ولكنى كنت انكر ذلك باصرار ، وأدع صديقى يردد هذا الشعر بزهو وسرور على أنه شعره •

وطال أمـد هذا التصرف حتى قال لى صديقى مرة : « لقد بدأت أحس بان هذا الشعر هو شعرى أنا فعلا » فشجعته بأن يتمسك بهذا الاحساس ، وكانت أسهم هذا الصديق توشك أن ترتفع على أسهم الشاعر الحقيقى الذى كان ينافسنى ، فأصبح ابنُ بلدِه يشغله بالمنافسة •

وفى اجازة الصيف ذهب هؤلاء الى بلدتهم وذهبت الى قريتى ، وكانت المسافة بين القريتين حوالى ثلاثين كيلو مترا ، ووجد الشاعرُ الحقيقى ورفاقه الفرصةَ سانحة للايقاع بصـديقى وكشفِ أمـره ، فانتهزوا مناسبة من المناسبات الدينية — هى الهجرة النبوية الشريفة — وأعلنوا عن اقامة حفل بهذه المناسبة يُدْعى له أعيان البلدة والمثقفون ، ودعى صديقى ليسهم بقصيدة فى هذا اللقـاء ، وكان ذلك قبل موعد الحفل بيومين •

قال لهم صديقى : ان الوقت ضيق ، وربة الشعر قد لا تواتينى فى هذه الفرصة ، ولكن أصواتا كثيرة صاحت فيه قائلة : ان عدم اشتراكك سيقوّى وجهة نظرِ الذين يدّعون بأن الشعر الذى تقرؤه هو شعر شلبى وأن بعدك عنه بعدٌ عن الشعر وعن ربة الشعر ، وظهر طابع التحدى فى هذا الأمر • قال صديقى : انى أقبل التحدى ، واتركونى لأخلو الى نفسى ، وأرجو أن تنطلق قدراتى الشعرية •

ولم يُضِعْ صديقى وقتا ، واتجه الى محطة السكة الحديدية والتقط القطار لى ، وفوجئت به أمامى يصرخ قائلا : لقد أوشك الأمر أن ينكشف ، وقصّ على قصته ، قلت : هوّن عليك ، فلهذا الداء دواء حاضر ، خذ هذه القصيدة التى أعدتها لنفس المناسبة • فأخذها وقفز قائلا : هذه كل

تحيتى ، أريد أن أعود بسرعة قبل أن يحس أحد بأنى فارقت القرية .
وعاد دون توانٍ ، كان معهم فى الصباح ورأوه فى الظهيرة والمساء فلم يخطر لهم ببال أنه سافر لى ، وفى الليلة التالية كانت هذه القصيدة تلقى فى حفلين ، ولكن المستمعين هنا غير المستمعين هناك ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح صديقى فى نظرهم شاعرا دون أدنى ريبة .

ومن الطرف التى تتصل بالشعر ما حدث فى كلية دار العلوم . فقد كنا بالقسم الداخلى ، وكانت المذاكرة والسهر والجهد تتضح ابتداء من شهر مارس حيث تعيش الكلية نهارَها وليلَها فى وهج وجِدٍّ . ومبنى كلية دار العلوم كان يقع بالقرب من جاردن سيتى ، وفى شهر مارس والشهور التالية له يتخفف الناس من الملابس الثقيلة وتتفتح الزهور . وتنطلق المرأة من عقال الشتاء بكل زينتها وجمالها ، وللمرأة فى حياه الشبان دور كبير ، انها تسيطر على جانب عظيم من عواطفهم وتجذب عيونهم وتستهوى عقولهم ، وهكذا بينما كنا معشر الطلاب ننصرف عن الحياة ومباهجها الى السهر والكدح كانت المرأة وكانت الطبيعة تنطلق فى بهجتها وروعتها .

وخطر لى هذا الخاطر يوما فكتبت العبارة الآتية على السبورة التى كانت توضع عادة عند مدخل المطعم لتدوّن عليها تعليمات المشرف :

« الطلاب مدعوون لتأليف قصيدة يُسْهِم فيها كل منهم ببيت واحد . ويُكْتَب اسم المؤلف أمام البيت ، والبيت الأول يحدد موضوع القصيدة وبحرها وقافيتها » وكتبتُ أنا البيت الأول هكذا :

متى يجىء ربيعٌ   وليس فيه امتحان ؟ شلبى

وقرأ الطلاب هذا الاقتراح فأعجبوا به ، وسرعان ما امتدت أيديهم الى الطباشير ليضيفوا أنصباءهم ، وكان بعضهم يفكر فى البيت الذى

سيسهم به وهو يتناول طعامه ، فاذا استقام له البيت أسرع يترك المائدة ليدون هذا البيت ثم يعود للطعام ، وعندما انتهت الوجبة كانت السبورة تضيق بما كتب عليها ، وكانت هذه الشركة قد أخرجت قصيدة رائعة تمثل اتجاهات الشباب وطموحه .

وحدث بعد أن توقفت عن قرض الشعر وأنا مدرس بالجامعة أن اشتركت في معسكر ثقافي بمرسى مطروح ، وكان معنا زميل قديم يعرف أني شاعر ويعتقد اني لاأزال أقرض الشعر ، وفي سهرة من السهرات كان يحضرها عدد كبير من الجنس اللطيف طلب مني أن ألقي قصيدة من شعري ، وألح في الطلب واشترك معه في ذلك آخرون ، فألقيت قصيدة سيراها القارىء فيما بعد وعنوانها « اليهـا » ويبدو أن أحد الحاضرين لاحظ أن عيني التقت وأنت ألقيها بعين هذه الفتاة أو تلك ، فظهر احساس بين الحاضرين بأن هذه القصيدة نظمت في مرسى مطروح متصلة بفتاة من الحاضرات ، ولم أنكر أنا هذا الاحساس مع أن القصيدة نظمت قبل ذلك بفترة طويلة ، وتساءلت الفتيات عن تلك التي أوحت بهذه القصيدة الرائعة ، وأجبت اجابة فيها ذكاء ومكر بأن هذه الفتاة تعرف نفسها . وعشنا فترة وأكثر من فتاة من هؤلاء تعتقد أنها صاحبة الالهام .

وبعد ... فأين هذا الشعر الذي تحدثنا عنه ولم نتعرف عليه ؟ .

الاجابة عن هذا السؤال تعود بي الى الوراء طويلا ، فقد كان من التقليد المتبع أن زعماء الطلاب بمعهد الزقازيق — وكان أكثرهم أو كلهم من الشعراء — ينتهزون فرصة مكانتهم الاجتماعية بين الطلاب فيجمعون شعرهم في ديوان ، وينشرونه ويبيعونه للطلاب ، فلما جاء دوري خطر لي احساس بأن هذا التصرف فيه نوع من استغلال المكانة . وبنوع من الكبرياء أو العناد لم أجمع شعري ولم أنشره ، وتغيرت اتجاهات الحياة بعد ذلك ، فقد تطلعنا في دار العلوم الى المستقبل والواقع أكثر مما تطلعنا الى الخيال ، وبعد دار العلوم لم يطل بي المقام بمصر وسافرت الى انجلترا

عضو بعثة جامعة القاهرة ، وفى خلال هذه الرحلة ضاعت من بيتنا بالريف قصاصات الورق التى حملت خطرات قلبى فى فترة من أهم فترات الشباب . أين قصيدة الليل التى أخذتْ عليها الجائزة الأولى والتى صورتْ الليل فى هدوئه وسكونه ، وصورت العابد الحانى ، والمحبَّ المدنف ، واللص المتنكر ، وصورت جماعات الحشاشين الذى يلتفون حول الدخان القاتل المتصاعد من « الجوزة » أو يلفّهم هذا الدخان القاتل ، وصورتْ لاعبى القمـار حول المائدة الخضراء وما يكثر آنذاك من مؤامرات هامسة ، ودقات قلوب توشك أن تنفجر ... أين هذه القصيدة وأين سواها مما عبَّر عن عاطفة الحب التى كانت الشغل الشاغل للشباب فى تلك السن ؟ وأين القصائد الدينية والوطنية التى طالمـا صفق لها الناس وأعجبوا بها ؟ أين هذا كله ؟ لقد أكله النسيان واحتواه المجهول . أبيات فردية لاتزال فى خلدى توحى بمناسبات عميقة الأثر فى النفس ، فهناك بيت يمثّل بقايا قصيدة ويرمز لقصة ، خلاصتها أننى وأنا طالب بدار العلوم كنت أعود من حين الى آخر الى قريتنا ، وكنت أمرّ بالزقازيق فى طريقى الى القرية ، وفى الزقازيق كنت أحط الرحال فى بيت لنا به صلة ، وبه فتاة جميلة مهذبة تحسن استقبالى وأنعم بحديثها العذب واهتمامها الكبير ، وكنت اذا تأخر تُ فى القاهرة عاتبتنى عتابا به نغمات الشوق والود ... ومرّت الأيام ، واستوى عود الفتاة ، وبدأ الراغبون فى الزواج يدقون الأبواب . ولم يكن فى وسعى أن أتزوج آنذاك فالتقطها أحد الراغبين ، وقنعتْ أنا بأن أبرز زفرات النفس فى قصيدة سينيَّة كانت أيامَها من أرق القصائد . وضاعت هذه القصيدة مع ما ضاع من شعرى ، ولم يبق بذاكرتى الا بيت واحد يمكن أن يسمى بيت القصيدة لأنه يصور القضية تصويرا دقيقا . وهذا البيت هو :

كنتِ لى واحــــة أميــــل اليهـــا
عنــدما تعصف الريـــــاح بنفسى (١)

---

(١) جددت كتابة قصيدة لتملأ فراغ القصيدة التى ضاعت ، وسيرى القارىء ظروف ذلك فيما بعد ، ويرى القصيدة الجديدة بعنوان « وقفة وداع » .

وهناك بيت آخر من الشعر يصور صراعا بين فتى وفتاة ، كانت الفتاة طالبة فى الجامعة فى وقت كانت الطالبات بالجامعة قليلات ، وكان بها جمال واعتداد بالنفس ، بدتْ ساخرة من الحب ، وغير مكترثة بالفتيان الذين كانت تخفق قلوبهم كلما رأوها أو ذكروها . والتقتْ هذه الفتاة بشاب وسيم يشغل مراكزا جذابا ، وكأنها كانت قد تعبت من الصراع والظهور بمظهر الاعتداد بالنفس ، فألقتْ بنفسها فى حبه وهامت به ، ونظمتُ فى ذلك قصيدة كانت ضمن ما ضاع من شعرى ولم يبق منها فى ذهنى الا بيت واحـد هو :

كانت تدِلُّ على سـواك وانمـا
نسيتْ لديك دلالهـا المعهـودا

وهناك مجموعات من هـذا الشـعر تبرز فى المسرحيات الشعرية المدرسية التى نشرتها وأنا مدرس بالأورمان النموذجية ، واحـدى هذه المسرحيات عن « ميلاد الرسول » وثانية « عن المدرسة الفاضلة » وثالثة عن « جامعة الدول العربية » وكانت هذه الجامعة عند قيامها حدثا يشغل الأذهان ، وهناك بعض قصائد نشرتها الصحف والمجلات فى حينها ولكن هذا وذاك ضاع كذلك ، ولم أُعِدْ طبع المسرحيات المدرسية بعـد أن اتجهتْ بى الحياةُ وجهة أخرى وانشغلتُ بالفكر الجامعى ، ولم يبق لمـا نشرته الصحف والمجلات أى أثر .

قلة قليلة جدا من الشعر وجدتها مصادفة جمعتْها مفكرة صغيرة تأخذ شكل كتاب فلم تعبث بها يد الاهمال ، وقد قرأتُ هذه المفكرة ، وليس ما بها من شعر أجودَ ما كتبت ، ولكنه جزء أعتز به منه ، وقد اخترت منها نماذج تمثل شعر المناسبات والشعر العاطفى وبعض الأناشيد الدينية والوطنية والاجتماعية :

وفيما يلى هذه النماذج :

الهجـرة النبـوية الشريفة

ذاك ركبٌ يَجِـدُّ بين الصحارَى
قـد طـواه الدُّجى فهمَّ وسـارا

أيقـظ الصـمتَ والرمـالَ سُـراه
وأثار الحصـا وفضّ الغُبـارا

كان فى عـونه إلـهُ البـرايا
فرأى صـفحةَ الظـلامِ نَهـارا

عَـدَدٌ قـلّ عِـدّةً وعـديدا
بينمـا فيـه عزمـةٌ لا تبـارى

لم يهـابوا الردى وخـيرٌ إليهـم
أن يمـوتوا من أن يذوقوا الصَّغَارا

عقـدوا العـزمَ أن يعيشـوا وفيهم
عِزّةٌ تمـلأ الوجـود فخـارا

كلُّ عيشٍ مـع المهـانةِ ذلٌّ
يجعـل المَـنزل البهيـج قِفـارا

وطـن الحـرِّ حيث يحيـا عزيزا
لا يعـانى الآلامَ والأكـدارا

إيه يا موكِبَ الرسول لقد سرْ (م)
تَ وأضـحى العـلا إليك شـعارا

قـد دعتـكِ السماء يا يثرب الخير(م)
را فهبِّى واسـتقبلى المختـارا

ولْيسرْ موكبُ الرســــول ليلقى
في رباكِ الأبطـــالَ والأنصـــارا
تركوا الموطـــن الحبيـــبَ ولـكن
رغبـــوا موطـن الســـماحة دارا
سيشعُّ الاســلام منك على الدنـ(م)
يا فيهــدى الورى ويحــمى الذمــارا

اليهـــا

الى الفتــاة الغــادة الطـروبِ
الى الجمــال النــاعم الرطيبِ
الى الفــؤاد اليقـظ اللعـوبِ
أرســلُ قلبــاً دائم الوجيــبِ

يذكرهــا فى الثَّلجَبِ المشــبوبِ
وفى الســكون الشــامل الرهيبِ

يذكرهــا فى قســوة الخطــوبِ
وفى ابتســام الأمــل الرحيبِ

فذكرُهــا للخــافق الدءوبِ
تسبيحــةُ المســتغفر المنيــبِ

يا وطــنَ المشــرَّدِ الغــريبِ
وأمــلاً للجــاهد المكــروبِ
ويا مثــارَ الحــبِّ والنســيبِ
أشْـعلَ همِّى الرأسَ بالمشــيبِ
وصــيَّر الفــؤادَ فى لهيــب
ومــا رثتْ لذَوْبِهِ المســكوبِ

ولا حنت للمدمع المصبوب
ولا لقلب واضح النضوب
أعياه ما عاناه من لغوب
لعله يكون من نصيبى
أن ترحمى ما نلت من شحوب

لازلت يا دنياى للحبيب
ريحانة فى كنف خصيب
وكنت فى المستقبل القريب
إلهام صب صادق التشبيب

وقفـــة وداع

هذه القصيدة من وحى العاصمة المثلثة بالسودان الشقيق ، فقد كانت هناك أمسية شعرية فى شهر يناير سنة ١٩٧٨ أنشد الطلاب فيها سينية شوقى على أنغام الموسيقى ، ثم طلب الحاضرون منى أن ألقى بعض شعرى ففعلت ، ولكنى ذكرت — معلقا على سينية شوقى — أننا ونحن طلاب بدار العلوم اتجه شعراء الطلبة لمعارضة سينية البحترى على نحو ما فعل شوقى ، وكنت من هؤلاء وكانت السينية التى كتبتها مرتبطة بالقصة التى رويتها من قبل عن فتاة الزقازيق ... غير أن السينية التى كتبتها ضاعت ولم يبق منها فى ذاكرتى الا البيت الذى أشرت اليه آنفا وهو :

كنت لى واحـــة أميـــل اليهـــا
عنـدما تعصـــف الريـــاح بنفسى

بيد أن صديقا سودانيا التقى بى عقب نهاية الحفل وقال لى بصراحة السودانى : أنا لا أصدق أن سينية كهذه يمكن أن تضيع ، ويخيل لى أنك لم تنظم فى هذا الموضوع الا هذا البيت .

وشق على هذا القـول ، فاتجهت فى الحال لأكتب القصـيدة من جديد ، وجادت القريحة بالأبيات التالية ، وقدمتها له فى الصباح ، والسينية الجديدة ليست من قريب أو بعيد تلك السينية الطويلة التى نظمتها إبان الشباب ، فالسينية الجديدة غلب عليها طابع الحاضر بما فيه من آمال تحققت ، وكبرياء لا تخضع لسلطان الحب ، وهى بذلك تخـالف السينية القديمة التى كان بها وهج الشباب ، وفورة الحب ، وقسوة الفراق ، والقصيدة الجديدة هى :

جمعتنـــا الحيـــاة فى عهـــد أنس
مـر كالطيـف بين شـــوق وهمس

كنتِ لي واحةً أميل اليها
عندما تعصِفُ الرياح بنفسي
كنت لي جنة أغرد فيها
كنت مستقبلي ويومي وأمسي
كنت حولي فكرا وقلبا حنونا
كنت نبض المنى ورجعا لحسي
كنت وحي القصيد منذ التقينا
وأخاف القصيد يمنى بحبس
وافترقنا ، فرحتُ أمضي كئيبا
وتهاديتِ في مباهج عرس

***

منية القلب لا تراعي فبناتي
لن أطيل البكا وأحيا بيأس
لستُ كالواله الذي يقطع العمـ
ـر نواحا على فقيد برمس
لا وحقِّ الهوى سأفتح بابا
لمنى يستطيبها كل حس
كبديلٍ عن الهوى سوف أمضي
أطلب المجد في إباء وبأس

***

ويمينا حبيبتي سوف تبقى
ذكريات الهوى بأشرف قدس
ذكريات أريجها يملأ الأفـ
ـق عبيرا وجرسها خير جرس
فوداعا حبيبتي ، كل صبح
سوف يمضي الى الأصيل ويُمْسي

حب صامت

هيَّجتَ شعرى فى هوا ك بنظرةٍ وببسمةٍ
لكننى لم أحظ من فمك الجميل بهمسةٍ
أترى تحبُّ وأنتَ لم تشفع هواك بكلمةٍ ؟
أما أنا فإليك أهتف بالهوى والصبوةِ

* * *

مسَّ الهوى قلبى وكنتُ عن الهوى فى غفلةِ
فانساب لى طيفُ الحبيب يهيج كامن نشوتى
طيف أتى سحراً يحيــ (م) ورنى بأبهى طلعةِ
وبدا يدقُّ القلبَ مز (م) هُواً بأروع فتنةِ
والقلب أوشك يستجيبُ لمن يداعبُ مهجتى
هل أستجيبُ له ؟ وان لم أستجب يا حيرتى
حيَّيتَ يا طيفَ الحبيب ولا منيتَ بلوعةِ
وإليكَ شعرى قد أذبتُ به رحيقَ محبتى

مصــــدر الإلهـــــام

إن وصفتُ الراحَ أسكرتُ ، وإن
قلتُ في الوجـد أسلتُ العبراتِ

أو وصـــــفتُ الروضَ في بهجتـــه
أجعـــل القـــارىء بين الزهراتِ

أو ذكرتُ الحــب أمسى مدنفـاً
كلُّ خـالي القلب صوبَ البسماتِ

يا حبيبي منـــك إلهـــامي وفني
يا حبيبي أنت نبراسُ حيـــــاتي

هنـــد

يسائلني كيفَ السبيلُ الى هنــد
فقلتُ له : وَعْرُ المحجَّةِ والقصـدِ

وفي القلب من جـراء هنـدٍ شكايةٌ
وللعين دمـعٌ لا يجفُّ ولا يُجْدِي

سألتكِ يا هنـدُ الوصـالَ فلم أنلْ
ولا موعدا يشفي الفؤادَ من الوجْدِ

وأنت غـذاء الروح يا هنـد فارحمى
معنًّى أسيرَ الحبّ والشوق والودّ

حبستكِ صيْداً طوّقتْهُ حبـائلى
ولكنـني كنتُ الأسيرَ الى الصيد

وإنـى ليرضيـنى اذا مـا ذكرتِـنى
ولو كانتْ الذكرى مع الذلّ والصدّ

ولكنما الهجران يا هنــدُ لوعـةٌ
يذوبُ لهـا قلبى ويصحو بها سُهْدِى

وأنتِ بقلـبى تسـكنين فأشفقى
عليه ، وكونى منبع الخير والسعد

وان تجرحى يا هنـدُ قلبى فربمـا
نرى مرهف الأسياف يقضى على الغمدِ

وتأنـــفُ نفـــسى أن أذلَ وإنــه
لأهوَنُ أن أفنـى من الـذلّ والقيدِ

ولكننى أهــوى الإستسـلامَ اذا بـدا
لهنـدٍ فمـا أحلى الخضوع الى هندِ

فهندٌ كوجـه الصبح أو نسمة الصّبا
وهنـدٌ كنشر الزهر أو نضرةِ الوردِ

يا ... حبيبى

وجهك المشرق فياض سناه
ثغرك الباسم ما أحلى لماه
أنت أنقذت فؤادى من لظاه
يا ملاذى من تباريح الحياه

يا حبيبى قد عرفت البسمات
بك ، من بعد لهيب العبرات
يا حبيبى أنت نبراس حياتى
يا حبيبى أنت للقلب مناه

يا حبيبى كنت فى الدنيا غريبا
أملأ الساعات حزنا ونحيبا
يا حبيبى جئت لى صدرا رحيبا
صرت كالواحة فى جوف الفلاه

يا حبيبى بعد طول الظلمات
جئت كالصبح جميل القسمات
يا حبيبى فأمحت كل شكاة
وبدت فى حسنها تلك الحياه

أنتَ من خففَ ويـــلاتِ المحـــن
أنتَ من كفكفَ آهـــاتِ الشـــجن
أنت من أهـــوى على مَـــرِّ الزمـــن
أنت من أضـــفى على قلـــبي هـــداه

يا حبيـــبي أنت من يهـــواه قلـــبي
يا حبيـــبي فيـــك آمـــالي وحـــبي
قد ملكتَ الروح فى بعـــد وقـــرب
يا حبيبـــاً ليس للقلب ســـــواه

لقـــــاء

ذاك يـوم منحتِنى القســــــمات
فانظم الشـعر عبقـرىّ السمات

شغلتنى الأحـداث عنـــه ، ولكن
نشط الشـعر بعـد طـول سبات

هب يروى عنى حـديث لقـائى
بفتـاتى ، بأنضر الزهــــرات

كنت فى وحشة الغريب ولو أنى (م)
محـــاط بصحبتى ولداتى

فتطلعت للســـماء أناجيهــا (م)
وأرجـو منهـا رفيـق حيـــاتى

فاستجابت لى الســـماء وأهدت
هبـة خلتهــا أعـز الهبـــات

بعثت لى حبيبتى مثـل وجـــه (م)
الصـبح يبـدو فى حـالك الظلمـات

ملأت حولى الحيـــاة نعيمـــا
وأذابـت مـا بى مـن الآهـــات

هى أنس لوحـــدتى وهنـــاء
لجنـــانى ، ومنبـــع البسـمات

كلُّ ما فى الوجود أضحى جميلا
منذ أشرقت يا نعيم الحيــــــاةِ

بسمة من سناك تملأ بالبشر (م)
فؤادى وبالرضا جنباتى

قلبها كله حنان ورفق
أين منها ملائك الرحمات

هى فى القرب والبعاد سناءٌ
[illegible]

ربِّ ، بارك لقاءنا وأنلنا
ما نرجِّى من المنى العطرات

ليلة

أتراها طيفاً الى وسنانِ
أم نسيجُ الخيال للنشوانِ

أم أرى ليلةً تجمَّع فيها
كلُّ حسنٍ وبهجةٍ وافتنانِ

حفلتْ بالسرور والبشر حتى
مسحتْ ما ألمَّ من حرمانِ

كليالي الرشيد صيغوا وحسنا
أو كما قيل عن ليالي الجنانِ

قد تمتعتُ في سناها ولكن
ما الى وصفِها اليَّ يدانِ

رب شيء وصفتُه فتبدَّى
وهو أزهى من أن ترى عينانِ

يوشك السامعُ اللبيبُ يراه
من خلال الألفاظ مرأى عيانِ

ذاك سرُّ البيان ، لكن هذي
ليلةٌ أعجزتْ جلالَ البيانِ

هى فى الحــق ليـلة من خـــــلود

قــد تســـامت عن الكلام الفـــانى

انهـــا عبقرية الحسن تحـــــوى

كل مـا عـــز من كـرام المـــعانى

كم تمنيت ســــاعة من هنــــــاء

فــاذا تلك فـــوق كل الأمـــانى

قبس منـــك كل وقت جميـــل

يا فتـــاة الأحـــلام والوجـــدان

أنا أغمضــت عن ســواك عيـونى

لتظـــلى وحيــــدة بجنــــانى

صـــراع

أبيتُ أفكر قلبـــاً ليس يذكرنى
وأطلبُ الوصلَ ممنْ رام هجرانا

وكم بعثتُ لـــه روحى تعانقه
فى هـــدأة الليـــل ، فارتدّت وما لانا

حبيبةَ القلب ، حتى م البعـــادُ وقـــد
مُـــلئتْ دنيـــاك أنغـــاماً وألحـــانا

ولا فؤادك حـــبى بات يشـــــغله
ولا فؤادى يبغى عنـــك ســـلوانا

أرى السعادة من دنيا الهـــوى انبعثت
بيننـــا تراهـــا غنىً يبـــدو وسلطانا

تحيـــة

كنت مدرساً بالأورمان النموذجية قبل السفر للبعثة ، وكانت هذه المدرسة هى ومدرسة حدائق القبة تابعتين لمعهد التربية العالى للمعلمين ، وفى سنة ١٩٤٦ كان المرحوم الأستاذ محمد فريد أبو حديد عميداً للمعهد ، وبالتالي مشرفاً على المدرستين ، وقد أقامت مدرستنا بمناسبة نهاية العــام الدراسى حفلاً استقبال لهيئة التدريس بالمعهـد ولمدرسى حدائق القبــة ، وفى هذا الحفل ألقيْتُ هذه القصيدة باسم مدرستنا ترحيباً بالضـيوف :

ذاك عقـــدٌ من الجمـانِ النضـيد
نظمَتْــه يدُ الصَّنــياع « فريـدِ »
ونجـومٌ تشعُّ في أفـق المجد (م)
فتهـدي الى الطـريق الرشـيدِ
وشبـــابٌ كأنه طاقـة الزهـر (م)
افتنـانــاً أو ناضـرات الورودِ
قـد هـداهم روحُ العميـد فساروا
فى ســناه وظلّــه الممـدودِ
فى ســنا معهـــدٍ تلاقي لديه
كلُّ فـكرٍ من طـارفٍ وتليــدِ

دونكم يا شباب منْ خاض للحرب (م)
غمــارا ، وراضَ خَفْقَ البنـــود
دونكم يا شباب من أنفق العمر (م)
كفـاحا بـين القنـا والحــديدِ
عنـدكم للنفـوس طبٌ ، وفيــكم
أمـلٌ يرْتجي لكلّ مَجيـــدِ

كم فؤاد هوى وعقـــل تردّى
فرسمتم له سبيل الصعود
وأزلتم جدب النفوس ، وكنتم
سحباً نضّرت جبين الوجود
فإليكم ذكرٌ أجلُّ من الدرّ (م)
وأحلى من النضار الفريد

فلذاتُ القلوب تأتي إليكم
لتصوغوا منها ثمينَ العقود
كم وليدٍ أتاكم شارد النفس (م)
فأضحى بكم أجلَّ وليد
وصغيرٍ أتاكم يجهل النطق (م)
فأمسى بكم خطيبَ الوفود
وجبانٍ رأيتمُ فخلقتم
منه ربَّ القنا وحامى البنود
صفحةُ الفكر أصبحت منكمُ صفحة (م)
مجدٍ وعزةٍ وخلود
ما شغلتم بثروة أو فتنتمْ
بعيون المها وحسن الغيد
جُهدكم كله الى الطفل والطفلُ (م)
جديرٌ منكم بجهد جهيد
نشّئوه على كريم السجايا
ونبيلٍ من الصفات حميد
وابعثوه قلباً كبيراً يحقق
ما ترجّى بلادُه من سعود

وانشروه ضوءاً يفيض فيهدى
كلَّ سارٍ الى الطريق السديدِ
قد عقدنا عليه خيرَ الأمانى
ولديكم تحقيقُ تلك الوعودِ

ان حُرِمتم طولَ الثراء فمهلا
فالأمانى معقودة بالعميدِ
لا تراعوا فهذه (درجاتٌ)
تتوالى مشفوعةً بالمزيدِ
ذاك عهدٌ به الغنى سعيدٌ
وقليلُ الأموال غير سعيدِ

يا شباباً رعتكمُ خيرُ عينٍ
وهُديتم بكلِّ فكرٍ جديدِ
قيَّدَ الطفل بالسلاسل حتى
ضجَّ فى طَوْقه الثقيل الشديدِ
أنتمُ النخبةُ النماذج تسعو (م)
ن حثيثاً لفَضِّ تلك القيودِ
كلما أنتجوا الى الطفل قيدا
حطَّموه أنتم بعزمٍ حديدِ
لا رعت عهدَهم سحائبُ خير
إنه عهد قسوة وركودِ

يا شبَاب الحدائق الغرِّ هذى
ليلةٌ دونَها ابتهاجُ العيدِ
قد سعيتم لنا كما يهبط الغيث (م)
بروض ، فيزدهى كلُّ عودِ

ويطيب الغنـــاء للطـــير حتى
لا ترى غـير ســاجع غـرِّيد
توشك الروضةُ النضيرةُ أن تهتف (م) :
أهـــلا ومرحبــا بالوفـــود
ذاك صوت الأورمــان طاب صـــداه
فهــو فى صمتـــه أرقُّ نشـيد
جمعتــكم بنـــا رســالةُ حـبٍّ
وهــوى للنهــوض والتجـديد
فـكرةٌ كلنـــا رعــاة حِمَـــاها
منــذ كانت وليـــدةً فى المهــود
سكب المعهــدُ العريق عليهـــا
مِنْ هُـداه وخصَّهـا بالجهــود
فاستقامت تَدَرُّجاً فى ساحة العلم (م)
وأضـحت تمشى بخطـــو وئيـد
وبـكم يا شـبابُ ســوف نراها
أيقظـــت كل غائــب وشـــهيد
هَدَفٌ يرتجى فســيروا اليــه
واملئــوا يا شبابُ سـمع الوجـودُ

خـــواطــــر

هناك شــعاعٌ فى نواحيـك يســطعُ
وضوءٌ على أنحـاء نفسـك يطـلـعُ
ومِشــعلُ نورٍ فى دياجيك يلمــعُ
تمتــعْ بــه مادام فى الأفــق مشرقاً
فكلُّ شعاعٍ سوف يخبــو ويذهبُ

صروفٌ تَوالى فى الحيــاة وتعظــمُ
وهمٌّ وأحــداثٌ على المــرء تَجثُمُ
وليس لــه منجىً يُعِـيـنُ ويرحمُ
ولكنهـــا الأرزاءُ ان جئن خاليـاً
تركْنَ لــه قلبـاً يذوب ويَنْضبُ

فان شــعَّ فى دنيـاك ضــوء فأسرعِ
ونفســك من طيب المبـاهج أشــبعِ
ولا تدَّخر وُســعاً ، فشرٌّ مضـيّعٍ
فتى يرقب الآمــال حتى اذا أتَتْ
تراه قنوعا حينمـا الحرص أنســبُ

ولا تذّكر عنــــد المسرة واليمـنِ
صنوفا عن الآلام والبــؤس والحــزنِ
وإلا تضيع ســاعة الصــفو والحسنِ
وتبقى جريح القلب ولهــان شــاكياً
يســير بــك الحــرمان أيان تذهبُ

وان ربيعَ العمـرِ فى لحظـة السعدِ
وفَقْدُ ربيــع العمر ليس من الرشدِ
وفرحةُ نفس المرء نوعٌ من الخـــلدِ
فكن مرحـاً واظفـر بمـــا لاح انــه

بريق سيخبو بعـــد حين ويغـرُبُ

الشرق بين الماضى والحاضر

الشرقُ أستاذ الورى فى أرضه
نبتتْ بــــذورُ العــلم والعرفان

قد كان يزخر بالحيــاة وغربُهم
لمـــــا يزلْ فى العالم الوسنان

قد كان ـــ والدنيا قفــار كلها ـــ
روضاً يضــوع بأطيب الريحــان

قد كانـــ والدنيااضطرابشامل ـــ
مهــدَ النظام ومصـــدر السلطان

فإذا به يشقى وُينسَى فضلُه
ويصـــيرُ نهب الظلم والطغــيان

نشيد الجلاء

من أجـل مصر جراحى   من أجـل مصر الدماء
نفسى وقلبى سـلاحى   حـتى يتم الجلاء

يافتيـة النيـل هبوا   لدوحـة الحـريه
نمـاؤها أن تصبـوا   تلك الدمـاء الذكيه

لـن يطهر النيـل إلا   إن جـل منـا الفداء
يانيـل نقسم ألا   تغـلو عليـك الدماء

سـلاحنا الحق بيـنا   سلاحهـم من حـديد
والحـق أبلـغ طعـنا   من كل ماض فريـد

هـذا العـدو عليـه   من كل نفـس عـداء
فلـن يطيـب إليـه   يامصر فيـك بقـاء

الصلاة

أذّن الفجر فقوموا يارفاقى للصلاه
إنه صوت رخيم قد دعانا للإله

أكثروا لله ذكرا إنما الفضل إليه
واسجدوا لله شكرا كل خير من يديه

وجعلوا الطاعة فيكم عادة منذ الطفوله
إنها خير إليكم وطريق للفضيله

طاعة الله سرور ورضا الله جميل
فاتقوا الله تصيروا فى هناء لا يزول

البعثة العلمية لأوروبا
والعمل بالجامعة بعد العودة من البعثة

مقدمـــة :

كان الملك فاروق يقيم حفلاً سنوياً لأوائل الخريجين من جميع الكليات والمعاهد العليا ، وكان هـؤلاء الخريجون ينزلون فى ضيافة الملك ثلاثة أيام بالإسكندرية ، وفى الحفل الذى أقيم لنا سنة ١٩٤٥ بهذه المناسبة وقفت مع زملاء لى وتطلعنا إلى البحر المتوسط ، وناجينا ماءه الصاخب أن يحملنا إلى الشمال لنقوم بدراسات عليا هناك ، ولنتعرف على ثقافـة الغرب واتجاهاته نحـو أفكارنا وتراثنا ، واستجاب القـدر لهذا الدعاء ، ولكن الطريق إلى أوربا كان حافلا بالمتاعب .

كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) قـد منعت أوائل الخريجين خلال سنوات الحرب من استكمال دراساتهم بالخارج ، فلمـا أخذ نشاط البعثات يتجدد كان دورى متأخراً لأنى من خريجى سنة ١٩٤٥ ، ووُضِعَت الأولوية لقدامى المتخرجين ، وعلى هذا أمضيت فترة مدرساً بمدرسة الأورمان النموذجية التى كانت تابعة لمعهد التربية العالي للمعلمين ، وكانت هذه المدرسة تُعَدُّ حقلا للتجارب التى يجريها المعهد ، وكانت هذه الفترة أشبه بفترة راحة بين جهد الطالب فى مصر والطالب فى أوربا .

القدر وبعثة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية :

فلما جاء دورنا فى البعثة قفزت أمامى عقبة عجيبة فقد كان ترتيبى فى الليسانس سنة ١٩٤٣ أول المصريين مع درجة الامتياز ، وكنت أسبق الثانى بست وعشرين درجة ، وكنت فى الدبلوم الذى يمنح بعد سنتين من الليسانس « الثانى مكرر » وكان من الواضح أن بعثات الكلية يجب أن ترتبط بمواد الكلية وبالتالى تكون بترتيب الليسانس ، وأن بعثات التربية تكون بترتيب الدبلوم ، وبخاصة أن هاتين الفرقتين بعلومهما نقلتا إلى معهـد التربية سنة ١٩٤٦ ، وبقيت دار العلوم بعلومها ، ولكنى فوجئت باختيار بعثات

الكلية تبعاً لترتيب الدبلوم ، مع أن البعثات كانت لمـادة من مواد الكلية ، وكان هذا خطأ واضحاً ، صرخت ضده راجياً تصحيح الوضع وبخاصة أنى كنت الأول فى جمع الفرق قبل ذلك ، ولكن دراسة هذه المشكلة استغرقت فترة عرفت فيها طعم الظلم ومرارته ، واعترف بحقى بعد ذلك ، وخصصت لى بعثة للتاريخ الإسلامى والحضارة الاسلامية .

ولكن الخير يأتى من الشر ، فإن البعثات الأولى كانت للغويات ، ولست أتكلم عن مدى ما تقدمه مثل هذه الدراسة للمجتمع ، ولكنى أقول إن بعثتى فى التاريخ الإسلامى فتحت أمامى آفاقاً واسعة ، فى الدراسات الإسلامية ، عرفت خلالها اتجاهات المستشرقين حول التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ودرست فلسفة التاريخ ومناهج التاريخ ، واضطررت — لأتعرف على الإسلام تبعاً للنهج الأوربى — أن أتعرف على الأديان ، إذ أن الإسلام حلقة من هذه الأديان وهذا استدعى أن أدرس مقارنة الأديان ... وقد استطعت أن أنقل كل معارف إلى المكتبة العربيـة والإسـلامية ، واستقبلت الجماهير أعمالى وكتبى بتقدير يشكر الله عليه وتشكر عليه الجمـاهير .

وطالما قلت لنفسى : لو كنت أول الدبلوم ، أو لو انتبهت لجنة البعثات للعدالة من أول الأمر ووضعتنى عضو بعثة اللغويات لخسرت كثيراً ، وخسرته المكتبة الإسلامية كثيراً ، فالحمد لله على ما قدر وهيأ .

كلية الآداب وبعثة التاريخ الإسـلامى :

على أن تحديد بعثة التاريخ الإسلامى لى لم يكن عملاً سهلاً ، فقد برز لى منافس خطير ، ولم يكن هذا المنافس فى هذه المرة شخصاً ، بل كلية لها مـكانها ووزنها وثقلها ، هى كلية الآداب ، فقد وقفت كلية الآداب ، موقفـاً حاسمـاً يقرر أن بهـا قسـماً للتـاريخ ينـال طلابـه دراسة واسعة فى التاريخ الإسلامى ، وأن كلية دار العلوم ليس بها قسم كهذا وأن الكليتين تتبعان جامعة واحدة ، ومن الخير والمنطق أن يختار لبعثات التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم متخرجون من قسم التاريخ

بكلية الآداب • وإذا انتهوا من بعثاتهم عادوا لكلية دار العلوم ليعلموا التاريخ بهـا •

وأوشك هـذا الاتجاه أن يجتذب له عقول الكثيرين ، ولكن صيحة قوية قمتُ بها تقرر أن التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية ، وأن المتخصص فيه يتحتم أن يكون متخصصاً فى التفسير والحديث وتاريخ التشريع والفقه وأصول الفقه وغيرها من الدراسات الإسلامية ، وليس من الممكن أن يتكلم إنسان عن غزوة الأحزاب دون أن يكون مجيداً للسورة التى نزلت باسمها ولتفسير آيات هذه السورة •••• والحضارة الإسلامية لا بدّ لها من إنسان يعرف الدراسات الإسلامية معرفة جيدة ، وتبنى هذه الفكرة أستاذنا الأستاذ زكى المهندس عميـد كلية دار العلوم آنذاك ، واستعادت هذه الفكرةُ الزمامَ بعد أن كان قد أوشك أن يُفْلت مـن أيادينا ، واختارتنى الجامعـة لبعثة التاريخ الإسـلامى والحضـارة الإسلامية •

وبدأنا فى اتخاذ الإجراءات ، واستغرق ذلك زمناً ليس بالقصير ، ثم أحيل الأستاذ زكى المهندس إلى المعاش ، وقام أحد أساتذة الكلية بشئون العمادة بصفة مؤقتة ، فذهبت أنا وزملائى المرشحون إليه ليوقع علـى خطابات بتحويل ملفاتنا من وزارة التربية التى كانت تتبعها الكلية إلى الجامعة ، وكان ذلك بعد يوم واحد من نهاية مدة زكى بك ، ولكن القائم بعمل العميد ذكر لنا أنه يريد أن يدرس الأمر كله من أساسه قبل أن يوقع على أية ورقة • وكانت تلك عقبة غير متوقعة ، وبخاصـة أن الكشف الطبى كان قد تم وتحدّد موعـد السفر ، فهرولنا إلى الأستاذ زكى المهندس وعرضنا عليه الأمر ، وطلبنا منه حل المشكلة فهو على علم بكل خطواتها ، والأوراق المطلوب التوقيع عليها أوراق روتينية بعد أن صـدرت القرارات الرسمية ونجحنا فى الكشف الطبى ، ولم يبق إلا تحويل ملفاتنا من الوزارة إلى الجامعة ، واقترحنا على سيادته أن يوقعها بتاريخ الأمس فوافق ، أحسن الله ثوابه ، والتقطنا هذه الأوراق ، وبدأنا رحلتنا إلى دول الغرب •

صعوبات باوربا وتذليلها :

وأنا الآن فى أوربا أواجه موقفاً صعباً للغاية ، فقد جئت لأقوم بدراسة عليا فى التاريخ مع أنى لا أعرف التاريخ معرفة تؤهلنى لهذه الغاية ، وكان علىّ أن أكتب أبحاثى ورسالتى باللغة الإنجليزية ، وكانت بضاعتى فى هذه اللغة قليلة ، يالله !!! ولكنى كنت وحدى الذى يعرف هاتين المشكلتين . فرحت أصارع بعناد لأتغلب عليهما ، وقسمت يومى قسمين ؛ أخصص جزأه للاتصال بالمكتبة التاريخية ولقراءة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية وتلخيص أهم الأحداث ، والتعرف على كل الشخصيات الإسلامية المهمة والمعالم البارزة فى هذه المـادة ، حتى تكوّن لى من ذاك ملف حافل شامل موجز كنت أعود له من حين إلى حين وأتصوره قطعة موسيقى يتحتم علىّ أن أتلذذ بسماعها من آن إلى آن ، وكان هذا دعامة أرسيت عليها دراساتى وأبحاثى .

أما الجزء الثانى من اليوم فكان صراعاً من أجل اللغة احفظ الكلمات بنَهَمٍ وأستعملها ، وأنساب فى الحدائق والمجتمعات التى لم تعرف اللغةُ العربيةُ طريقاً لها ، أحادث الناس وأسمع منهم وأقوّم عباراتى ، وأصحح لهجتى ، وقد ساعدتنى كمبردج فى هذا المجال مساعدة كبيرة ، فقد كنت أمضى بها الأسبوع تلو الأسبوع دون أن أتكلم كلمة واحـدة عربيـة أو أسمع كلمة واحدة إلا أن يكون ذلك حـديث نفسٍ ، وذلك لقلة المصريين والعرب هناك ، وبُعْدِهم الواحد عن الآخر بحيث لا يتم لقاء إلاّ بعد تدبير وإعـداد .

وسرعان ما هزمت هاتين العقبتين وأحسست أننى أستطيع فعلاً أن أعدّ رسالة فى التاريخ الإسلامى وفلسفته ، وأن أكتبها بلغة إنجليزيـة سليمة أو على الأقل أقرب إلى السلامة .

بين لندن وكمبردج :

وكنت قد التحقت بجامعة لندن أول الأمر ، ولم يكن المناخ بها ملائماً ، فلندن كانت غاصّةً بالطلاب المصريين والعرب ، مما كان يدفع إلى الإحساس

بأننا نعيش فى جو عربى ، وكان النادى المصرى مكاناً نتردد عليه من حين إلى حين ، فنأكل الطعام المصرى ونسمر ونلعب ، وكانت مدرسة اللغات الشرقية مكتظة بالشرقيين من كل البلاد ، أما أساتذة التاريخ فكانوا من اليهود غالباً ، ودخل علينا فى هذه الأثناء شهر مايو اللعين سنة ١٩٤٨ الذى أعلن فيه اليهود قيام دولتهم بأرضنا بعد حرب لعب فيها السلاح والسياسة أموراً انتهت بهزيمتنا ، وكل هذا جعل المقام بلندن غير محمود بالنسبة لى .

وليّت وجهى تجاه جامعة كمبردج العريقة وكان أستاذ الدراسات الإسلامية بها هو بروفسور آرثر أربرى ، وهو قمة فى الأخلاق والعلم والتوجيه ، أحسن الله جزاءه ، وقد فتح بروفسور أربرى لى قلبه وعقله ، وإذا صحّ أن أقول إنه تبنّانى لفعلت ، كانت العلاقة بيننا أسمى وأعمق من العلاقة بين الأستاذ والطالب ، كانت الحب كل الحب ، والإخلاص ، والرعاية الشاملة من جميع الوجوه ، وقدّمنى لخيرة الطلاب والطالبات بقسم الاستشراق ، وقال لهم انتفعوا بهذا وانفعوه ، وظل يرقبنا من بعد ومن قرب ، وقدم لى هؤلاء الطلابُ صنوفاً من العون وبخاصة فى ناحية اللغة والناحية الاجتماعية ، فقد عرفت عن طريقهم حياة الإنجليز وعاداتهم . وصحبتهم إلى قراهم وجلست إلى موائدهم وتوثق بيننا رباط الود ، وامتد هذا الرباط بعد نهاية البعثة عدة سنين ولم يفصمه إلا الزمن القاسى الذى يقضى على كل شىء ورحم الله الشاعر الذى قال : والزمان يُنَسِّى .

خطة عمل طويلة المدى :

أما الناحية العلمية فقد غرس بروفسور أربرى بذورها بعد فترة من الفحص والاختبار ، وفاجأنى فى يوم ما قائلاً : هل عندك استعداد لدراسة متصلة مثابرة تستغرق ربع قرن ؟

وسكتُّ ولم أستطع أن أجيب ، وحملقتُ فيه فاغراً فمى . قال : مالك ؟ قلت إن بعثتى سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة فكيف لى بربع قرن ؟

قال : إن سنى البعثة تكفى لحاجة البعثة وللحصول على الدكتوراه ، لكنى أريد أن أقترح لرسالة الدكتوراه موضوعاً يُعدُّ حلقة من دراسة طويلة أريدك أن تعكف عليها ربع قرن من الزمان لتخدم دينك ووطنك .

قلت بين الخوف والأمل : موافق .

واقترح موضوع « تاريخ التربية الإسلامية » ليكون رسالة الدكتوراه ، وقال لى إن التربية الإسلامية حلقة فى سلسلة الحضارة الإسلامية التى أرجو أن تخرجها جزءاً بعد جزء حتى تكتمل .

لقد ظلت كلمات بروفسور أربرى نوراً يشق طريقى ، وسوطاً يدفعنى حتى حققت أمله ، وأتممت موسوعة النظم والحضارة الإسلامية بأجزائها العشرة ، ولكنه للأسف لم ير حلقاتها الأخيرة ، فقد لبّى نداء ربه قبل أن تكتملَ .

إننى هنا أثبت هـذا داعياً أن يثيبه الله على ما قدّم من خير ، ومآأتاح من فرص .

وبدأتُ أتلقى المحاضرات المطلوبة ، وأكتب البحوث اللازمة حتى أصبح واضحاً أنه من الممكن أن أبدأ العمل فى الرسالة ، وقـد وضعتُ التخطيط اللازم لها ، وناقشنى فيه ، ثم أقرّه بعد تعديل بسيط ، وأعطانى فترةً لإعداد قائمة المراجع والاطلاع على الممكن منها ، ولما انقضت هذه الفترة كنت إلى حد كبير قد تعرفت على تاريخ التربية ، وكنت مستعداً أن أبدأ التدوين ، وقد ساعدنى التفرغ الكامل والجهـد الكبير والاطلاع الواسع القديم على أن أمضى قدماً فى هذا العمل .

وكان بروفسور أربرى يقابلنى مقابلة خاصة كل يوم خميس فى منزله حيث أقدّم جهـد الأسبوع كله ، وكان يقرؤه ويبدى رضاه عنه أو يثبت بعض الملاحظات التى أعنَى بإعادة التفكير فيها لأعيد تقديمها فى اللقاء التالى ، مع الجهد الجديد ، وعلى هذا كان بروفسور أربرى يخطو معى أو كنت أخطو معه خطوة خطوة ، وكان يعرف مسيرتى بدقة ، وكذلك كان يعمل

بروفسور أربرى مع تلاميـــذه الآخرين ، فقد كنا خمسة بعدد أيام العمل فى الأسبوع ، فإذا انتهى واحـد هنا من دراسته أمكن أن يخطو مكانه طالب جديد من الطلاب المنتظرين ، وكان من الممكن أن نقابل بروفسور أربرى فى مكتبه بالكلية فى أى وقت إذا حدث مايستلزم ذلك .

ومكتبات جامعة كمبردج زاخرة بالمراجع بمختلف اللغات ، ومكتبة بروفسور أربرى الخاصة كانت فى متناول أيدينا ، وكان طلاب الدراسات الشرقية أقل جداً من ضخامة هذه المكتبات ، وكانت الأمانة ســائدة ، ولذلك كنت أرتع وأعيش بالمكتبات مما أتاح لى الاطلاع على العدد الوافر مــن مصــادر التاريخ ومراجعه .

وبالإضافة إلى الناحية العلميــة يلتزم الكاتب أن يتناول الناحيــة الاجتماعية فى هذه الجامعة العريقة ، فالرياضة والرحلات والحفلات كانت شيئاً لا يكاد ينقطع ولا يتناقض مع الجهد العلمى ، وكان أكثر الطــلاب يشتركون فى اتجاه أو أكثر ، من اتجاهات هــذا النشاط وينبغى أن نخص بالذكر حفلات مايو May Day التى كانت حافلة بالبهجة والنعيم . وكانت كل كلية تقيم حفلة ساهرة رائعة فى يوم من أيام مايو ، ويبدأ الحفل مع مطلع الليل ، ويُمْضى الطلابُ الليلَ كله يغمرهم جـو الحفــل ومتنوعاته ، فإذا أشرق الصبح ركبوا زوارق تأخذهم إلى جزيرة غـير بعيدة من المدينة حيث يتناولون طعام الإفطار إيذاناً بانتهاء هذه الأمسية البهيجــة .

وقد أتاحت لى دراسة موضوع « تاريخ التربية الإسلامية » الفرصة لزيارة مكتبات الشرق والغرب للاطلاع على ما بهــا من مخطوطات تتصل بالموضوع ، ولدراسة بعض أمكنة التعليم على الطبيعة كنماذج لمعاهد العلم عند المسلمين ، وقد انتهزت هذه الفرصة للتعرف على الحياة بالدول العربية والحياة فى أوربا وليس لدينا هنا فراغ لتفصيل القول عن هــذه الحيــاة أو تلك ، والحياة الأوربية على كل حال يمكن أن توجـز فى كلمــات هى النظام الشامل ، والخلق الكريم ، والنشاط الجم ، والعمل الجماعى ، وهى

بلغة أخرى أخلاق الإسلام إلى حد كبير . ولو قارنا ذلك بما نقرؤه عن أوربا العصور الوسطى لا تضح لنا أن هذه البلاد حققت الكثير لخدمة الإنسان وإسعاده ، وإذا كان الغرب قد استعار من الشرق ألوانا من الحضارة ، فلماذا لا نستعير من الغرب قيمه الحضارية ، وما حققه من تطور فى مختلف الميادين ؟ .



مشكلات ما بعد العودة :

وحصلت على الدكتوراه ، وأحسست بشيء غير قليل من الزهو ، والتقيت برفاقى هنا وهناك وفى عيوننا إصرار على عمل شيء لبلادنا التى قدمت لنا من عرق الكادحين ما أتاح لنا أسمى الفرص فى العلم والثقافة والحياة الاجتماعية ، وأشهد لقد كان العزم قوياً عند الجميع تقريباً ، وكان الإخلاص متدفقاً ، والعرفان بالجميل واضحاً ، والرغبة فى الإعطاء متوافرة ، والإصرار على الجهد كبيراً ، وعدنا إلى بلادنا بهذه الروح الوثابة ، ولكن هذه الروح سرعان ما انهارت عند الكثيرين ، فقد كان كل شيء يقف ضدنا ، وحيل بين الكثيرين منا وبين مجال أعمالهم ، وصدمت الحقائق المرة جماهير العائدين ، فتكاسل البعض ، وعاش آخرون مع التيار ، أما الذين تمسكوا بآرائهم فقد عاشوا غرباء ، لم تنصفنا الكليات ، ولا اهتمت بنا الجامعة ، وحتى المجتمع ظهر لنا وكأنه يسخر منا ، فاذا تحدثنا عن النظام أو النظافة أو الحرية أشفق علينا وابتسم منا ابتسامة ساخرة .

على أن نقطة مهمة قابلتنا فجذبتنا عن كل هذه المشكلات ، وأوشكت أن تستأثر بجهدنا كله ، ونشاطنا كله ، تلك هى لقمة العيش التى فوجىء الدكتور كبير الآمال بأنها قد عزت عليه وعلى أولاده ، ياالله !!!

لقد كنا بالخارج ومرتب الواحد منا يصل إلى حوال مائة جنيه استرلينى شهرياً (تشمل المرتب وبدل الكتب وبدل الملابس) وكان هذا المبلغ حينذاك يتيح للواحد منا حياة فيها اكتفاء ورخاء ، فلما عدنا

إلى مصر وعيننا مدرسين بالجامعــة كان مرتب الواحــد منا ســبعة وعشرين جنيهاً مصرياً ، وكنت أسكن منها باثنى عشر وأدفع للمواصلات ثلاثة وأدفع ثمن الكهرباء والمياه وأجرة الخــــادم • • • • والمهم أن المرتب كان ينتهى دون أن يبقى منــه قرش واحــد للطعام أو الكســاء أو العلاج •••• واتجه الدكتور كبير الآمال إلى أهله يطلب العون ، ولم يكن أكثر الأهلين يستطيعون ذلك ، وربما كان منهم من يحتاج إلى العون ••

ولست أحب أن أسير فى وصف هذا العناء فهو بالنسبة للقارىءشىءليس بالمجهول • وقد تسبب عن ذلك أن لجــأ بعض الناس إلى الإهمال أو اللامبالاة ••• ولكن من الحق أن أقرر أننى كنت دائما أهتف بأننى لن أهمل وإن أهمل كل الناس ، ولن أتجه إلى اللامبالاة وإن جذبت اللامبالاة كل الناس •

وبينما كنت أترنح بين العناء والأمل ، أحاول بصلابة أن أقف على قدمى بجهدى ، حدث حادث غير مجرى حياتى ، وبدأ بى عهداً جديداً ، وسيكون هذا الحادث موضوع الدراسة التالية •

مع ثورة ٢٣ يوليو

مقدمـــة :

لست هنا أريد أن أتكلم عن ثورة ٢٣ يوليو ، ماذا قدمت لمصر وللعالم العربى ؟ ومـــاذا يؤخـــذ عليها بالنسبة لمصر وبالنسبة للعالم العربى ؟ لا ، ليس هنا موضع الكلام عن هذه الثورة من هذه الزوايا فقد خصصت للحديث عن هذه الثورة جزأين كبيرين من موسوعة التاريخ الإسلامى ، تحدث الأول منهما عن عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم ، وتحدث الثانى عن عهد السادات عهد النجاح إلى حدٍّ كبير فى الأمور الخـــارجية ، والفشل الشامل فى أمور الداخل ، ولست فى حاجة بعد هذين الجزأين لأية زيادة فى القول عن هذه الثورة الغاشمة .

وهنا أريد فقط أن أتحدث عن الثورة من ناحية ارتباطها بى شخصياً ، وأثرها بالنسبة لى وموقفها منى ، أو بلغة أخرى أريد أن أتكلم عن دور الثورة فى التأثير على رحلة حياتى .

وكلمة ثورة فى تقديرى كلمة غير مناسبة ، فقد حكمتنا عصابة مـــن الشباب الأهوج وأسمت نفسها ثورة ، وهى فى الحق عصابة نهبت المـــال والسلطان ، وأذلت الإنسان ثم انقضَّ بعض أعضائها على البعض الآخر دون هوادة ، كما فعلت هى مع الآخرين ، أما شئون البلاد فقد أهملت تماما ، للجهل من جانب وللتفرغ للأمور الذاتية من جانب آخر فوقفنا حيث كنا ثلاثين عاما أو عدنا إلى الوراء فى حين يسير العالم للأمام بخطى بطيئة أو سريعة ، ولنترك السـيـر فى هذا النطاق للمجلدين السابقين ، ولنعـــد لهدف هادئ ؟

الحـــكم بمصر قبل الثورة :

كانت مصر قبل الثورة تعانى من الاستعمار ومن ديكتاتورية الملك ، ومن حاشيته وأعوانه من أحزاب الأقلية الذين خلقهم ليستبد باسمهم ، فاكتفوا بظاهر الحـــكم وهو فتات المـــائدة ، وتركوا للسيد الرابض فى عابدين مطايب الفريســـة ، وقد كان الملك يحارب الدستور بإلغائه وخلق دستور مهلهل كما يريد ، ولكن الشعب كان يزأر : نريد دستور ١٩٢٣ ،

فخطر للملك خاطر سحرى أو اقترح عليه من زبانيته هـو أن يعيد دستور ١٩٢٣ ، على أن يكون حبراً على ورق فقط ، ووجد الملك فى هـذا الإقتراح بغيته ، فأبقى هذا الدستور بحيث يكون كتابا دون مجاول ، وكلمات لا معنى لها •

وكان الاستعمار يسيطر على الدولة سيطرة كاملة ، وله الكلمة النافذة ، وكان يدع الملك وأعوانه فى سباتهم ما داموا قانعين بالمظهر دون المخبر ، وكان الاستعمار يأخذ جانب الملك فى صراعه ضـد حـزب الوفد الذى كان يحظى بأغلبية ساحقة بين المواطنين ، ولكن الاستعمار كان يهمل الملك عندما تتأزم الأمور ويرى أن حاجته للاستقرار تحتم أن يترك الحـق لأصحابه ، فحينئذ فقط كان الاستعمار يرغم الملك على إجراء انتخابات حرة ، ومعنى حرية الانتخابات هو فوز حزب الأغلبية ، وكان من عـادة الاستعمار أن يتخلى عن هـذا الموقف بمجرد انتهاء الأزمة ، فخضـوع الملك وأعوانه للاستعمار مضمون ، وبخاصة أنهم مغتصبون للسلطة من ممثلى الشعب ، والمغتصب ضعيف الجانب دائماً •

تلك كانت سياسة الإنجليز ببلادنا ، وهى تتنافى مع سياستهم فى بلادهم ، فهناك لا تزوير فى الانتخابات ، وهناك الحرية الكاملة فى حـدود القانون لكل فرد ، ولكل حزب ، فاذا تخطى الإنجليز البحر ووصلوا إلى المستعمرات تغيرت أخلاقهم تماما • فلا عدالة ولا حرية ، وإنما مصلحة الإمبراطورية قبل كل شىء •

المهم أن حزب الوفد كان فى الحكم فى منتصف هذا القرن ، وقـد حقق أعمالا ضخمة كمجانية التعليم وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وتعيين جميع الذين كانوا يعملون مع الجيش الإنجليزى بقاعدتـه بالقنال ••• هـذا بالإضافة إلى بعض الإصلاحات الداخلية ، وبهذا زادت أقدام الوفـد رسوخا ، ولم يكن من السهل أن يقيلهم الملك ، ويأتى برجال من الأحزاب التى خلقها ليحكم باسمها ، فدبر الملك وأعوانه مأساة قاسية هى حرق مدينة القاهرة فى ٢٦ يناير سـنة ١٩٥٢ ، ولعبت أصابعه القذرة متضامنة

مع الإنجليز وأعداء البلاد فأشعلت النار فى عاصمتنا الحبيبة ، ورأى كاتب هذه السطور القاهرة وهى تحترق ، واشترك مع جمع من الشبان المخلصين فى إطفاء النيران وإيقاف الشغب ، ويشهد الله أن دموعنا عاشت معنا ونحن نطفىء اللهب ، وأن صرخاتنا هدأت من حماسة الغوغاء المخدوعين ، وكانت القاهرة تحترق ، والملك يرحب بكبار رجـال الجيش والبوليس فى مأدبة أقامها لهم فى القصر — حسابهم على الله — حتى لا ينقذوا العاصمة من الدمار ، وعلى حطام القاهرة أقال فاروق حكومة الأغلبية . لقـد كانوا يأكلون لذيذ الطعام والنار تأكل القاهرة ، يالهم من خونة .

ثورة أو تسلط :

وجاءت ثورة ٢٣ يوليو بعد هذه الأحداث وبعد فترة مريرة مـن الاضطراب والقلق ، فلا غرو أن أحسن الجميع استقبالها ، وأن اندفعت القلوب والنفوس ترحب بها لتكون نقطة انطلاق لهـذا البلد ، ولتزيل عنه كابوس الاحتلال وطغيان القصر ، ورجال الإقطاع الذين ورث الكثيرون منهم ثرواتهم عن أجداد خانوا الوطن ويسروا للاحتلال الإنجليزى طريقه ، ولتزيل أذناب الاستعمار ، ولتقيم جيشاً قوياً يضمن لنا السلامة أمام تحدى الصهاينة ، ولتقيم حياة ديمقراطية سليمة .

ولم يطل تساؤلنا حول هذه الثورة فإن البيان الأول لها كان يعبر عن كل ما فى نفوسنا وينطق بكل ما تتطلع لـه آمالنـا حين أعلن أن برنـامج الثورة هـو :

— القضاء على الاستعمار وأعوانه .
— القضاء على الإقطاع .
— القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .
— إقامة عدالة اجتماعية .
— إقامة جيش وطنى قوى .
— إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وأحسن الناس استقبال الثورة وفى طليعتهم رجال الجامعات ، ومضى أسبوع واحد على هذه الثورة ضمن لها كل الأمان ، فقد أيدها الشعب أعظم تأييد ، وأيدتها أمريكا ، ولم تستطع قوى الاستعمار البريطانى أن تواجه العاصفة فقبعت فى معسكراتها ، وطُرِد الملك ، وقبض عبد الناصر على كل عناصر الجيش الأقوياء ، وأصبح كل الزمام فى يد عبد الناصر ويد عبد الحكيم عامر صديقه الأول ، وحينئذ أسفر عبد الناصر عن اتجاهه الحقيقى وهو الاستبداد والانتهازية ، فأثار ذلك مخاوفنا وأحسسنا أننا نتردى إلى حكم الجيش ، ونبعد تماماً عن الديمقراطية والعدالة ، وعندما ينزل رجال الجيش إلى عالم السياسة يفشل الجيش وتفشل السياسة جميعاً [1] ، وتذكرنا ما حدث لمصر عندما حكمها الجيش فى عهد المماليك ، وتمثلت لنا معشر الجامعيين عملية القضاء على بطل من أبطال التاريخ المصرى هو السلطان قطز عقب عودته منتصراً من معركة تعد من أشهر معارك التاريخ وهى معركة مصر ضد التتار فى عين جالوت ، وقد بذل قطز فى هذه المعركة جهداً جباراً وحقق نصراً عظيماً وحمى الحضارة الإنسانية من فوضى المغول ، ولكنه لقى حتفه فى أثناء عودته على أيدى بعض منافسيه ، وألقى بجثمانه فى الفلاة ، وحصل مثل هذا لعلى بك الكبير الذى حقق ضد الأتراك انتصارات باهرة ثم قضى عليه بعض الطامعين ومثل هذا كثير فى التاريخ ، وكنا نحس صرخات قلوبنا بأننا لا نريد أن تُستعمل القوة فيما بيننا بعضنا والبعض الآخر ، لا نريد أن يكون بأسنا بيننا شديداً ، ونطمع أن توحّد القوة وتتجه نحو العدو الذى يدق أبواب ديارنا ويهددنا بالويل والثبور [2] .

وانتشر دوى هائل فى الجامعات يحمل هذه المعانى ، ويذكر أن الثورة التى قام بها الجيش ينبغى أن تكون من أجل مصر ، لا من أجل أفرادها .

---

(١) اقرأ تفاصيل ذلك فى الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف وهو الجزء الخاص بعهد عبد الناصر .

(٢) فى حديث للرئيس أنور السادات بمجلة الحوادث (اكتوبر ١٩٧٢) ذكر سيادته أنه بعد حرب ١٩٥٦ كان لابد أن يتحول الجيش الى مهمته الأساسية وهى القتال ، وأن يبتعد عن السياسة ، ولكن الجيش ذاق حلاوة السياسة ووظائف الوزراء والسفراء فتمسك بالترف .

صرخة ضـــد حكم الجيش :

وبهذه المعانى التى كانت شائعة فى الجامعة ألقيت بسنة ١٩٥٤ خطاباً فى القاعة الكبرى ، على جماهير الطلاب والأساتذة ، الذين كانون يموجون بهذه الأفكار ، وكانوا قد اجتمعوا للتشاور فى الأمر •

ربما تسالنى : لمـــاذا حملت أنا هذا العبء وغبّرت جهراً وبصوت عالٍ عما يجيش فى نفوس بعض الناس أو ما يتهامس به آخرون ؟

والإجابة على هذا تكمن فى الفصول السابقة التى دونتها عن رحلة حياتى ، فقد كنت فى مراحل متعددة خطيب الطلاب والمعبر عن أمانيهم ، كنت لسانهم الذى يفصح عما ينوون ويجهر بما يُسرّون ، فلا عجب أن أندفع كما كنت دائماً لأرفع الصوت الذى يدور بين أكثر الطلاب والأساتذة بالجامعة • وللحق أذكر أننى لم أكن وحدى هذه المرة ، فقد كان هناك زملاء حملوا معى هذا العبء ولاقوا نفس المصـــير •

وقد فتح علىّ هذا الخطاب أبواباً من المراقبة عرفتُ أخبارها فيما بعد ، فقد أحاطت بى العيون ، لتعدَّ حركاتى وأنفاسى ، فاتضح لهـــذه العيون بما لا يدع مجالاً للشك أننى لست عضواً فى أية جماعة ، وأن الكلمة التى ألقيتها كانت من وحىٍ نفسىٍ وبدافع وطنى خالص ، ولم تكن بوحى من أحـــد أو بإيعاز من أية هيئة ، وعرفت من بعض أصدقائى خبر هـــذه العيون أو المخابرات التى أجمعت على أنى أعيش بين البيت والكلية قليل الاتصالات ، وأن حياتى كلها وضوح وجلاء ، وكان من أثر ذلك أنه لم يُقْبَض علىّ فى جولات القبض التى نزلت ببعض الطوائف ، وبخاصة بالنسبة للاخوان المسلمين الذين كان جهدهم واسعا فى الحقل الإسلامى الذى أعمل فيه •

كلمة عن الاخــوان المسلمين :

وبهذه المناسبة أذكر أن صديقا ذكيا سألنى مرة : ألم تكن عضواً فى جماعة الإخوان المسلمين ؟

قلت : لا . قال : ألم تتشرف بذلك ؟ قلت : أبدا . قال : كيف لم تكن من الإخوان المسلمين مع أن كل دراستك وفكرك وجهدك كانت لخدمـــة الإسـلام ، وخــدمة المسلمين ؟

قلت : إن بعدى عن هذه الجماعة كان لأسباب هي :

أولا : بتناسب مـــع حياتى الاستقلالية التى لا تقبل أن تنماع فى الجماعة على النحــو الذي عرفته فى الإخوان المسلمين ، وقــد عرفت الأحزاب والتكتلات ، وأدركت ضرورتها ولكن كيان الفرد كان يبقى فى هذه الأحزاب مع بقاء كيان الجماعة ، بمعنى أننى وأنا وغدى كنت أشارك الإخوان المسلمين فى الدعــوة إلى الإسلام وشرح مبادئه وأخلاقه ، وأصفق لأى نجاح دينى يحرزونه ، وعرفت شباب المحافظين فى انجلترا يتعاونون فى مختلف الشئون الجامعية ويتجاوبون مع شباب حزب العمال ، وهكذا ، ولكن عضو الإخوان المسلمين كان لا يجــد نفسه غالباً ، وإنما كان صدى للجماعة ، ولا يرى فى الدنيا ســوى الإخوان المسلمين ، ويعتبر غيرهم فراغاً أو ضلالا ، لدرجـــة أن شبابهم قاطعونا وحسبوا أن الحديث مــع غير أبناء جماعتهم خروج عما يجب أن يكون ، قد يكون ذلك انحرافاً ، ولكن ذلك كان شائعاً على كل حال .

ثانيا : لأني صادفت عقب عودتى من أوربا شخصين أحدهما طالب فى كلية دار العلوم والثانى من أصحاب العضلات بالريف ، وكانا عضـــوين متحمسين من أعضاء هذه الجماعة ، ولكن حماستهما كانت جاهلة أو حادة ، فلم أقبل أن أنضم لشعبــة الكليـــة بسبب هـــذا ، ولا لشعبة الريف بسبب ذاك .

ثالثا : لم تدع لي الدراسات التي ارتبطت بها وقتاً لاجتماع ، أو فراغاً لمثل هذه العضوية .

وهكذا خلت قوائم الإخوان المسلمين من اسمي تماماً ، وليس ذلك شيئاً أفخر به ، ولكنه حقيقة أقررها ، ونحن نستنكر أعمال العنف التي نسب القيام بها للاخوان المسلمين ، والتي كانت صدى للتنظيم السري الذي أنشأته هذه الجماعة وما كان لها في تقديري أن تنشئه ولكننا نذكر بكل تأكيد أن هذه الجماعة لعبت دوراً إسلامياً رائعاً في حياة الصبيان والشباب والرجال ، وغرست أخلاق الإسلام في الملايين ، وجعلت الانتساب للاسلام مفخرة يعتز بها الكثيرون ، وربطت بين المسلمين في مختلف الانحاء ، وكونت من المسلمين قوة هائلة هزت غطرسة الاستعمار وقــوى الغرب وطلائع الصهيونية ، ودفعت إلى المكاتب والمصــانع والوظائف جماعات تعرف الله وتخافه ، وبالتالي تنتج بجــد وتعمل دون رقيب من الناس ، ولا تمتد لها الشبهات ، ولا يمسها الانحراف ، وكانت كلمة « من الإخوان المسلمين » طابعاً للتنزه عن الصغائر ، والبعد عن الرشــوة ، وعن الإهمال ، والحرص على أداء الواجب ، وحيثما رأيت الآن رجلاً يبرز به هذا الطابع فاعرف أنه غالباً كان منتسباً إلى هذه الجماعة .

لو سارت جماعة الإخوان المسلمين في طريقها الإسلامي وبعدت عن التنظيمات السرية التي ربطتها ببعض الجرائم لكان للمسلمين الآن شــأن آخر ، ولمــا استطاعت قوى الشر أن تنال من المسلمين أو تعتدي عليهم ، فكم من لســان أخرسته قوة هذه الجماعة ، وكم من عدو توارى خــوفاً من الإخوان المسلمين ، فلما اختفت هــذه الجماعة ظهرت أنياب الأعداء ، واخذت تهاجم المسلمين بشراسة ، وكانت هذه الأنياب من قبل كليلــة هزيلــة .

قرار مجلس قيادة الثورة بفصلي من الجامعة :

ومرت أيام أو شهور على خطابي الذي ألقيته بالقاعة الكبرى ، وجاء امتحان الدور الثاني بالكلية في سبتمبر سنة ١٩٥٤ وكنت عضواً في لجنــة

المراقبة ، وكنت أباشر أعمالى فى هـذا الامتحان بكلّ نشاط وحماسة ، أذرع فناء الكلية جيئةً وذهوباً بين لجان الامتحان عدة مرات يومياً ، وكان يطيب لبعض أساتذتنا أن يطلق علىّ « دينامو الكلية » تأكيداً للنشـاط الذى كنت أبذله فى مختلف الشئون العلمية والاجتماعية ، وبينما كنت أزاول هـذا النشاط كان هناك أمر قد دُبّر ، وقرارٌ قد صدر من مجلس قيادة الثورة بفصلى من الجامعة ، كان الكل يعرفونه إلاّ أنا ، فقد استقرّ رأيهم على أن يُرسل القرار للبيت فى نهاية اليوم ، كانت هناك نظـرات إشفاق ولكنى لم أتبينْها ، وخلجاتُ قلوب ولكنى لم أحسّ بها إلا بعد أن عرفت القرار ، حينئذ فقط أدركت لمـاذا كانت بعض العيون لاتريد أن تلتقى بعينى فى الصباح ، ولمـاذا كان بعض الرفاق يتحاشى الحديث معى خوفا من أن تمتد له الشبهة ، أما أنا فقد أمضيت صباح اليـوم الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٥٤ فى نشـاط وابتسام وأمل ، دون أن أعرف ما تخبئه الظروف .

وعدت إلى البيت بعد يوم حافل بالجـد والعمل ، وبعد قليل دقّ جرس الباب ، وسرعان ما استُدعيتُ لمقابلة « ساعى الكلية » وكان اسمه « فريج » وكان « فريج » يجىء إلى البيت من حين إلى حين ، وكان من عادته أن يتأنّى إذا جاء إلينا ، وربما كان من عادتنا أن نقدم لـه بعض الشراب أو الطعام إذا كان الوقت وقت طعام ، وأن ندسّ فى يده بعض النقود ، ولكنه هذه المرة كان متعجلا ، لم يَخْطُ إلى داخل البيت ، ولم يبتسم ، وطلب مقابلتى ، وما إنْ تقدمتُ منه حتى مدّ يده بخطاب مسجل و « بسركى » أوَقّعُ فيه بتسلم هـذا الخطاب وتمّ ذلك فى لحظات أسرع بعدها « فريج » فى الانسحاب ، وعيناه تسابقان قدميه ، وهـو يهبط درجات السـلم .

لقد كان هذا المظهر ينبىء بشىء ، ولذلك اختفيت فى حجرة مكتبى لأقرأ هذا الخطاب ، فوجدته يذكر أن مجلس قيادة الثورة قرّر فصلى مـن الجامعة ، وأن مجلس الجامعـة وافق على ذلك ، وأسرعت أخفى هـذا

الخطاب حتى لاتقع عليه عينٌ زوجتى أو أحدٌ من أهلى ريثما أهيىء أذهانهم لتلقى هذا الخبر ، وقد كانت مهمة ثقيلة أن أتطوز بأهلى وبرفاقى حتى لا أفاجئهم بهذا الخبر الحـاد العنيف ، وإن القارىء الآن قد لا يحس بجسامة هذا القرار ، لأن بعض أساتذة الجامعـة الآن ، ومدرسيها ، يستقيلون من الجامعة ، ويؤثرون العمل بالخارج ، ولكن هذا التصرف آنذاك لم يكن موجوداً ، فلم تكن الجامعات قد وجدت بعـد فى العالم العربى ولا كانت وسائل الإغراء موجودة ، بالإضافة إلى خطر المواجهة مع ثورة عسـكرية •

جهاد من أجـل لقمة العيش :

وجلستُ مع نفسى أتساءل : ماذا فعلت حتى أستحق هذا العقاب ؟ وأى خطأ فى أن أقول ماتراه الجماهير المثقفة خيراً للوطن ؟ ثم استبعدتُ هذه التساؤلات ورحت أواجه الحقيقة ، كيف سنعيش ؟ وما الوسيلـة للحصول على رغيف الخبز ؟ لقد كنت فى مطلع الحياة ، وكانت مدة خدمتى بالحكومـة قصيرة لا تتيح لى أن أحصل على معاش ، وحتى المكافأة التى أستحقها كان لابد أن تمضى شهور أو سنين لأنالها ، والمعدة لا ترحم ولا تنتظر ، والأهل والأطفال يتطلعون إلى الزاد ومطالب الحياة ، وانتهيت بسرعة من تهيئة النفوس لتلقى هذا الخبر ، وبدأت أفكر فى عمل لأنال منه الرزق ، وكانت مؤهلات العمل عندى موفورة ، فإننى أجيد تدريس اللغة العربية وآدابها ، وأجيد تدريس التاريخ الإسلامى والحضـارة الإسلامية ، وأجيد العمل فى الصحافة ودور النشر ، وأجيد اللغة الإنجليزية • وبدأتُ أدق الأبواب وأعرض نفسى ، ولكن راعنى أن الرعب كان يمـلأ نفوس الناس ، فليست هناك مؤسسة أو شركة أو مدرسة تقبل أن تفتح أبوابها لإنسان فصله مجلس قيادة الثورة ، فالجميع أجمعوا على أن هـذا نوعٌ من التحدى لا يطيقونه ، وحسبوا أنه ذنب لن يغفره لهم أعضـاء مجلس قيادة الثورة •

ومر الزمن متثاقلاً من جانب وسريعاً من جانب آخر ، فالمدخرات الخفيفة التي كانت في أيدينا قد نفدت ، والعمل في أي لون من ألوانه محرم ولا سبيل إليه ، والرفاق بدءوا ينكمشون عنا خوفاً من أن ينالهم شيء إذا قربوا منا ، فقد كان الذعر يصور للناس أن المفصول مغضوب عليه ، وأن التعاون معه قد يجر مزيداً من المصائب ، وأشهد أنني كنت أبتعد عن الكثيرين من الأصدقاء خوفاً عليهم ، فإذا كان الناس قد ضنوا علينا بأي لون من ألوان التعاون ، فإننا لا نستطيع أن نلومهم أو نعتب عليهم فقد كان شائعاً أن من يتحدى الثورة أو يقرب من المغضوب عليهم فإنه يتحتم أن ينتظر البطش الشديد .

وهكذا عرفنا شظف العيش أو قل عرفنا الجوع ، وكنت أمسك بقوة على أحاسيسي لأرسم على شفتي ابتسامة رضا أقابل بها الناس حتى لا يألم صديق أو يشمت عدو .

الشيوعية تحاول اجتذابي :

وهناك فخ بشري نُصب لي في هذا الوقت واختار هذا الفخ الوقت الملائم ليصيدني ، وقت الحاجة والجوع ، وقصة ذلك أنه كان هناك شاب تربطني به صلة العلم ، وكانت له اتجاهات يسارية ، وقد دبّر هذا الشاب لقاء معي ، وبعد حديث هنا وهناك عرف منه بعض ما أعاني انطلق يقول : إن الحزب الشيوعي يرحب بك ، ويرى فيك أملاً هائلاً ، ومستقبلاً كبيراً لك وللحزب ، والحزب مستعد أن يتعاون معك و ... ...

وكان هذا الحديث مفاجأة لي ، ومثار سخرية بهذا الشاب ، فقلت له إنني لم أكن شيوعياً يوماً ما ، ولن أكون شيوعياً قط ، إن الإيمان بالله عقيدة عميقة الجذور في نفسي ، والفكر الماركسي في ناحية العقيدة الدينية والاتجاه الاقتصادي فكر بعيد كل البعد عن مشاربي وعن روحي وعقلي ، وصرخت في هذا الشاب قائلاً : أتحسب أن ما أعاني من جهد يدفعني لأبيع نفسي ؟ هذا مستحيل ، وأضفت إليه قولي : إنني تربيت في جو أزهري ،

كنا أحيانا نأكل الفول ثلاث مرات فى اليوم ، وكانت الخشونة طابع حياتنا ، وإننى أستطيع أن أعـود لهـذه الحياة بسهولـة إن لم ينفتـح لى باب رزق كـريم .

وتراجع هذا الشاب . وكان هذا آخر العهـد به فى مضمار هـذا الاتجـاه .

ويح هذه الفخاخ التى طالما انتهزت الفرص لتنحرف بالناس من طريق إلى طريق ، وويح الظروف التى تضع الناس بحيث تلعب بهم الرياح وتجعلهم هدفاً للشباك والانحراف .

وفى دوامة المأساة ظهر شعاع من النور ، فقد أشيع خبر فصلنا من الجامعة ، وكنا ثمانية عشر عضواً من أعضاء هيئة التدريس من مختلف الثقافات ، وعرفت الدول العربية هـذا الخبر ، فأوفدت حكومـة العراق مندوباً عن جامعتها ليعرض حاجة الجامعة هناك إلى جميع هؤلاء الذين استغنت عنهم حكومة مصر ، وذكر هذا المندوب أن بالعراق جامعة وطلاباً وأنهم فى أمس الحاجة إلى الاساتذة من مختلف التخصصات ، وفرحنا بهذا الخبر واتصلنا بالاستاذ المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وكان يومها مستشاراً فنياً لوزارة التربية والتعليم فحمل سيادته — رحمه الله وأثابه — هذا الخبر إلى وزير التربية والتعليم وكان أحد ضباط الثورة واسمـه « جمال سالم » قائماً بعمل هـذه الوزارة آنذاك ، وأيد الاستاذ فريد أبو حديد هذا الرجاء وزكاه ، وسأله جمال سالم عن المرتبات التى ستصرف لنا فنقل له رأى حكومة العراق ، بأنها تعطى المعارين حوالى أربعة أمثال مرتباتهم فى القاهرة ، ولكن الرجل صاح فيه : هل كان فصلهم عقوبة أو مكافأة ؟ ورفض السماح لنا بالسفر . وخبا هذا الشعاع .

الصراع من أجل لقمة العيش ، ومعروف لا ينسى :

وفى أمسية من الأمسيات دق جرس التليفون فى الشقة المجاورة لنا — وكانت الاتصالات بنا آنذاك تتم عن طريق هذا التليفون — وكان المتحدث

هو الأستاذ نجيب القويسنى ، ولم أكن أعرفه ، ولا سمعت صوته من قبل ، وعرّفنى بنفسه ذاكراً لى أنه يشْرِف على بعض المدارس الأجنبية بالزمالك وأنه يدعونى للتدريس بها . فسألته : هل يأمن على نفسه أن يفتح لى هـذا الباب ؟ فأجاب أن لا شيء فى ذلك ، ورحّب بى وعيّن لى مَدرسة طلب منى أن أذهب لها فى اليوم التالى .

ما العلاقة التى كانت تربطنى بالأستاذ نجيب والتى دعته أن يتعرف على وسيلة للاتصال بى ، وأن يتصل بى ويهيىء لى وسيلة العيش ؟ هل هى الجانب الإنسانى ؟ ربما . ولكن العلاقة التى أحسها به هى معهدنا العظيم « دار العلوم » فكلانا نبت هذا المعهد وقد خلق هذا المعهد علاقات ود على البعد والقرب بين كثيرين من خريجيه . تحية لهذا المعهد وتحيـة عميقة للأستاذ نجيب على فضله المشكور .

وقد بت ليلة أتعجل الصباح لأهرع إلى هذه المدرسة ، ومع مطلع الشمس كنت أخطو نحوها ، ودلَفْتُ إلى فنائها مع تلاميذها المبكّرين ، وبعد قليل كنت فى حجرة المديرة الانجليزية ، ودار حديث بينى وبينها ، قدمت نفسى باسم « أحمد شلبى » بدون دكتور فمدرس اللغة العربيـة بمدرسـة إعدادية لا يمكن أن يكون دكتوراً ، وسألتنى عن الشهادة التى أحملها فاجبت « ليسانس كلية دار العلوم » و « دبلوم فى التربية » ولم أذكر ما زاد عن ذلك من شهادات ودرجات علمية فليس له ضرورة فى ذلك العمل ، وسألتنى عن خبرتى فى التدريس ، فأجبت بأنى عملت فى المدرسة النموذجية التابعة لمعهد التربية العالى للمعلمين « كلية التربية الآن » وكان هـذا كافياً لاتسلم عملى .

وبعـد أسبوع سألتنى المديرة عما اذا كان ممكنا أن أدرس التاريخ الإسلامى لتلاميذ الفرقة الثانية ، فابتسمت ابتسامة فيهـا سخرية من الزمن ، وأجبت بالإيجاب ، وفى جوانحى صرخة تقول : مدرس لا مـع (وآسف أن أقول هـذا) للتاريخ الإسـلامى بجامعة القاهرة يوضع فى مكان لا يُعْرَف فيه حتى يُسْأل عما إذا كان يستطيع أن يدرس التاريخ

الإسلامى للفرقة الثانية الإعدادية ، ولكن إجابتى بالإيجاب لم تضع جداً لتساؤلات المديرة ، فقد أضافت أن تدريس التاريخ الإسلامى يحتاج من المدرس أن يعرف بعض اللغة الانجليزية لأنها لغة التعليم فى هـذه المدرسة ، وإذا كان القانون يحتم أن يُدرَّس التاريخ الإسلامى باللغة العربية فإن اللغة الانجليزية وسيلة ضرورية لتيسير الأمر على الطلاب ، وطمأنتُ المديرة بأنى أعرف الانجليزية ، وأنه لا داعى لأن تقلق .

ومرتْ فترة أظهرت فيها كفاءة طيبة ، ونلت تقدير التلاميذ وإدارة المدرسة ، وجاء يوم مشهود كشف القناع الذى أسدلته على وجهى طيلة الفترة السابقة ، فإن مفتش اللغة العربية جاء فى دورته الأولى وسـأل فى حزم : هل استكملتم هيئة التدريس بالمدرسـة فى نطاق اللغة العربية والمواد القومية ؟ فتلقى الإجابة بالإيجاب ، وسأل عن المدرس الجـديد وضرورة أن يكون من حملة المؤهلات المناسبة ، فذكر له سكرتير المدرسـة أنه يحمل ليسانس دار العلوم ودبلوم التربية ، وسأل عن اسمه فذكروا له أن اسمه أحمد شلبى ؟ فانتقض الرجل وعاد يسأل : من ؟ دكتور أحمـد شلبى ؟ مستحيل : فقالوا له إنه ليس دكتوراً ، فسأل عن صفاته الجسمانية فتقلى إجابات محددة لاتدع شكاً فى أنه أنا : شعر رأسه أميل إلى البياض ، وعيناه خضراوان . وأضاف السكرتير : هل نحضره لسيادتك ؟ .

فقال المفتش : نحضره لى ؟ كيف ؟ أبداً ، وتسلل المفتش من المدرسة بعد أن أوصى بى كثيراً ، وذكر لهم شيئاً عن تاريخى ، ومنذ ذلك الحين نلت فى المدرسة مكاناً مرموقاً ، وصعد مرتبى إلى درجة طيبة ، تحية لهذا الزميل الكريم ، ودعاء أن يحسن الله جزاءه .

ولكن الفترة المريرة التى اجتزتها ، والتى عانيت فيها الجـوع أو ما يقرب منه ، جعلتنى أخاف الحياة ، وأعمل بجدٍ لأحصل على موارد أكثر من حاجتى ، لأدخر بعضها خوفاً من أن تتكرر المأساة ، ومن الأعمال التى زاولتها فى هذه الأثناء أن عملت بمدرسـة أخرى بالزمالك وحاولت تنظيم الجدولين حتى لا يحدث تضارب ، ولكن كان علىَّ أن أقطع المسافة بين

المدرستين جرياً على الأقدام أحيانا حتى تكفى الدقائق الخمسة بين الحصتين لأنتقل من مدرسة إلى مدرسة ، ولم يكن ينقذنى من الجرى إلا أن أجد سيارة (تاكسى) لتنقلنى هذه المسافة ولم يكن ذلك شيئاً ميسوراً فى الغالب لأن الشوارع خلفية لاتوجد بها (تاكسيات) وعلى هذا شهدتنى هذه الشوارع أجرى من حين إلى حين وبخاصة إذا خلت هذه الشوارع من الناس وكثيرا ما كانت خالية .

العمل بالصحافة :

ومن الأعمال التى مارستها فى هذه الأثناء العمل بالصحافة ، فإن الزمن الذى مضى منذ فصلنا من الجامعة برهن لولاة الأمور على أن العمل والإنتاج هدفى ، ولست مصدر خطر من قريب أو من بعيد فسمح لى بالعمل بعد أن كنت أزاول العمل بالمدارس السابقة من طريق خفى ، وحينئذ تقدمت لصحيفة الأهرام فضمتنى إلى محرريها ، وأمضيت بها فترة خصبة استفدت خلالها وأفدت كثيراً من الفكر والتجارب ، ومن الممكن أن أكتب كثيراً عن تجربتى بالصحافة ، وهى تجربة متشعبة تتصل بالمهنة فى ذاتها ، وتتصل بالأشخاص الذين يزاولون هذه المهنة ، وبالسلطات التى تتولى الرقابة عليها ، ومع مافى ذاكرتى ومذكراتى من مخزون حول الصحافة فإنى لا أستطيع أن أنطلق متحدثاً عنها لعدة أسباب ، وقد سبق أن ذكرنا فى منهاج هذا الكتاب أنه ليس كل ما يعرف يقال .

العمل بالمؤتمر الإسلامى وظروفه وتجاربه :

ومن الأعمال التى مارستها فى هذه الأزناء العمل بالمؤتمر الإسلامى، وقد كان أنور السادات يشغل منصب السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى فى أثناء تلك الفترة التى التحقت خلالها بالمؤتمر ، وموضوع التحاقى بالمؤتمر الإسلامى موضوع له جذور قديمة ، فلنبدأ فى تصويرها :

كنت بمعهد الزقازيق فى الثلاثينات من هذا القرن ، وكنت فى آخر هذا العقد أقود الطلاب بالشرقية فى الحركات الوطنية التى كانت تموج بها البلاد آنذاك وكان صوتى — خطيباً وشاعراً — معروفاً فى الزقازيق ،

وكان بمدرسة الزقازيق الثانوية طالب يحب الأدب والشعر ، وتمـوج نفسه بالوطنية الصادقة ، فالتقينا فى هذا المضمار التقاءً يمكن أن نصفه بأنه من جانب واحـد ، فقد سمعنى هذا الطالب وأعجب بى ، ولم يتَحْ لي أن أعرفه ، ومرت السنوات ، وعندما فصلت من الجامعة كان هـذا الطالب قد وصل ثقافياً واجتماعيا إلى مكانة عالية ، ومنصب مرموق ، وأصبح يحظى بثقة قادة الثورة ويستمتع بمكانة مهمة عند أولى الأمـر ، وعرف هذا الإنسان العظيم خبر فصلى بعد فترة فاستدعانى للقائه ولأول مرة بعد الفصل رأيتنى فى حضرة مسئول كبير يبتسم وينبع الجانب الإنسانى من كل جوانبه ، وأخـذ يهدّئ من روعي ، وقد أدهشه ثباتي وإيمانى ، وسألنى عما يمكن أن يفعله لى وظهر اهتمامه بى اهتماما فاق كل تصورى ، حتى اضطررت أن أساله : ما مصدر كل هذا الاهتمام بى فى وقت انصرف عنا كل الناس ؟ وأبان لى الرجل الصلة القديمة التى ربطتنا بالزقازيق ، والتى دعته ليتعرف على اتجاهات حياتى وأنا بالجامعة ، فلم يجد فيها ما يستدعى ما نزل بى من عناء .

وسألنى بعد ذلك عن المؤسسات شبه الحكومية التى تتناسب مـع ثقافتى ، فقفز اسم « المؤتمر الإسلامى » وبعد بعض اتصالات حـدّد موعداً يصحبنى فيه بنفسه لمقابلة السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى،وركبت معه سيارته ، وبعد قليل كنا فى مكتب الأستاذ أنور السادات وأحسست أننى فى حضرة أخوين حبيبين ، كـان أحـدهما يقدّمنى برفق والثانى يتلقانى بعطف وحنان ، وتركنى المرحوم الأستاذ محمد فهمى السيد فى كنف كريم ، وعـــاد .

يارب ، لقد حلّ هذا الإنسان العظيم فى رحابك فجازه عنى خـير الجزاء ، فإننى لا أملك إلا الدعاء العميق أن تجْزِل ثوابه ، وتكرم مثواه ، وهأنذا أسجل فضله وادعو له من أعماقى ، وذلك كل ما أستطيعه تجاهله ، على أنى إذا فعلت الخـيروساعدت المحتاج هنا أوهناك فإنى أقضي دينى بطريق غير مباشر ، فالإنسانية وحـدة واجدة ، واعتقادى أن إنسانا ما لو احسن لك ولم يكن فى حولك أن تجازيه كان عليك أن تحسن للآخرين دون

تتوقع اى جزاء منهم وهكذا دواليك ، حتى ينتشر الخير ويذيع ، ومصدره إنسان غرس بذرة طيبة فاينعت وازهرت وعم نفعها •

وفى المؤتمر الإسلامى أمضيت فترة حافلة بالخبرات والتجارب ، فقد وجدتنى أعمل غير بعيد عن رجال الصف الأول من قادة الثورة ، وجنباً إلى جنب مع رجال الصف الثانى ، وقد رأيت العجب العجاب من هؤلاء وأولئك خلال هذه الفترة •

ماذا رأيت ؟

فى الإجابة من هذا السؤال أعود قليلا إلى الوراء لأقرر أن معرفتى بالأحزاب السياسية كانت تفيد أن الحزب يتكوّن من قوة متماسكة متعاونة قد يجدّ خلاف فى داخلها ولكن سرعان ما يزول هذا الخلاف بازالة أسبابه والعودة للتماسك ، أو — عند الضرورة — ببتْر المجموعة المتمردة ليعود التماسك والتعاون إلى جماعة الحزب ورجاله ، ولكن الحال بالنسبة لرجال الجيش الحاكمين كان غير ذلك ، كان صراعا شديد الشطط وكان مراكز متعددة لايربطها رابط ، وكانت هذه المراكز متجافية ، يكره بعضها بعضاً ، ويحقد بعضها على بعض ويتمنى كل فريق للفريق الآخر كل جوانب الوبال والفشل ، أرأيت ما حدث فيما بعد من تصرفات عبد الناصر ضد صلاح سالم والبغدادى ومن اعتقاله لكمال الدين حسين •• وأرأيت ما فعله السادات ضد كمال الدين حسين وذويه وضد حسين الشافعى ••• ؟ وأرأيت الوجوه التى اختفت والوجوه التى برزت فى الساحة بعد ذلك ؟ كل ذلك كانت له نذر شاهدتها فى الفترة الأولى من فترات ما يسمى الثورة ، ومع هذا فلن نقف هنا لنسرد أى شىء من الحشد الزاخر الذى امتلأت به الذاكرة من أحداث هذه الفترة ، وقد أوردت الكثير من ذلك فى الجزء التاسع والعاشر من موسوعة التاريخ الإسلامى •

وهكذا أمضيت عاماً حافلا بالأشواك والورود عاماً عرفت فيه الجوع وعرفت الخير ، عاما تكشفت لى أحداث ما كان أحوجنى للتعرف عليها ،

عاما عملت فيه مدرساً وصحفياً وموظفا بارزاً بالمؤتمر الإسلامى فى وقت واحـد عاما كنت أخرج خلاله من المنزل فى السابعة صباحا ولا أعود إلا فى الواحدة صباحا ، وكنت أتنـاول وجبات الطعام كلها بالخارج ، ولا أرى أولادى إلا وهم نائمون ، ومع شوقى لمداعبتهم كنت أحس أن حرمانهم من هذه المداعبة أهون من حرمانهم من الطعام ، ذلك الذى عرفوه فى الفترة الأولى من هذا العام .

وقد ماتت والدتى ــ رحمها الله وأسبغ عليها رضوانه ــ فى هذا العام ولم أستطع أن أكون بجانبها فى لحظاتها الأخيرة ولا أن أطيل بقائى بالريف لأتلقى عزاء المعزين ، فقـد كانت الأعمال تبتلع وقتى كله ، وقد قبلت هذا آنذاك خوفا من مرارة الجوع والحرمان الذى امتد لهذه السيدة التى كانت قبل ذلك تعيش فى رفاهية وفيرة وخير عميم ، ولكنها على كل حال اقتسمت معنا رخاء العيش الذى جلبه هذا الكد المتواصل عندما سمح لنا بالعمل .

لقد كان فصلى من الجامعة عملا شاقا وقاسيا ، ولكنه فتح أمامى آفاقا عظيمة ، ونقل فكرى من طور إلى طور ، وحياتى من مكان إلى مكان ، وقد جاء الخير من الشر ، ولذلك تجدنى أتساءل دائما : ماذا لو لم أفصل ، والحق أننى لو لم أفصل لظلت حياتى « روتينا » هادئا ، واستمرت تسير فى تيار واحـد ، لقد شقيت بالفصل حينا ، ولكنه بعد ذلك كان أسـاس حياتى ومصدر جاهى ، لقد أثرى تجاربى وفتح لى منافذ ما كانت تفتح لو لم يكن هذا الضباب ، وقد تعرفنا على بعض المنافذ فيما سردنا مـن أحاديث وسنرى مزيدا منها فى حديثنا عن اندونيسيا الـذى آن الأوان لنبـدأ فيـه .

* * *

في إندونيسيا

مطلع العلاقة بأندونيسيا :

صارعت إندونيسيا من أجل استقلالها صراعا طويلا ، وقدمت تضحيات غالية لتحصل على هذا الاستقلال ، وقد دام هذا الصراع فترة طويلة وكان الأبطال المسلمون يقودون هذا الصراع [1] ولهذا ما إن تم الاستقلال حتى اتجهت البلاد لإنشاء معاهد وجامعات اسلامية لرفع مستوى الفكر الإسلامى لدى السكان الذين كان الاستعمار يحول دون أن ينيلهم هذه الغاية •

وفى الشهور الأخيرة من سنة ١٩٥٣ حضر الى القاهرة زعيم مسلم وكان فى الوقت نفسه يمثل الحكومة الاندونيسية وهو بروفسور سوناريو واتصل بجامعة القاهرة ليحصل على أستاذ لدراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بالجامعة الحكومية الإسلامية التى كانت قد ظهرت للوجود حديثا ، وبعد مناقشات ومشاورات استقر الرأى على أن أعار إلى إندونيسيا لهذا الغرض ، وصدر قرار كلية دار العلوم وجامعة القاهرة بذلك ، وسافر بروفسور سوناريو الى بلاده ليستصدر قرارا بذلك من رئيس الجمهورية ، وصدر هذا القرار فى مطلع عام ١٩٥٤ ومرت الأيام ووصل القرار القاهرة فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ ولكن بعد فصلى من الجامعة ، فلم يكن هناك من سبيل لتنفيذه ، وبقى معطلا •

السجان يطلق السجين خطأ :

ومرت الأيام والشهور ، وقد خبا الأمل فى السفر لاندونيسيا ، فقد كان سفر المفصولين ممنوعا ، وكان دستور الثورة الذى ذكرناه من قبل هو التنكيل بالمعارضين وليس فتح الفرص أمامهم •

(١) شرحنا تاريخ اندونيسيا ومراحل صراعها ضد الاستعمار فى الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى •

وجاء مؤتمر باندونج فى ابريل سنة ١٩٥٥ وهناك التقى وفد من علماء اندونيسيا برئيس الثورة جمال عبد الناصر ، وبعد التحية والترحيب قال مندوب من الوفد للرئيس : يا سيادة الرئيس أنت زعيم كبير ، ومصر كعبة آمال العالم الإسلامى ، وقد طلبنا من القاهرة العظيمة عالما مصريا هو الدكتور أحمد شلبى ليساعدنا فى انشاء الجامعة الإسلامية وإعداد مناهجها والمساعدة فى اختيار هيئة التدريس بها وطريقة اختيار الطلاب واعداد المكتبة وغير ذلك من الأمور ولم يصلنا الدكتور شلبى حتى الآن والعمل بالجامعة يحتاجه ، وقد طلبناه من مطلع العام الدراسى وأوشك العام على الانتهاء ولكنه لم يحضر . نرجو ياسيادة الرئيس أن تذلل العقبات لذلك ....

وتحمس الرئيس وقال : كيف كان ذلك ؟ سيصل لكم هذا الأستاذ فورا ، وأمر السفير المصرى بالابراق بذلك للقاهرة لتُرسل الدكتور أحمد شلبى دون تأخير .

وفى يوم من الأيام وجدت الشرطة تبحث عنى فى كل مكان وقد تركوا فى مسكنى خبرا بالاتصال بهم فورا ، فاستعذت بالله منهم ، فقد كان لقاؤهم يحمل دائما أقسى الأخبار وينذر بالسوء ، ولكنى لم أستطع التأخير فاستسلمت وذهبت لهم فأحسنوا استقبالى على غير ما كنت أتوقع ؟ وأخبرونى بضرورة سفرى فى الحال الى اندونيسيا فذلك أمر الرئيس الذى لا يناقش ، وأسرعت بالسفر ، لقد كان السفر بالنسبة لى خروجا من العقال والقلق .

لم يكن جمال عبد الناصر يتذكر عندما أرسل يطلب سفرى أننى من المفصولين ، ولذلك عندما عاد وعرف ذلك اشتد غيظه ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان .

وبدأت برحلتى لإندونيسيا مرحلة جديدة مهمة فى رحلة حياتى ستكون موضوع دراستنا فى الصفحات التالية .

مسقط الرأس :

يتحدث كثير من الناس عن « مسقط الرأس » وعن حنين الإنسان إليه وإلفه له ، ولكن ما المدلول الحقيقي لهذا التعبير ؟ هل هو الحي أو القرية حيث وُلِد الإنسان ؟ أو المكان الذى نشأ به ؟ أو الوطن الذى ينتمى إليه ؟

لست أستطيع أن أوافق على أن رباطاً عميقاً يربط الإنسان بالحى الذى ولد فيه ، وكثيرون من الأبناء يولدون فى أحياء بالقاهرة ثم ينتقل ذووهم إلى أحياء أخرى ، وتنقطع الصلة تماماً بين الأولاد والحى الأول ولا يبدو منهم أى حنين إليه ، وقد ولد بعض أولادى فى شبرا ، ثم انتقلنا منها إلى المعادى ، وليس من أولادى من يتطلع إلى شبرا أو يذكرها بأى حنين ، ومثل هذا كثير هنا وهناك .

وقد نشأتُ أنا كما نشأ كثير من أترابنا بالريف ، وأمضينا به أكثر من عشرين عاما ، ثم انتقلنا إلى القاهرة ، وارتبطت بها حياتنا فلم يعد الريف لنا إلا أهلا نزورهم من حين إلى حين ، ونسرع بعد الزيارة للقاهرة حيث أصبحت القاهرة لنا كلّ شىء ، ولولا بعض المصالح فى الريف ، ولولا وجود الأهل لا نقطعت بالريف السبل كما حدث للكثيرين الذين لم يعودوا يذكرون « مسقط الرأس » بالريف إلا كما تذكر الأحلام ، ومثل هذا يقال فى أبناء الموظفين الذين ينتقلون من مدينة إلى مدينة مع آباءهم ويتكون فى كل مدينة تركوها ملاعب وأصدقاء سرعان ما ينسونهم ويندمجون فى المقر الجديد .

هل « مسقط الرأس » هو الوطن الذى ينتمى إليه الإنسان ، إن ظروف الحياة الجديدة توشك أن تجيب بالسلب على هذا السؤال ، فالهجرة لا تنقطع من بلاد إلى بلاد ، وقد امتلأت أمريكا اللاتينية وكندا واستراليا بالوافدين من هنا وهناك ، وأقام هؤلاء الوافدون لهم بالأرض الجديدة ديارا وأوطانا نسوا من أجلها كل شىء ، وقد كنت بالسودان ، ورأيت هناك زملاء من الذين يعملون بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، ولهؤلاء

أولاد وُلدوا بالقاهرة ثم انتقلوا مع ذويهم إلى السودان وهناك تواءموا مع الجو الجديد فأصبح هذا الجو لهم كل شيء ، حتى أنهم كانوا يحسون بالغربة عندما يعودون للقاهرة لقضاء أشهر الصيف .

وقد تقول لي إن المهاجرين يحسّون بالوحشة وقد يعودون إلى مواطنهم ، وأقول إن الوحشة مصدرها فراغ في الناس لا في المكان ، فراغ في اللغة والدين والعادات والأخلاق والأصدقاء ، فإذا تغلب الإنسان على هذه الظواهر ، وعرف مَنْ حوله وعاداتهم وأخلاقهم وكوّن له منهم أصدقاء فإنه يستقر بالمكان الجديد ويرسّي فيه أوتاده .

وعلى كل حال فاعتقادي أن الوطنية شعور طبيعي عند كل إنسان وأن الجيل الذي ينتقل من وطن إلى وطن يظل على علاقته بالوطنين ففي أحدهما جذوره وفي الثاني فروعه ، ثم يصبح الوطن الجديد وطن أولاده ، وإن بقيت جذورهم مرتبطة بأرض الأجداد نوعا من الارتباط يزيد أو ينقص تبعا للذكريات .

وقد سافرت إلى إندونيسيا موظفا لا مهاجرا بطبيعة الحال ، ولكنني لم أكن في حالة طبيعية كتلك التي يكون عليها أغلب الموظفين عندما يعارون للعمل بالخارج ، لقد عانيت في العام الذي سبق السفر نوعا من الحرمان ، وعانيت القلق والخوف ، ثم وجدت بإندونيسيا فيضا من الخير وظلّ الأمن والاطمئنان ، فأقبلتُ على إندونيسيا وتعلّمت لغتها ، ووثّقت بالناس ارتباطي،واستسلمت للحياة بإندونيسيا أمدا كنت لا أعرف مداه فأصبحت إندونيسيا وطناً ثانياً لي ، وكانت معي ثروة فكرية لابأس بها ، وكانت إندونيسيا في حاجة لما عندي ، فوجد كل منا حاجته عند الآخر فتعلق به ، وأخذ منه وأعطى ، ولولا أن فلذات قلبي ، ولولا أن أهلي وولدي كانوا بمصر لأمكن أن يطول بإندونيسيا مقامي أكثر مما طال ، تحية من الأعماق للأرض الخضراء ولأهلها الذين طابت حياتي في رحابهم والذين أذكر لهم أياديهم السابغة ، وإقبالهم الفريد عليّ ، وحرصهم الزائد على تيسير حياتي .

الرحلـــة :

سافرت إلى إندونيسيا فى يوليو سنة ١٩٥٥ ولم أكن أعرف آنذاك مدى الإعارة ولا شروطها ، وإنما أسلمت نفسى للمجهول وتوكلت على الله ، فقد كان السفر فراراً من القلق الذى كان يساورنى من حين الى آخـر وبخاصـــة عندما كانت موجات الاعتقالات تتوالى ، ويتهامس الناس عن التعذيب الذى يعانيه المعتقلون .

وقـــد اصطحبت فى الطائرة بعض الكتيبات التى تعطى لمحات عن إندونيسيا وتاريخها وشعبها لأتعرف على النـــاس الـــذين سأعاشرهم ، واصطحبت كذلك قائمة بها أسماء عدد من الإندونيسيين الذين تعلموا فى كلية دار العلوم وفى الأزهر أو الذين ذاع صيتهم فى المحيط الإســـلامى لأحفظ أسماءهم تمهيدا للتعرف عليهم والتعاون معهم ، وكان فى القائمـــة هذه الأسماء الوضاءة ، الأساتذة :

محمد عدنان — عبد القهار مذكر — طه يحى — محمد سالم فخرى — طاهر عبد المجيد — قهر الدين يونس — عبد المعطى على — مختار يحى — محمد رشيدى — فريد معروف — محمود يونس — بسطامى عبد الغنى — همكا — محمد حسبى الصديقى — محمد نور عاشق ، وكثيرون سواهم .

وكان معى كذلك قاموس (عربى — إندونيسى) وكتاب لتعليم اللغة الإندونيسية ، واستغرقت الرحلة يومين أحسست فى آخرهما — ونحن ندق أجـــواء هذه البلاد لندخلها — أننى أعرف شيئا عـــن القطـــر الذى سأخطو به .

الاستقبال والأيام الأولى فى العاصمة السياسية :

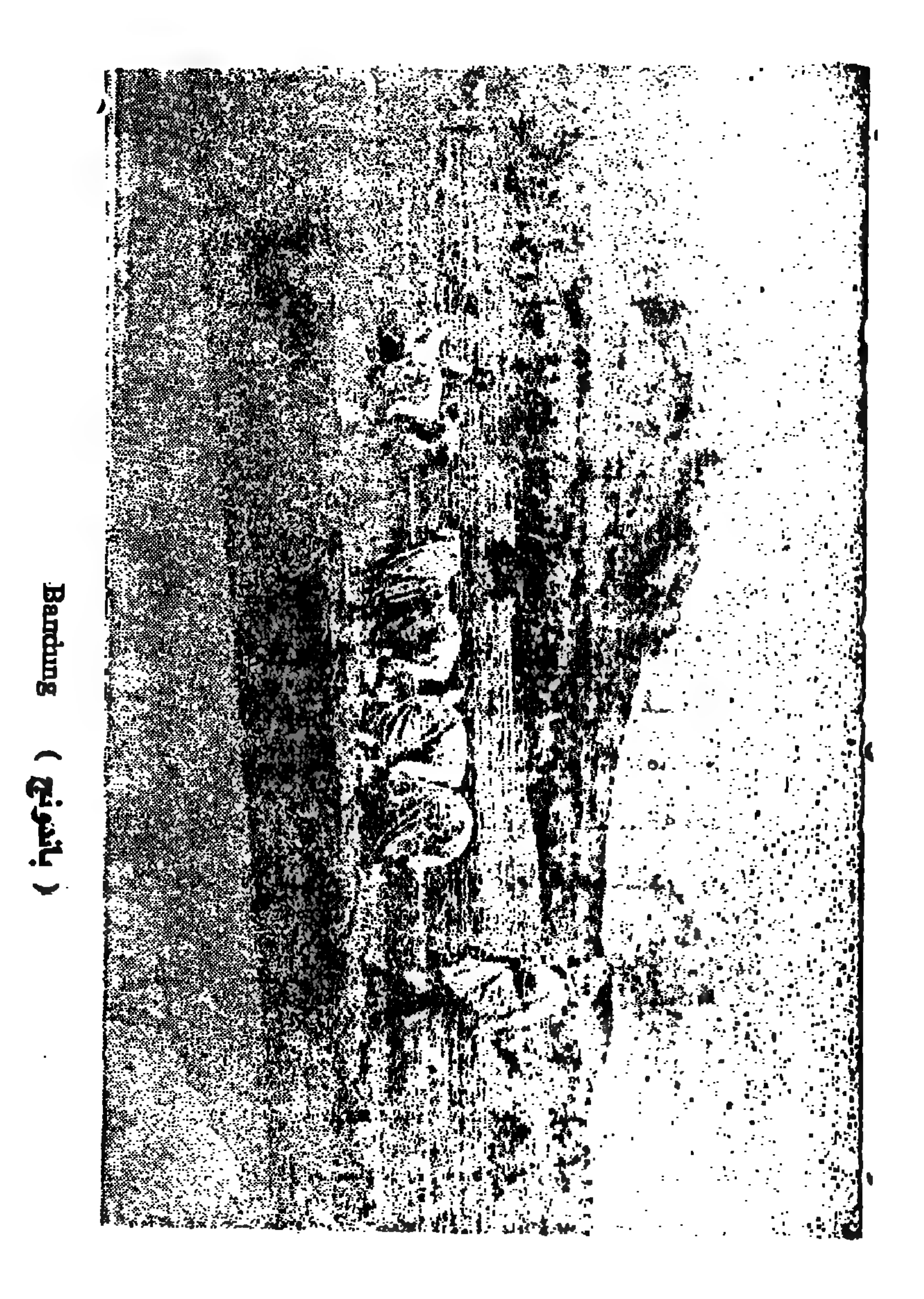
نزلت الطائرة فى مطار جاكرتا ، وسرعان ما تقدم وفـــد من الناس لاستقبالى استقبالا حافلا لم يخطر لى ببال ، وأحاط بى الوفـــد من كل

جانب ، لم أكن بينهم « أحمد شلبى » وإنما كنت مصر ، ومصر وقفت مواقف مشرفة فى التعاون مع إندونيسيا إبان نضالها فى الأربعينات . وكان مبعوث وزارة الخارجية المصرية أول مبعوث رسمى يدخل البلاد . ويعلن اعتراف مصر باستقلال إندونيسيا ، وكانت وكالات الأنبـاء تحمل للإندونيسيين مشاعر الود والتأييد التى أظهرها المصريون خلال هـذه المحنة ...... ورأيتنى أتلقى الجزاء عن موقف مصر المشرف ، فزادنى هـذا حبا لبلادى ، وإجلالا لها ، وفى قاعة كبار الزوار جلسنا وقدمت لنا بعض المشروبات ، ثم تحدث بعض المستقبلين فرحبوا بى ، وأعلنوا فرحتهم بقدومى ، ووقفت أشكر وأثنى ، ولم أعبأ بقطرات من الدمع اندفعت من عينى نتيجة مزيج من الفرح والرهبة ، وذكرت أننى أحمل للإخوة المسلمين بإندونيسيا أجمل التحيات والأمنيات من إخوانهم هناك بوادى النيـل ، وأعلنت أننى أضع كل جهدى فى مجالات الفكر لخدمة هذا الشعب الحبيب ، وكانت كلمتى باللغـة العربية والإنجليزية ، ولم أنس أن أستعمل بعض الكلمات الإندونيسية تقربا منهم ، وقد صفقوا لذلك تصفيقا حارا ، ووعدتهم بأنها ستكون لغتى الثانية بعد وقت ليس بالطويل ، وقد بررت بهذا الوعد .

أمضيت فى جاكرتا أسبوعا فى أكرم ضيافة ، وحضر لزيارتى بالفندق الكبير الذى نزلت به كبار المفكرين المسلمين من مختلف المناطق ، ومن هذا الفندق أرسلت بضع مقالات لجريدة الأهرام فنشرت وأثارت صدى طيبا فى مصر وإندونيسيا ، وأحسست أننى همزة وصل ، وعقدت العزم على عمل كبير ، والتقيت بوزير الشئون الدينية فأحسست من حديثه مدى الاهتمام الذى يعلق على شخصى ، فاتجهت إلى الله أطلب عونه حتى أملأ هذا الفراغ الواسع .

جمال الطبيعة :

وخلال إقامتى بجاكرتا نظمت لى وزارة الشـئون الدينية رحلات وزيارات إلى المدن والمناطق المحيطة بالعاصمة ، وعينت لى مرافقا هـو الأستاذ محمد نور عاشق ومن هذه المدن مدينة باندونج الخالدة وبوجر



(باندونج) Bandung

المدينة الخلابة الساحرة ، وقد أدركت من هذه الرحلات أن إندونيسيا جنة خضراء ، ربيعها دائم ، وجمالها شامل ، ومناظرها فاتنة ، وما إن تتعلق بمنظر وتشدك إليه مفاتنه حتى يجذبك منظر آخر ينافس الأول فى الجمال أو يفوقه ، المزارع ، القرى ، المدن ، الطرق ، كلها نعيم ونظافة وجمال ، ولست ترى القرية من بعد ، ولكن يمكنك أن تتعرف على القرية عندما ترى أشجارا باسقة ، فذلك دليل على أن هذه الأشجار تخفى بينها بيوت الفلاحين ، وإذا امتدت خطاك إلى جبل من الجبال التى تكثر فى إندونيسيا فسترى مالا يخطر لك ببال فليس فى الجبل شبر واحد لم تنبثق به الخضرة ، والجبل عبارة عن غابة كثيفة بها مختلف الأشجار . ومختلف الطيور ، ومساقط المياه ، وكل ما يخطر بالبال من الزهر والألوان . وفى الغابة يختلط حفيف الأشجار بزقزقة الطيور ، وخرير المياه ، فتحس أنك فى عالم غير ماتعودت من العوالم ، وكنا نقرأ فى الأدب العربى معنى أجمة بأنها الشجر الملتف الذى لا يدع طريقا للسير ، وقد رأيت الأجمات فى إندونيسيا ووقفت أمامها مبهورا ، ولم أستطع أن أمد قدمى خطوة واحدة فى غير الطرق الممهدة لأن التفاف الحشائش المتسلقة على الأشجار يضع حاجزا ضخما أمام الإنسان ، على أن الغابة مصدر رزق الكثيرين ممن تعودوا أن يقتحموها ، وممن تعرفوا مسالكها ، فإليها يفد جموع من الناس فى الصباح بعضهم مناضل يصيد الحيوانات ويأخذ جلودها الغالية ، وبعضهم مغامر يصيد الثعابين التى تصل أطوالها إلى عشرة أمتار أو تزيد ، وبعضهم عامل يجمع الخيزران ، وبعضهم يجمع الفاكهة ، وبعضهم قانع يكتفى بقطع الأشجار وحمل الأخشاب ، ويعود هؤلاء جميعا بعد ساعات وكل منهم يحمل مما قصد إليه ، وتبيت الغابة فى صمت حتى ساعات الصبح .

مناظر الغابة ومابها من ألوان وأصوات وحيوانات جعلت الطبيعة الإندونيسية غنية بألوان الفنون من موسيقى ورقص وغناء ورسم وتصوير ، وانعكست الطبيعة على الإندونيسى فجعلته فنانا ، وأشاعت فى



Padang Pandjang

(عاصمة سومطرة الوسطى)

الدور والمجتمعات أفانين من الموسيقى والرقص وغيرهما من الفنون الجميلة .

وجبال إندونيسيا شامخة بارتفاعاتها شموخها بمناظرها ، وفى بعضها تتمثل فصول السنة كلها فى وقت واحد ، فإذا ضايقك الحر فى سفح الجبل فاصعده تجد الجو يتغير مع صعودك فتنتقل من الصيف إلى الربيع ، فإذا استمررت فى الصعود قابلك زمهرير الشتاء ، واحتجت إلى الدفء والنيران .

والشعب الإندونيسى شعب سمح ذكى لا تعقيد فيه ، وهو مؤمن عميق الإيمان ، فكل ما فى إندونيسيا يدعو إلى الإيمان وينطق بعظمة الخالق . وابتسامة الرجل الإندونيسى تعلو شفتيه دائما ، وهو بهذه الإبتسامة يحتقر الصعوبات ويتغلب عليها .

تلك لمحة سريعة عن الأرض التى نزلت بها ، وعن الشعب الذى بدأت أتعامل معه .

فى العاصمة الفكرية :

وبعد أن أمضيت أسبوعا فى العاصمة السياسية انتقلت إلى جوكجاكرتا المدينة الجامعية التى بها الجماعة الإسلامية ، وبها كذلك جامعة أخرى مدنية اسمها جامعة « كاجامادا » وكانت رحلتنا بالقطار . وقد استغرقت الرحلة حوالى عشر ساعات ، وكانت الأرض على طول الطريق سندساً أخضر ومناظر بهيجة .

وفى جوكجاكرتا كان فى استقبالى جموع من الأساتذة والطلاب . وكانت فرحتهم بى شاملة ، وتحياتهم لى عميقة ، وسار الركب بنا إلى أكبر فنادق المدينة وأنزلونى به ريثما يتم إعداد المنزل الخاص بى ، وقد ضاق الفندق بالوفود التى حضرت لتحيتى حتى تعجلت الانتقال للمنزل ، فقد



فتيـات وطقـوس

أحسست من عمق الحفاوة أمل الجماهير الذى انعقد على شخصى فى مجال الدراسات الإسلامية ، وكان لابدّ من الاستقرار بالمنزل لأبدأ نشاطى •

وفى حىّ جميل من أحياء جوكجا حططت رحالى فى منزل بديع بشارع Sagan رقم ٢٠ وفى هذا المنزل كتبت العديد من أبحاثى وكتبى ، واختلط هواؤه بدمى ، ومنه خرجت حاملا فكرى ، ولذلك ترانى أحنّ إليه ، وأحلم به ، وتهفو روحى من حين إلى حين فى آفاقه •

وفى جوكجا صحافة يومية ، ومجلات سياسية وعلمية ، وقـد بدأ ممثلوها يلتقون بى ، ويأخذون منى الأحاديث عن الفكر الإسلامى وعن خطتى للعمل بإندونيسيا ، فبدأ اسمى يطير مع الصحف ومع الإذاعة وكنت أحس بالثقل الكبير الذى يزنوننى به فأبذل الجهـد لأواجه هـذا الأمل بما يستحقه من كدح •

ومن هذا المقرّ الجـديد بدأت نشاطى ، وبـدأت حياتى العلمية والاجتماعية طيلة ست سنوات ، وسنعيش فى الصفحات التالية مع نواحى هذه الحياة :

اللغة الإندونيسية :

لعل اللغـة كانت الشغل الشـاغل الـذى قابلنى فى مطلع حياتى بإندونيسيا ، فقد كان معى زاد لا بأس به فى مجال الدراسات الإسلامية والعربية ، فلم يساورنى قلق فى هذا المجال ، وكنت أعتقد أن ذلك يكفى لأداء عملى ، بيـد أن إقبال الجمـاهير الإندونيسية علىّ ، ومطالبتهم بمحاضرات عامة ،ولقاءات بالكثيرين منهم فى لجان متعددة أبرز لى ضرورة التعرف على لغة القوم ، حتى أستطيع أن أستجيب لهذه المسئوليات ، وكنت قد مارست حينا الترجمات ، فقد كان يُترجم لى من اللغة الإندونيسية إلى اللغة العربية أو إلى اللغة الانجليزية أو كان يُتَرْجم عنى ، ولكن ذلك كان مضيعة للوقت من جانب ، وكان من جانب آخر لا يتيح لى متابعة التفاصيل التى يتحدث بها من حولى •

وأحسست أنى لست أستاذاً فى الجامعة فحسب ، ولكنّ لى دوراً كبيراً بين الجماهير ، وإذا استطاع طلاب الجامعة أن يأخذوا أفكارى باللغة العربية أو الانجليزية ، فإن الجماهير لا تستطيع ذلك ، من أجل هـذا أدركت أن اللغة الإندونيسية أصبحت ضرورة لنجاحى فى عملى ، وكنت أومن أن الداعية يتحتم عليه أن يعرف لغة القوم الذين يدعوهم ، فتعرّفه على لغتهم أيسر جدا من إلزام الجماهير الغفيرة بالتعرف على لغة الداعى .

وأحاط بى تلاميذى يشجوننى للوصول لهذا الهدف ، ويساعدوننى عليه ، حتى رأيتنى تلميذا لهم ، قبل أن أقف منهم موقف الأستاذ ، فقد كنا لانزال فى إجازة الصيف ولم تبدأ الدراسة بعد ، وخطوت فى تعلم اللغة خطوات سريعة ، واستعملت بضاعتى منها فى أحاديثى مخطئا حينا ، ومصيبا حينا ، ولكنى كنت فى الحالين أصل إلى نفوس الناس مـن أيسر الطرق وكانوا يفهموننى على كل حـال ، ويصححون أحيانا هفواتى ، وبمرور الأيام يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، استطعت أن أعرف من اللغـة ما يعيننى على العمل تماما ، فأخذت أكتب بها وأحاضر ، وأفهم ما يقال ، وكان ذلك وسيلة عظمى للوصول إلى عقول الناس وقلوبهم .

وللغة الأندونيسية تاريخ ليس بالطويل ، فإندونيسيا جزر متعددة كانت اللغات فيها تختلف من جزيرة إلى أخرى وفى بعض الجزر كانت تعيش لغات متعددة ، إذ أن الجبال والغابات تقسم الجزيرة إلى مناطق أو ممالك كثيرة ، وتختلف اللغـة من مكان إلى مكان ، حتى كانوا يقولون إن فى إندونيسيا عدة مئات من اللغات ، وعندما دخل الإسلام إندونيسيا دخلت معه كلمات عربية كثيرة فوجدت طريقها للغات القوم ، وكانت هذه الكلمات تعد قاسما مشتركا بين اللغات واللهجات المختلفة . ثم جاء الاستعمار الهولندى فأرضاه تفكك هـذه البلاد من ناحية اللغـة ، واتخـذ ذلك وسيلة لمزيد من التفكك لهذه البلاد الشاسعة ، وجعـل الاستعمار الهولندى اللغـة الهولندية هى اللغـة الرسمية للبلاد ، وقدّمها للأذكياء والطموحين والمثقفين منهم ، أما الجماهير الغفيرة فبقيت لا تعرف غير لغاتها المحلية ،

وفى مطلع الاستقلال رأى قادة إندونيسيا ضرورة توحيد اللغة لتكون هناك صحافة ومطبوعات بلغة واحدة ليمكن تكوين شعب واحد ، له أمانٍ واحدة ، وتقوده أهدافٌ وثقافات واحدة ، وفى سنة ١٩٤٥ عقدت مؤتمرات لاختيار لغة لإندونيسيا كلها ، وفى هذه المؤتمرات ظهرت اتجاهات مختلفة فقد قفز الصينيون وكان منهم بإندونيسيا حوالى سبعة ملايين يملكون نواصى المال والتجارة . وقدَّم هؤلاء لغتهم لتكون لغة شاملة لإندونيسيا ، ولكن هذا الاقتراح لم يؤخذ به ، فإن إندونيسيا لم تقبل أن تنماع فى الصين ، وكانت تسعى لتحرر شامل ، وتقدم المثقفون الإندونيسيون باللغة الهولندية ولكن هذا الاقتراح كان قصير العمر ، فكل شىء هولندى كان مكروها ، وكانت الجماهير تحاربه وتطارده .

واقترح بعض الناس اللغة الانجليزية كلغة عالمية ولكن إندونيسيا لم تكن تريد أن تخرج من الشرق وتصبح تابعة للغرب ولهذا انهار هذا الاقتراح كما انهارت الاقتراحات السابقة ، ولم يتقدم أحد ليقدم اللغة العربية فى هذه المؤتمرات وأحسَّ الإندونيسيون بفراغ ، فهناك منهم مئات الآلاف يجيدون اللغة العربية تعلموها فى الوطن العربى أو فى المعاهد الاسلامية ببلادهم ، وكانت اللغة العربية لغة الحديث (Lingua Franca) فى المؤتمرات الإسلامية التى كانت تُعقد من حين إلى حين ، ويتدارس فيها المسلمون شئونهم ، كما كانت لغة الصلاة والعبادة عند المسلمين الذين يمثلون الأغلبية المطلقة فى البلاد ، ومن أجل هذا اقترح بعضهم أن يُدْعَى ممثلون من العرب المقيمين بإندونيسيا ليقدموا اللغة العربية للمؤتمرين وليذكروا فضائلها ، والأسباب التى تدعو لاقتراحها لغة للبلاد ، واختير لذلك شيخ عربى هو (الشيخ عوض شحبل) ولم يكن هذا الرجل عالما ولا واسع الدراسة ، وإنما كان فى عهد شبابه يشتغل بالتجارة ولا يعرف سواها ، وقد بذل الرجل جهده فى هذا المضمار ، ولكن من الطبيعى أنه كان جهدا هزيلا لم يأت بفائدة ، واتجه المؤتمرون إلى اختيار لغة من اللغات الإندونيسية وتزويدها بزاد جديد من اللغات الأخرى الإندونيسية أو العالمية وهكذا ظهرت اللغة التى سُمِّيت باسم

البلاد ، وكانت اللغة المختارة وثيقة الاتصال باللغة التى تستعمل فى الملايو ، والحق يقال إن اللغة الإندونيسية تطورت تطورا رائعا وسريعا ، ولم تمض سنوات قلائل حتى أصبحت واسعة الانتشار فى جميع أرجاء البلاد ، وأصبحت كذلك غنية وطيعة وجميلة ، وبعد فترة قصيرة ظهرت بها مؤلفات ضخمة ، واستجابت لكل حاجات الإنسان فى العلوم والفنون والآداب •

تلك هى اللغة التى تعرفت عليها ، والتى بدأت بها جولاتى العامية والاجتماعية فى هذه البلاد ، والتى جعلتنى إلى حد كبير فرداً فى هذه الأسرة الكبيرة ، فلم أعد أحتاج إلى من يترجم لى أو يترجم عنى ، وأخذت ألقى بها محاضراتى بالجامعة أو محاضراتى للجماهير • كما بدأت مع الزمن أكتب بها بعض كتبى ، وأراجع الترجمات التى يقوم بها آخرون لمؤلفاتى •

٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٥ :

فى موجة من العمل العلمى الواسع الذى ربطنى بجامعات إندونيسيا وشعبها حل يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٥ ولم أنس ذلك اليوم ، فقد كانت الأقدار أعدت العدة لتضع الابتسامة مكان الكآبة ، ففى هذا اليوم رأيتنى بين مجموعات من الإندونيسيين تحتفى بقدومى وألحت على فكرة المقارنة بين هذا اليوم وبين نظيره منذ عام :

ففى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ فصلنى مجلس قيادة الثورة من الجامعة ، أو بلغة أخرى طردتنى الحكومة من العمل ، وفى هذا اليوم بعد عام كنت مع حكومة تحتفى بى وتتخذ الوسائل لإسعادى •

كنت منذ عام أخاف كلما دق أحد بابى وأتوقع السوء ؛ ولكنى اليوم أفرح كلما سمعت طرقة على الباب وأهرع بغبطة لاستقبال الوافدين لتحيتى •

منذ عام اختفى الأصدقاء من حولى أو اختفيت أنا منهم حتى لا يمسهم

ضرٌ بسببى ؛ والآن يحيط بى الأصدقاء من كل جانب ويبذلون أقصى الجهــود لإيناسى .

منذ عام كان الجوع يتهددنى ، وكانت سحابة من القلق تشمل حياتى ، واليوم يحيط بى الرخاء والاطمئنان والأمل ..

منذ عام حُرِمْت من طلابى وأُبْعِدْتُ عنهم ، وأُغلقت أبواب الجامعة فى وجهى ، والجامعة بالنسبة لى هى الحياة والجنة الوارفــة ، والطلاب هم الغرس الذى نتعهده ليثمر ، وما كان أقسى هذا التصرف على نفسى ، ولكننى اليوم أعيش فى رحاب جامعة أو جامعات تتطلع إلىّ وتحسن استقبالى ، وتستجيب لآرائى ، وأعيش بين آلاف الوفــود من الطلاب الذين فتحوا لى قلوبهم وعقولهم لمــا أغرس فيها من معارف .

ولم أنسَ قط فى غضون هذه المقارنة أن أسجد لله شاكراً ، وأن أطلق لسانى يعبر عما فى وجدانى من ثناء وشكران مُعاهداً الله واسع العطاء أن أبذل أقصى الجهد فى عملى الجديد حتى أكون أهلا لمــا قدمه لى من عون وما فتحه أمامى من مسالك .

فى محيط الجامعات :

كان عملى الرئيسى أن أحاضر فى الكلية الإسلامية الحكومية التى كانت قد أنشئت حديثا بجوكجاكرتا العاصمة الثقافية لإندونيسيا ، وفى خــلال الإجازة كانت قــد تكونت عنــدى فكرة عن مستلزمات المجتمع الإندونيسى ، ولمــا اجتمعنا فى مجلس الكلية اقترحت عدة اقتراحات تتصل بالمنهج ، وبطرق الدراسة ، وبنظام الامتحانات ، وقد استُجيب لى استجابة كاملة فعُنيتُ فى المنهج بإدخال مادة الحضارة الإسلامية ، ومادة مقارنة الأديان ، كما عنيت بتنظيم المكتبة وتغذيتها بمجموعــة كبيرة من الكتب الحديثة فى الدراسات الإسلامية وكانت المكتبة فقيرة جداً فى هذا اللون من الكتب ، وأعددنــا ساعات للاطلاع ، ويسَّرنا على الطــلاب الاستعارة الخــارجية .

وكان النظام الهولندى فى الامتحانات هو المتبع ، وهو نظام يقوم على الفرد لا على الجماعة بمعنى أن المحاضرات تستمر ، وعلى كل طالب يأنس فى نفسه القوة أن يطلب أن يُمتَحن ، وهو نظام الأزهر القديم ، وقد أصبح ذلك صعبا جداً مع الأعداد الكثيرة من الطلاب مما لا يجعل من الممكن أن يقوم المدرس بهذا العمل فى الوقت المناسب وقد تسبب عن ذلك النظام تعطيل الطلاب ، وقد أدخلت النظام المصرى الحديث فى الامتحانات فدخل الطلاب جميعاً الامتحان التحريرى على النسق المعروف عندنا ، وقد سَهُلَتْ عمليةُ الانتقال من فرقة إلى أخرى بهذا النظام .

وكنت معارا لهـذه الكلية أستاذاً للتاريخ الإسلامى ؛ فلما اقترحتُ مادة الحضارة الإسلامية أُسْنِد إلىَّ تدريسها ؛ ولما اقترحت ، مادة « مقارنة الأديان » طُلِبَ منى أن أقوم بتدريسها كذلك وقبلت ، وهبَّت صيحة تنادى بأن أدرس اللغة العربيـة وآدابها ، فأنا عربى وأزهرى ودرعمى قبل كل شىء فقبلت ، وفى بعض الحالات درَّستُ تاريخ التشريع الإسلامى ، والتربية وطرق البحث حتى حملت عبئا كبيرا فى هذه الكلية ، ولكنه كان عبئا حبيبا إلى نفسى بسبب إقبال الطلاب وترحيب الزملاء .

وتستمد هذه الكلية طلابها من مصدرين مختلفين ؛ أولهما المدارس الإسلامية ، وهى شديدة الشبه بالقسم الثانوى بالأزهر ، والمتخرجون منها يعرفون اللغة العربية إلى حد معقول ؛ والمصدر الثانى هو المدارس الثانوية العامة والمتخرجون بها يعرفون اللغة الإنجليزية إلى حد معقـول كذلك ، ولهذا كان لزاما على أن ألقى محاضراتى باللغتين ؛ فأشرح الفكرة باللغة العربية للمجموعة الأولى ؛ ثم التَفِتُ للمجموعة الثانية فأشرح نفس الفكرة باللغة الإنجليزية ؛ وكان الطلاب سعداء بهذا ، لأنهم كانوا يستفيدون اللغة عربية أو إنجليزية أو كلاهما معا مع الأفكار العلمية ؛ ولكن الوقت لم يتسع لهذا النهج ؛ فاتجهت لتعلم اللغة الاندونيسية التى حلت محل اللغتين بعد وقت ليس بالطويل ؛ وقد ظل اللسان العربى بطبيعة الحال هو لغـة المحاضرات فى علوم اللغـة العربية وآدابها .

وقابلتنى عقبة لم يكن تذليلها سهـلا هى مشكلة الكتاب الجامعى ؛ والكتاب الجامعى فى مصر يصوِّر مشكلة فهو موجود وكثير ؛ وتتجه الشكوى نحو ثمنه أو نحـو فرضه على الطلاب فرضا ؛ والذى يشكو منه الطلاب فى مصر أملٌ يتمناه الطلاب فى إندونيسيا ؛ فمشكلة الكتاب الجامعى هناك مصدرها أنه غير موجود ؛ فالطلاب يتلقون المحاضرات ويفهمونها ولكن لا يجدون الكتاب الذى يستذكرون فيه هذه المحاضرات ؛ أو يستفيدون بواسطته هذه المعلومات ؛ وكان الطلاب يعتمدون على الإملاء أحيانا ، أو على مذكرات طبيعتها السرعة وعدم الدقة فى الاخراج أحيانا أخرى؛ولذلك اتجهتُ نحو تأليف الكتب للطلاب وبخاصة فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسـلامية ثم فى مقارنة الأديان ؛ واستعنت فى ترجمتها ببعض الزملاء وبخاصة الأستاذ مختار يحيى الذى مثّل الدم الإندونيسى والفكر الإسلامى واللسان العربى بالإضافة إلى إجادته للغـة الإندونيسية إجادة تامـة كما استعنت ببعض الاندونيسيين الذين ينحدرون من أصل عربى كالأستاذ عبد الله باجرى . وسرعان ما أصبح الكتاب الجامعى فى متناول الطلاب . ثم حدث شىء لم نتوقعه هو أن الجماهير أقبلت إقبالا شديداً على هذه الكتب مما جعل هذه الكلية مصدر إشعاع فى المجتمع الفسيح .

وبسبب الجهود التى تعاونا جميعا فى بذلها بهذه الكلية ، وبسبب ما أثارته هذه الكتب من حماس ، أقبل الطلاب على هذه الكلية إقبالا واسعاً فلم يكن بدٌ ان تصبح الكلية جامعة إسلامية ، وأن تصبح أقسامها كليات مستقلة ؛ بل أصبح للجامعة فروع فى مدن أخرى ، وأصبحت الدراسات الإسلامية هدفا يتطلع إليه الكثيرون .

واتجه المصلحون المسلمون إلى فتح جامعات إسـلامية ؛ واتجهت الأحزاب الإسلامية إلى هـذا أيضاً ؛ وكان لزاما علىّ أن أستجيب لدعوة هؤلاء أو أولئك لإلقاء بعض محاضرات ، فقـد كان اسمى يوضع فى قائمة المحاضرين بعد استشارتى أو بدون أخذ رأيى لأن أملا كبيراً يعلقه الطلاب على وجودى .

وفى مجال تعليم اللغة العربية كانت مشكلة الكتب أدق وأهم . فكثيرون من الإندونيسيين أو من الهنود ... كانوا يفدون إلى مصر ليتعلموا اللغة العربية ، وكانت الوسيلة لهؤلاء أن يلتحقوا بالأزهر أو بكلية دار العلوم ، وأن يجلسوا جنبا إلى جنب مع المصريين والعرب ، وفى قاعات الدرس هنا وهناك كانت تـُعـَلـَّم ألفية ابن مالك وقطر الندا وابن عقيل والأشمونى . وبهذا كان الطلاب غير العرب يعرفون قواعد اللغة العربية أكثر مما يعرفون اللغـــة ذاتها والعجيب أن أكثرهم عندما عاد إلى بلاده معلـِّما راح يعلم ألفية ابن مالك أيضاً لطلاب مبتدئين فى صلتهم باللغة العربية .

ولم يكن هـــذا العيب خاصاً بالكلية الإسلامية بل كان موجودا فى المدارس الإسلامية ، وقد نشط بعض الإندونيسيين لتأليف كتب للمبتدئين ، ولكن هذه لم تكن شاملة ، وقلَّ منها من سلك طريقا تربويا دقيقا ، وقـــد تطلعت لى الأنظار لأسهم فى حل هذه المشكلة فبذلت جهداً كبيراً لذلك ، أثمر كتابة أربعة كتب لتعليم اللغة العربية لغـــير العرب تبـــدأ من الهجاء وتتدرج إلى مستوى طيب ، وتقدِّم للطلاب المتقدمين خلاصـــة سهلـــة وافية لقواعد اللغة العربية مع تمارين للتطبيق عليها ، وقد اتبعتُ فى هذه الكتب الوسائل والمراحل التى تـُتـَّبَع فى تعليم اللغات الأوربية لغير أبنائها . وقد نجحت هذه الكتب فى أداء مهمتها خير نجاح .

فى محيط الجماهير بمختلف الجُزُر :

لم أكن غريبا على جماهير إندونيسيا منذ نزلت أرضها ، فقد اتصلت بى الصحافة ونشرت خبر وصولى ، ثم نشرت أحاديث لى ، وقدمت لى أسئلة عـُنـِيـَت بنشر الإجابة عنها فى صفحاتها الأولى وفى كثير من الأحايين كانت عبارات من كلامى تؤخذ « مانشتات » ملونة بالصحف .

وتعرفتُ أكثر بالجماهير عن طريق الكتب التى ألمحت بالحديث عنها من قبل وبخاصة كتب « مقارنة الأديان » التى كانت ذات مفعول واسع فى كل ربوع إندونيسيا .

ثم تعمقت صلتى بمجاهير إندونيسيا عن طريق المحاضرات العامة الكثيرة التى كنت ألقيها فى المناسبات المختلفة ، وفى إجازة الصيف التالى أعدت وزارة الشئون الدينية لى برنامجا واسعا لزيارة الجزر المختلفة باندونيسيا ، وكتبت للفروع التابعة لها بمختلف المدن أن تستقبلنى وتنظم سلاسل من المحاضرات العامة والخاصة ألقيها للمدرسين وفى الأندية ولدى التنظيمات النسائية وتنظيمات الشباب والمعاهد بالإضافة إلى المحاضرات العامة ، وكان الإقبال بالغ المدى على محاضراتى فى كل مكان نزلت به ، أو جماعة اتصلت بها لأن محاضراتى كانت تلبى حاجات الناس وتجيب عن تساؤلاتهم •

التحول بالفكر الاسلامى تبعا للظروف :

وقد خطوت بالفكر الإسلامى خطوة هامة فى تلك الربوع ، ذلك أن الدراسات الإسلامية كانت قبل استقلال إندونيسيا محدودة بالعبادات والمعاملات التى تذكرها كتب الفقه ، وكان هذا القدر كافيا فى تلك الفترة ، إذ لم تكن هناك ثقافة ذات بال فى المجتمع ، فلما تم استقلال اندونيسيا ، وانفتحت الأبواب للثقافة العالمية عن طريق الاذاعات والمطبوعات والزيارات المختلفة ، تقفز إلى اندونيسيا الوان من الأحاديث والدراسات عن الاشتراكية والشيوعية والراسمالية ، وارتفعت الأصوات بالحديث عن الديمقراطية والدكتاتورية الفردية أو الموجهة ، وانشئت الأحزاب تتبع هذا الاتجاه أو ذاك ، وجذبت « المودات » الحديثة فى المجال الاجتماعى مجموعات من الشباب فاصبحوا صدى للاتجاهات الأوربية والأمريكية ، وأصبح واضحا أن الإسلام إما أن يدخل هذا الصراع بمادة مناسبة أو ينزوى فى المساجد ، ويعيش مع شيوخ العهد الماضى حتى يضمحل باضمحلالهم ، وبدون تردد اخترت طريقى ، فذهبت ارفع صوتى برأى الإسلام فى السياسة ، ورأيه فى الاقتصاد ، ورأيه فى الحياة الاجتماعية والتربوية وكان ذلك تحولا كبيرا فى الدراسات الإسلامية باندونيسيا فكم القيت من محاضرات عن رأى الإسلام فى الاقتصاد وأوردت مقارنة دقيقة عن الفرق بين الاقتصاد فى الإسلام وبين النظم الاقتصادية الأخرى ، وكانت المقارنة تبرز جمال

الإسلام وتفوقه على سواه من النظم مما اضطر بعض الـذين كانوا متعصبين للشيوعية أن يصرح بأن الإسلام إذا كانت فيه هذه النظم فليس هناك من داع لأى نظام اقتصادى آخر .

ومثل ذلك حدث فيما يتعلق بالسياسة والحياة الاجتماعية والتربوية .

ومن الأشياء التى عنيت بها فى اندونيسـيا اننى اتجهت لتقـديم الإسلام ليس فقط للمسلمين أو طلبة الكلية الاسلامية بل أيضا لغـير المسلمين من اللادينيين أو البدائيين ، وكـذلك للمسلمين اسـما الذين لا يرتبطون ارتباطا حقيقيا بالإسلام ، وقد ساعدنى علم مقارنة الأديان فى هذا المجال ، فقدمت الإسلام كحلقة ختامية فى سلسلة الأديان وليس كدين مستقل ، ووضعت الإسلام بين الأديان من ناحية تشريعاته وعقائده وأخلاقه وضح مكانة هذا الدين بين الأديان ، وجذب له الكثيرين .

وهنا أتوقف قليلا لأرسم صورة تكرر حدوثها ، وكانت عميقة التأثير فى نفسى ، لقد كنت ألقى المحاضرات العامة فى القاعات الحكومية الكبرى بالمدن ، وكان المشـاهدون آلافا أو عشرات الآلاف . وطالمـا ارتفعت الأصوات بالتحية والأكف بالتصفيق خلال المحاضرة أو فى ختامها . وبعـد الانتهاء كانت السيارة تحملنى الى البيت الذى أنزل فيه بمفردى . أو إلى حجرتى بالفندق إن كنت بعيدا عن جوكجا كرتا ويشملنى عقب ذلك صمت رهيب ، وهكذا كنت أنتقل فى دقائق من الأضواء الباهرة ، والعيون الناظرة ، والصخب الجم ، إلى الوحشة الشاملة والسكون المطبق ، وكان هذا الانتقال المفاجىء شديد الوقع على النفس ، ولكنه كان يهـون فى سبيل ما نصادف من نجاح .

وهناك وسيلة سهلة حملت اسمى وفكرى للجماهير العريضة وتلك هى الإذاعة ، ولم يكن التليفزيون قد دخل اندونيسيا بعد ، فاتخذت الإذاعة وسيلة لدراسات إسلامية متطورة كانت تجذب لها كثـيرا من السامعين ، وقد عرفت فيما بعد أن الأثير حمل صوتى عن طريق الإذاعة

الإندونيسية إلى الاقطار الأخرى المحيطة باندونيسيا ففى بعض لقاءات مع مسلمى تايلاند عرفت منهم أنهم يعرفوننى تماما ويتابعون أحاديثى بالإذاعة ، وقابلت بعد عدة سنوات الزميل الأستاذ الدكتور أحمد علم الدين الجندى فقال لى إنه كان مدرساً بالصين وكان يستمع لاحاديثى بالإذاعة ، وفى سنغافورة وماليزيا حدث نفس الشىء ، وكان البعض يظن أن صوتى قادم من القاهرة ، وعلى كل حال فليس للعلم وطن ، والفكر الإسلامى ملك المسلمين فى جميع الأرجاء •

وهكذا عن طريق المحاضرات الخاصة والعامة وعن طريق الكتب التى لاقت رواجا عظيما من الطلاب وبين الجماهير ، وعن طريق الصحافة والإذاعة أصبحت معروفا عند أكثر الإندونيسيين وأليفا إليهم •

وهناك مجال آخر دفع اسمى دفعة قوية بين الجماهير ، ذلك هو مجال المناظرات التى عقدت بينى وبين كبار القسس المسيحيين ، والحق أن هذه المناظرات كانت تعقد فى جو علمى دقيق ، وقد أثمرت أجمل الثمرات لخدمة الإسلام والفكر الإسلامى ، وقد شرحت ظروف هذه المناظرات فى كتابى عن « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان •

العرب فى اندونيسيا :

منذ فجر التاريخ عرف العرب طريقهم إلى إندونيسيا والشرق الأقصى فى التجارة الصاعدة والهابطة التى كانت البحرية العربية تمارسها ، وقد استقر بعض العرب على طول الطريق ، وفى جميع المحطات التجارية ، وكانت إندونيسيا مكانا محببًا لجماعات الحضارمة وكان الحضارمة من أهم العوامل التى حملت الإسلام إلى إندونيسيا ولما استقر بهم المقام هناك اشتغلوا بالتجارة ، وفتحوا المصانع واختلطوا بالسكان اختلاطا واسعا ، وانتسبوا للأحزاب ، وعلموا أولادهم حتى شغل الكثيرون من أبنائهم مناصب مرموقة فى الدولة ، وأصبحوا جزءا من المواطنين يقاسمون أهل البلاد حلاوة الحياة ومرها ، ولكن أكثرهم حرصوا على اللغة العربية ،

وعلى الصلة بالوطن العربى ، وكان من حرصهم على اللغة العربيـــة أن كثيرين منهم كانوا يبعثون بأبنائهم إلى حضرموت ليعيشوا هناك بضـــع سنوات ليجيدوا اللغة العربية وليتعرفوا على أهليهم ، هذا بالإضافة إلى المدارس العربية التى فتحوها فى أمكنة متعددة باندونيسيا حيث يعيشون .

ومن العرب جماعات عمّقت صلتها بالاندونيسيين فانماعت فيهم،ورأت من مصلحتها أن تغمض الطرف عن أصولها البعيدة فلم تعـد تنتسب للعرب ، وإن بقيت الملامح العربية بارزة بوجوههم فتوشك هذه أن تُبْرِزَ السرَّ الذى أريد له الكتمان .

وإذا قارنّا الصينيين بالعرب فى إندونيسيا نجد الفرق كبيرا جـدا ، فقد عاش الصينيون باندونيسيا دولة داخل الدولـة ، لم يختلطوا بأهل البلاد ، ولم يتم بينهم تزواج ، ولم يمنحوا الأهلين من معارفهم أو علومهم ، وانما عاشوا لأنفسهم فقط ، ومن أجل هذا ظلوا غرباء بإندونيسيا مما سبب خروج الكثيرين منهم عقب أن تم استقلال هذه البلاد .

وكانت بيوت العرب منارات لخدمة الإسلام فى كثير من الأحايين وطالما استدعوا من البلاد العربية الشيوخ والمدرسين ليعلموا اللغة العربية والفكر الإسلامى لوفود التلاميذ من أبناء العرب ومن أبناء الإندونيسيين الذين جذبتهم المدارس العربية .

وقد اتصلتُ بالحضارمة فى إندونيسيا وقدّموا لى ألوانا من العون وأنا أؤدى عملى بتلك البلاد ، وحرصتُ أنا على مجاملتهم ، فكثيرا ما وقفت فى ساحاتهم ألقى محاضرات عامة على الجماهير ، وكثيرا ما تفرغت لزيارة مدارسهم وإرشاد مدرسيهم فى دورات تدريبية لأشرح لهم أحدث الطرق لتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، وطالما وضعوا سياراتهم تحت تصرفى ، وكانوا يفرحون كلما كلفناهم بعمل لخدمة أغراضنا الثقافية ، من حق الحضارمة علينا أن نسجل لهم أعمق الثناء والدعاء .

وينحــدر الحضارمة المهاجرون إلى إندونيسيا من أصول حضرمية متشعبة ، وكانت أصولهم فى حضرموت ترتبط بعادات وقيم ، كانت قنوات مختلفة لكل منهما مجال اجتماعى خاص ، وقد صبّت هذه القنوات فى محيط واحد هو إندونيسيا الفسيحة ، ولكن بعضهم كان يتمسك بجذوره وأصوله ، واتجه آخرون إلى أن المحيط الجديد غيَّر الطابع القديم ، وأنه نَظَرَ للجميع على أنهم عرب مسلمون فلا داعى لإثارة التقاليد القديمة وحملها إلى الوطن الجديد •

ولست أريد أن أدخل فى صراع العرب ، فلقد كانوا على اختلاف طبقاتهم أصدقاء مخلصين لى ، ولمصر وللعروبة والإسلام ؛ كلهم أحسن استقبالى وقدم لى ما استطاع من عون لأنجح فى رسالتى ، وربما استطاع الزمن أن يزيل هذه الفروق ليغمرنا جميعا شعار العروبة والإسلام ، إننى أتمنى هنا أن أذكر أسماء الذين ساعدونى ، ولأسمائهم خلودها فى ذهنى ولكنى أخشى أن أنسى أحداً منهم فيؤثر ذلك عليه ، وإننى الآن أستعرضهم جميعا ، وأستعرض شهامتهم مهما اختلفت الجزر التى يعيشون فيها أو اختلفت المدن التى يستوطنونها ، تحية من الأعماق للحضارمة فى إندونيسيا ، ودعاء أن يهىء الله لهم وبهم الخير •

الاعتداء الثلاثى :

قصة الاعتداء الثلاثى معروفة ، ذلك العدوان الذى جاء انتقاما لتأميم قناة السويس والذى اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، ولست هنا أريد أن أتحدث عن تأميم القناة لأن فرحنا بذلك التأميم لم يطل أمــده فقد ابتلعته هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ وتوقفت قناة السويس عن العمل حتى يونيو ١٩٧٥ حيث استعادت عملها ببطء ثم استعادت مــع الزمن نشاطها وحياتها ، ولكن الذى أريد أن أتحدث عنه الآن هو موقفى بإندونيسيا عقب الاعتداء الثلاثى ، وهنا نقطة جديرة بالذكر ، فإنى لم أخبر أحداً بإندونيسيا أن الثورة قد فصلتنى من الجامعة ، مــع أن هناك ظروفا كانت تحثنى على ذلك ، فقد كان فى إندونيسيا عقب وصولى بها حركة جماهيرية تعطف على

الإخوان المسلمين ، وربما كانت هذه الجماهير تعدتنى بطلا لو عرفت أن الثورة فصلتنى من الجامعة ، ولكنى كنت دائما أكره الكسب الرخيص ، وأكره انتهاز الفرص ، وعشت فى إندونيسيا من أول يوم مصريا عربيا مسلما ، مخلصا لبلادى ودينى ، والمصرى فى الخارج غالباً يتناسى نفسه ويذكر بلاده ، وكثيرون من المصريين الذين يتحدثون وهم بمصر ناقدين أو مهاجمين تراهم فى الخارج وقد نسوا كل شىء إلا مصر ، وعدوا أنفسهم جنودا لمصر يخدمون أغراضها ولا يهاجمون نظمها حتى إذا كانت هناك خلافات بينهم وبين هذه النظم ، وكان هذا موقفى ، ومن أجل ذلك دخلت معمعة الصراع ضد العدوان الثلاثى وطالما وقفت فى الجماهير أخطب وأصرخ غير حافل بدمع تغرورق به عينى ، وانفعال يهزنى . واستجابت الجماهير لى استجابة كاملة وبخاصة حينما ذكرت أن العدوان الاستعمارى سيدمل اندونيسيا وغيرها من الأقطار حديثة الاستقلال إن نجح فى مصر . فالعدوان فى الحقيقة هو ضد حركات الاستقلال التى نعمت بها الدول بعد طول استعمار ، وكانت هبَّة الإندونيسيين قوية جارفة أنزلت بمصالح المعتدين ومنشآتهم كثيرا من الخسائر ، وكان لها فى مصر دوى واضح . وقد ظهر اسمى فى هذه الحركات فكان دليلا على أن من بين من عاقبتهم الثورة جماعات تستحق التقدير لا العقاب ، ولكنى على كل حال قمت بدورى باسم الوطن والدين دون التطلع لأى هدف آخر .

العودة للعمل فى الحكومة :

مر الزمن عاما بعد عام وأنا أعمل بإندونيسيا فى عدة ميادين . وحققت ألوانا من النجاح المادى والأدبى حتى أصبح اسمى على كل لسان . وصدرت قرارات مصرية بأن أنضم إلى وفود ثقافية رسمية ، وقرارات بتكليفى بأعمال مهمة ، ووردت التقارير من السفارة لوزارة الخارجية وللمؤتمر الإسلامى تبرز الدور الكبير الذى أقوم به لخدمة الدين والوطن . واقترحت السفارة فى خطاب رسمى تعيينى مستشاراً ثقافياً ، معددة الأسباب لذلك ، وخطا المؤتمر الإسلامى خطوات لتكريمى فصرف لى تذاكر

للعودة إلى مصر كل صيف على نفقته ، وكل هذه الأشياء وسواها من نظائرها جعلت أمر عودتى للعمل بالحكومة موضع نظر ، وفى مطلع عام ١٩٦٠ تسلمت خطابا من وزارة التعليم العالى يقترح تعيينى مديراً للمركز الثقافى المصرى بجاكرتا ، ويسأل كيف أستطيع أن أوفق بين هذا العمل وعملى بالجماعات الإندونيسية ، فأجبت بأن ذلك ممكن ، وسيساعـدنى عملى بالجامعات الإندونيسية على نجـاح عملى كمدير للمركز الثقافى بجاكرتا لأن صلتى بالطلاب ستجذبهم إلى المركز الثقافى ومكتبته ونشاطه كما أننى أستطيع أن أنقل بعض نشاط المركز الثقافى إلى ربوع الجامعة ...

وخطت وزارة الشئون الدينية الإندونيسية خطوة طيبة حينما استجابت لرغبتى فجعلت مقر عملى جاكرتا العاصمة بدلا من جو كجاكرتا . وأخذت أباشر عملى أستاذاً بالجامعة الإسلامية التى أُنشئت حديثاً بالعاصمة ، وعندما عدت للقاهرة فى صيف ١٩٦٠ صـدر قرار لإعادتى للعمل بوزارة التعليم العالى وتعيينى مديراً للمركز الثقافى بجاكرتا وكان قد مضى على إبعادى عن العمل بالحكومة ست سنوات .

لقد فتح المنصب الجـديد لى آفاقا جـديدة كان يمكن عن طريقها أن أقدم مزيدا من الخدمات لبلادى ودينى ولكن ظروفاً لم تكن فى الحسبان قفزت عقبة فى الطريق فقصَّرت مدتى فى هذا العمل وألزمتنى بالعودة إلى القاهرة عودة نهائية فى الصيف التالى (١٩٦١) وسنتحدث عن هذه الظروف فيما يلى :

الدبلوماسية والسلك السياسى المصرى :

أدخلتنى الوظيفة الجديدة عالمـاً عجيبا هو عالم الدبلوماسيين ، ولم يكن هذا العالم غريبا علىَّ ، فقد عرفت بعض الدبلوماسيين فى أثناء دراستى بانجلترا وفى أثناء تطوافى بالعالَم طالبا وأستاذا . ولكن صلتى بهم كانت محدودة ، فلم أكن أعرف أغوار هذه الحياة حتى وجدتنى فى وسط هـذا المحيط .

والعمل بوزارة الخارجية والسفر للخارج فى وظائف السلك السياسى أمل يتطلع له الكثيرون ، لأنه عمل حافل بالمزايا والامتيازات ، فالمرتبات عالية جداً ، والنفقات محدودة لأن عضو السلك السياسى يحصل على مطالبه بدون جمارك أو ضرائب ، ومن هنا كانت سيارته وملابسه وسجائره ٠٠٠٠ رخيصة جداً ، ثم هناك الرحلات والحفلات التى لا تنقطع ، ولذلك فلاعجب أن يتهافت الكثيرون على الانضمام إلى هذا السلك الدبلوماسى ، ولا عجب كذلك أن يطمح لهذا العمل أولئك الذين لهم حسب يدفعهم أو نسب يشدهم ٠

وعلى هذا اذا قسنا هذا العمل بمقياس الربح والأخذ فهو عمل يغرى صاحبه ، ولكن إذا قسناه بمقياس الإعطاء ومدى مايقدم لمصر من خلال فردنا من هذا العمل ، لأنه بشكل عام لا إعطاء على الإطلاق ولا عون عن طريقه لمصر على الإطلاق ٠ ولست أستطيع أن أذكر كل ما أعرفه ، ولست أستطيع أن أسكت ، فقد كنت يوما ما واحدا من هذه الفرقة ، ولهذا سأذكر لمحات عن هذا العمل لعل فيها بعض الجدوى ٠

وقد كانت الفترة التى اتصلت فيها بالسلك السياسى فترة خطيرة كثيرة التقلب ، ومن هنا كنا كالريش يلعب به الهواء ، ويستجيب الريش دون آية مقاومة ، فالمفروض أن الدبلوماسى صدى لبلاده يصادق من تصادق ويعادى من تعادى ، ولكن بلادنا آنذاك لم يكن لها خط واضح ، فكنا نصادق السعودية ونتبادل مع الدبلوماسيين السعوديين الزيارات ونتعاون معهم . وفجأة يدب خلاف بين نظام الحكم بمصر وبين الحاكمين بالسعودية . فنقطع الصلة تماماً مع أصدقاء الأمس بالسفارة السعودية ، فإذا التقت وجهات النظر بين القاهرة والرياض بعد ذلك هرعنا نستعيد الصلات مع الإخوة العرب الذين قاطعناهم ردحاً من الزمن ، ومايقال عن السعودية يقال عن أى قطر عربى أو إسلامى آخر ، أو يقال عن كل أقطار الأرض . وتطبيقا لهذه القاعدة كان علينا أن نقيم صلات ود مع جماعات لاتربطنا بـ

روابط ذات بال كاليوغسلاف مثلا بسبب واحد هو أنه كانت هناك صلات طيبة بين عبد الناصر وتيتو ، أما صلاتنا بالسفارات العراقية والسعودية والتركية والباكستانية فكانت باهتة ، ولم تكن تصل بحال من الأحوال إلى صلات الود التى كانت قائمة مع ممثلى يوغسلافيا مع أنه لا توجد أسس مهمة لمثل هذه الصلات ٠

هذا جانب من حياة الدبلوماسية المصرية ، ولننتقل إلى جانب آخر ، فالملحق مرتبه وهو بالقاهرة حوالى عشرين جنيها ، لكنه إذا سافر لسفارة بالخارج انتقل مرتبه فجأة إلى حوالى مائتين ، واستحق الامتيازات الكثيرة التى أشرنا إليها من قبل ، ويملك السفير بجرة قلم أن يطلب إليه العودة للقاهرة ، والملحق لهذا يرى فى السفير إلهه ، ويحاول إرضاءه بكل الوسائل حتى لا يفقد هذه الامتيازات وهذه المئات من الجنيهات ، وإذا تربى الملحق هذه التربية وهو يمثل الدرجة الأولى فى درجات السلم ، سار حياته على هذا المنوال محكوماً وحاكماً ولم يعد للمواهب قيمة على الإطلاق ٠

وزوجات أعضاء السلك الدبلوماسى المصرى يتدخلن فى الأمور تدخلا سافراً ، وهن يقدمن الولاء كاملا لزوجة السفير ، وإلا كان زوج من تتمرد على هذا الولاء عرضة لتقارير قد تسحبه للقاهرة ٠ وفى خلال الفترة التى عشتها بإندونيسيا كانت هناك قوة أخرى تنافس قوة السفير هى مركز الملحق العسكرى ، ومن هنا كان هناك معسكران فى السفارة ؛ يتعاملان بحذر أو يتنافسان ٠

ويجيد أعضاء السلك الدبلوماسى الوسائل للكسب والاستيراد ، فما إن يصل الواحد منهم إلى مقر عمله حتى يتساءل عن الوسائل للحصول على سيارة بأيسر طريق ؛ وعن البلاد التى يستورد منها أفضل الأقمشة وأرخصها ؛ والتى يستورد منها الآلات الكهربائية والتحف والكريستال والسجاد ؛ وكيف يستطيع الحصول على سيارتين بدل سيارة ، والذى عنده ابنة فى عمر الزهور يسرع فيشترى لها كل جهازها من الخارج والذى يبنى

عمارة أو فيلا بالقاهرة يشترى الأحواض والأقفال والمقابض والبانيوات وتراه وهو يوشك أن يشترى الأسمنت والحديد .

وكثيرون من أعضاء السلك السياسى يسـافرون بدون أسرهم لأن الأولاد ملتحقون بالمدارس والجامعات فى القاهرة ، ولكن هؤلاء كأنما يحسون بأنهم وفّروا لبلادهم أجور السفر ، وهو شيء غير عادى ، وربما عُدّ ذلك من الغفلة أو السذاجة ، ولذلك ترى هؤلاء يستدعون أسرهم لقضاء الصيف معهم ، وتتكلف الدولة آلاف الجنيهات من أجل شهر واحد أو أقل من شهر .

والزوجات غير متعاونات غالباً ، بل يتكوّن منهن جماعتان أو أكثر ، وحديث كل جماعة يتجه ضد الأخرى ، وفى بعض الأحيان تدور أحاديث تليفونية حافلة بالسباب والعدوان لأوهى الأسباب ، والسيدة التى تعـرف « خياطة » ماهرة لاتخبر الأخريات عنها ، والتى تتعرف على نوع ممتاز من القماش تخفى مصدره عن زميلاتها ، وعلى العموم فاهتماماتهن متشعبة ولكن قلّ جداً من بينها الاهتمامات التى تتجه لخدمه الوطن أو خدمة الدين .

وكان من بين الموظفين الكبار موظف محدود المواهب ، همّه جمع المال ووضعُ مرتب على مرتب ليرتفع رقم حسابه من يوم إلى يوم ، وكنت مرة أجلس معه ، وهو يكتب ما يسميه تقريراً ليرسله إلى القاهرة ، فدخل عليه رجل يطلب إذن دخول للقاهرة ، فصاح الموظف فيه قائلا : إنك قطعت حبل أفكارى تعال غداً لأدرس طلبك ، واضطررت للتدخل ، فقلت لهذا الموظف بلغة عربية لا يعرفها الضيف : هل لك أفكار ذات بال تخاف عليها أن تنقطع ؟ ووضحتُ له أنه يخدم بلاده بحسن استقبال أمثال هذا الرجل أكثر مما يخدمها بما يسميه « تقارير » وعلى ذكر التقارير أذكر أن أحد الملحقين كان يقتبس خبراً أقرب إلى التفاهة منشورا على نطاق واسع فى جريدة يومية ويكتبه بخط يده ويضعه فى ظرف ويُحكم قفله ثم يكتب عليه « سرّى جداً » وهكذا انتقل الخبر الذائع على يد هذا الموظف إلى خبر سرّى للغاية .

هذه لمحات قصيرة وسريعة عن حياة أعضاء السلك الديبلوماسى على العموم وإن كانت هناك قلة قليلة كانت تخاف الله وترعى الوطن بين هـذا العطب المتفشى والانحراف المنتشر .

ماذا فعلت عندما انضممت لهذه الطائفة فى أكتوبر سنة ١٩٦٠ ؟

وماذا يمكن أن نقدم من مقارنات بين السنين الطويلة التى سبقت هذا التاريخ وبين الشهور التى جاءت بعده ؟

الإجابة عن هذا السؤال وذاك خطيرة للغاية ، لقد أمضيت أكثر ، من خمس سنوات فى اندونيسيا قدمت فيها الكثير مما يخـدم دينى ووطنى ، فى الجامعات وبين الجماهير وعن طريق الصحافة والإذاعة حتى كان اسمى بدون مبالغة على كل لسان ، وهناك مثال واحد أقدمه محدداً ، ففى مرة دعيت لإلقاء محاضرة فى اجتماع حافل بجوكجاكرتا ، ولكن اليوم المحـدد لهذه المحاضرة كان يوم عودة الملحق العسكرى للقاهرة وهـو « الأستاذ أحمد لطفى متولى » سفيرنا بعد ذلك فى لبنان . وكان الأستاذ لطفى متولى صديقاً لى ويتابع نشاطى فآثرت أن أكون فى وداعه وأعتذر للقائمين بأمر الحفل ، وقدمت اعتذارى مسبباً وركبت القطار إلى جاكرتا على بعد حوالى خمسمائة كليو متر ، وفى العاصمة ذكرت للأستاذ لطفى متولى الأمـر فآثر أن أكون معه هذه الأيام القليلة الباقية له بجاكرتا ، وقال لتكن هذه إجازة من عملك المتواصل ، وفى اليوم التالى جاءنى الأستاذ لطفى متولى ومعه وفد كبير جاء من جوكجاكرتا ليرجوه أن يتدخل لأحضر هـذا الحفل ، وقال لى سيادته : قم وعُدْ معهم فلا يمكن ردهم خائبين . وعدت مـع الوفد إلى جوكجاكرتا لأحضر هذا الاجتماع وأتحدث فيه .

وكثيراً ما كنت وسيط صلح وخير فى المشكلات التى تدب بين موظفى السفارة ، فلما أصبحت تابعاً للسفارة تغير كل شىء :

صدرت لى تعليمات السفير صريحة بأنه لابد من استئذان القاهرة قبل مزاولة المحاضرات والأحاديث التى ألقيها ، ولـما ذكرت بأن الفرصة تفوت

لو أرسلنا للقاهرة من جاكرتا وانتظرنا الرد ، تلقيت إجابة صريحة بأن هذا هو النظام ولا محيد عنه • وتوقف بذلك نشاطى تماماً •

وفى الصراع الداخلى الذى لم يكن يتوقف ، تطلعت هذه الجبهة لاجتذابى وحاولت تلك نفس الهدف ، وأردت أن أقف مستقلاً أو محايداً فسخطت علىّ هذه الجبهة وتلك •

وأصدرت السفارة تفسيرا يقضى بأن المركز الثقافى يتبع المستشار الثقافى بالسفارة ، وقبلت هذا التفسير ، فقد كان المستشار الثقافى زميلا صديقا ، وكان أسن منى وأقدم تخرجا ، ولكن سرعان ماعاد فى إجازة ، وانتدبت السفارة شابا صغيرا حدث الرتبة ليقوم بعمل المستشار الثقافى خلال غيبته ، فأراد هذا أن يمد سلطانه إلى المركز الثقافى •••• وأمور كثيرة قامت فى طريقى ، وأحسست أننى لم أعد أستطيع أن أؤدى واجبى ، ولم أكن حريصاً على المرتب الضخم الذى حدد لى فى وظيفتى الجديدة ، مادمت لا أؤدى عملاً يناسبه ، فكتبت للقاهرة أطلب الإذن بالعودة ، ودهش أعضاء السفارة من تصرفى ، فالعهد عندهم أن يتمسك كل شخص بهذا المرتب الكبير ، وأن يتحمل من أجله كل شىء ، ولكنى لم أستطع ذلك وعدت للقاهرة فى أول يوليو سنة ١٩٦١ •

هل نغبط رجال السلك السياسى أو نشفق عليهم ؟

الإجابة التى أراها واضحة أمامى هى أن نشفق عليهم تماما • إنها وظيفة الضياع ، ونصيب الأولاد من هذا الضياع كبير ، سواء تركوا فى القاهرة أو اصطحبوا ذويهم إلى الخارج ، وليس المال كل شىء ، وطالما كان المال وبالاً على جامعيه •

ولكن البلاد لا تستغنى عن السلك السياسى ، وعن التمثيل الدبلوماسى ، ولذلك لا بد من إعداد دقيق لهذه الطبقة حتى تعيش الوطن ، وتعرف الإيثار ، وتدرك أن الذى يأخذ من عرق الفقير المصرى مئات الجنيهات كل شهر ينبغى أن يقدم لمصر ما يتكافأ مع هذا المرتب الكبير •

سوكارنو وحتّى :

لست أحب أن أصور كل ما أعرفه عن الزعيمين الإندونيسيين الكبيرين : سوكارنو وحتّى ؛ لأنى لا أريد أن أدخل فى نقاش داخلى إندونيسى حتى لا أمس شعور هذا الشعب المرهف الحس • وفى كلمة مجملة كان سوكارنو زعيماً شعبياً تلتف حوله الجماهير وتهتف له ، وكان أحياناً يرقص معهم ويغنى ، وهو متحدث لبق وخطيب ماهر ، ولكنه للأسف تعاون مع الشيوعيين وفتح لهم بابا كاد أن يقضى على البلاد ولكن الله سلّم ، وثار عليه الجيش وانتزع السلطة منه ، واختفى الرجل حتى مات وكان حتّى رجل الخاصة ، رجل الفكر والمثل العليا ، عالماً بحّاثة ، كاتباً ومحاضراً عميق الفكر والدرس •

وكان هناك الحزب الإسلامى (ماشومى) بقيادة الدكتور محمد ناصر ، وهو مسلم عميق الإسلام يحب الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وهو كاتب طلى العبارة ، له شخصية جذابة ، ولكن صلته وصلة حزبه بالرئيس سوكارنو لم تكن طيبة ، ويمكن أو نقول إنها تشبه صلة الملك فؤاد ، والملك فاروق بحزب الوفد وبالنحاس باشا رئيس هذا الحزب ، والنتيجة واحدة فى الحالتين ، فإن الصراع بمصر بين الملك والوفد قضى على الاثنين فى النهاية كالصراع بين سوكارنو وماشومى ؛ وإن بقى فى نفوس الأشياع والأتباع ذكريات وآلام •

إلى إندونيسيا مرة أخرى :

أمضيت فى إندونيسيا ست سنوات وعدت منها سنة ١٩٦١ ، وبعد عشرين عاما أى فى سنة ١٩٨١ تلقيت دعوة من المملكة العربية السعودية لأشترك فى دورة تدريبية تعقد فى جاكرتا مدة شهر ، وقد فرحت بهذه الدعوة لأنها تعيدنى إلى وطنى الثانى ، وإلى الناس الذين أحببتهم وأحبونى ، وسرعان ما شددت الرحال وذهبت إلى هناك •

كان اسمى لايزال معروفا حتى للجيل الجديد الذى لم يشهدنى معلما ومتحدثا قبل سـنة ١٩٦١ ، وكانت كتبى فى مقارنة الأديان وفى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية يعاد طبعها ويتسع انتشارها . ولذلك كانت جموع من المسلمين على صلة وثيقة بى ، وبدأت عملى فى هذه الدورة وجددت لى مريدين ليعملوا فى حقل الدعوة الإسلامية .

وقد توالت وفود الزوار الأصدقاء لتحيتى ، وقدمت لى دعوات كثيرة للقاءات غير الدورة التدريبية فاستجبت بسرور وبشر .

وكان الطلاب الذين تخرجوا على يدى إبان وجودى فى اندونيسا من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦١ قد وصلوا إلى مناصب رفيعة بالبلاد . وأصبح بعضهم قادة وعمداء ومن كبار الموظفين ، وقد اقاموا لى أروع حفل شهدته ونعمت به فى حياتى ، وكان الحفل عبارة عن عشاء فى بيت واحد منهم ، وقد حضره عدد كبير من طلابى السابقين . ومعهم ابناءهم الذين أصبحت أعمارهم فى مثل أعمار الطلاب حينما كنت هناك فى الخمسينات . وإذا كان الولد امتدادا لأبيه وأمه فقد استطعت أن أنسب أكثر الجيل الجديد لطلابى وطالباتى السابقين ، وامتد الحفل الى منتصف الليل . وكان حافلا بالبهجة والسرور والمتعة ، وتخيلت نفسى رجلا زرع زرعا فى أرض خصبة واهتم بمزرعته كل الاهتمام فآتت أكلها ، ولهذا نعمت بهذا الجمع وهذا الحفـل كما لم أنعم من قبل .

نحن والشرق الأقصى :

هناك فى الشرق الأقصى ملايين المسلمين يعيشون فى إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وتايلاند وبورما والفليبين .....

وقد حمل أجدادنا الإسلام لهذه المناطق فى أول الأمر ، ثم ظهر من بين السكان الأصليين من حمل عبء نشر الإسلام وخدمته حتى أصبح المسلمون يكونون أغلبية بين السكان فى بعض البلاد ، كما أصبحوا أقلية يحسب

حسابها فى بلاد أخرى ، أو أقلية تصـارع لتحافظ على نفسها ، وأحيانا صاروا على قدم المساواة مع غير المسلمين من حيث العدد والنفوذ .

والمسلمون على العموم فى هذه المناطق لايزالون فى حاجة ماسة لمزيد من التعرف على الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ويوجد هنـاك مسلمون بالاسم ويُرْجى أن يقدَّم لهم الإسـلام بمبادئه وتشريعاته وأخلاقه ، ليتعمق هذا الدين فى نفوسهم ونفوس أبنائهم ، والعجيب أنهم جميعاً يتطلعون لمصر فى هذا المضمار ، يتطلعون لمصر كمركز قيادة فكرى للمسلمين جميعاً ، وإذا سـألتهم عن تاريخهم الإسـلامى تبين لك أنهم لا يعرفونه غالباً ، ويرقبون أن يكتبه لهم المؤرخون المصريون .

وأحب أن أعترف أن مصر — كغيرها من الدول المسئولة — لاتؤدى دورها فى هذا المضمار كما ينبغى ، فالمبعوثون المصريون لتدريس الإسلام والحضارة الإسلامية قلة قليلة تختفى فى هذا المحيط الصاخب ، وأكثرهم يقدِّمون الدراسات العادية عن الإسـلام كالفقه والتفسـير والحديث ، ولايعرفون الدراسات التى يتطلبها العصر الحديث كرأى الإسـلام فى السياسـة ، واتجاهاته الاقتصادية وتعليماتـه فى الميدان الاجتماعى أو الأخلاقى والتربوى والعسكرى ، وتلك هى الفروع التى تشملها الحضارة الإسلامية والتى تُعـدُّ منحة الإسلام لهداية البشرية .

وأكثر هؤلاء المبعوثين أو كلهم لا يعرفون مقارنة الأديان وهو العلم الذى يعد سلاح الداعية ، وبدونه لا يستطيع أن يشق طريقه بنجاح .

وفى كلمة موجزة ينبغى أن نوضح أن هناك فرقاً كبيراً بين الدعاة وبين المدرسين ، وأن هذه البلاد تحتاج لدعاة أكثر مما تحتاج لمدرسين ، فالمدرسون يبدأ عملهم بعد نجاح الدعاة ، فإذا قدم الداعيةُ الإسلامَ للضال واستطاع أن يجذبه لحوذة الإسلام ، بدأ بعد ذلك عمل المدرسين ليعلِّموا هذا المسلم كيف يصلى وكيف يصوم وكيف يؤدى مبادىء الإسلام ويلتزم بتوجيهاته ، أما الداعية فيعرف علوم المدرس معرفة تامة من فقه وتفسير وحديث وغيرها

من العلوم الإسلامية ، ولكن ينبغى أن يضيف لها علوم الدعوة ، وهى بالإجمال :

— إجادة لغة من اللغات العالمية على الأقل ، ثم معرفة لغة القوم الذين سيقدم لهم الإسلام ويدعوهم إليه . ويمكن أن تكون معرفة الداعى بهذه اللغة معرفة محدودة ، لأن حياة الداعية بين القوم ستجعله يطور معرفته بهذه اللغة بسرعة .

— هناك صفات شخصية يتحتم أن تكون بارزة فى الداعية وفى قمتها الإيمان العميق بالعمل الذى يزاوله ، وإحساس أنه يريد أن يعطى من فكره وجهده لخدمة دينه ووطنه ، ثم وضوح الفكرة ، وطلاقة اللسان ، وإجادة الحوار والمناظرة ، ثم سماحة النفس ، واتساع الأفق ، وحسن العشرة ، ثم الكرم ، وسمو الخلق ، والتطور الفكرى . وسعة الإطلاع . وقبل هذا وبعده أن يكون قدوة حسنة للناس . وأن يجعل الآية الكريمة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » نبراساً له وضوءا يهتدى بهديه .

— الدراسة العميقة لعلم مقارنة الأديان . ودراسة مقارنة الأديان ستضع أيدينا على جمال الإسلام وعلى الدور الذى يحمله ليكمل به محاولات الأديان لهداية البشر ، وسيستفيد الداعية من « مقارنة الأديان » فى مواجهة المبشرين بالمسيحية أو البوذية ، فهؤلاء يعرفون الإسلام ويتلمسون ما يعتقدونه نقاط ضعف فيه ليهاجموه عن طريقها كتعدد الزوجات والطلاق وانتشار الإسلام بالقوة ، ولا يجوز أن يقف الداعية موقف المدافع فقط بل يجب أن يعرف كيف يهاجم أحياناً ، ولن يكون ذلك إلا إذا تعرف على هذه الأديان ودرسها .

— الدراسة العميقة للحضارة الإسلامية بنوعيها ، أى دراسة الحضارة التجريبية . وهى إبراز دور الإسلام فى العلوم التى كانت موجودة قبل الإسلام كترقية العمران وتطوير ما عرفه الناس فى جوانب الفكر البشرى من طب ورياضة وفلك وموسيقى وغيرها ، ثم دراسة الحضارة الإسلامية

الأصيلة التى جاء بها الإسلام ولم تكن معروفة قبل الإسلام كاتجاهات الإسلام فى السياسة والاقتصاد ، وفى المجال التربوى والاجتماعى والعسكرى ، تلك الجوانب الحضارية التى تعد منحة الإسلام لهداية البشرية .

— التعرف التام على تاريخ المسلمين منذ مطلع الإسلام حتى الآن فى كل البلاد الأسلامية مع تصحيح ما ازدحم به التاريخ الإسلامى من أخطاء ، وقد جاء الخطأ للتاريخ من مصادر متعددة لعل أهمها أن تاريخ بعض الدول كتب فى عهد أعدائها كتاريخ الدولة الأموية الذى كتب فى عهد الدول العباسية ، وكذلك كُتِبَ تاريخ بعض الملوك والعظماء فى عهد قاتليهم أو منافسيهم كتاريخ الحاكم بأمر الله الذى قتلته ست الملك أخته بعد صراع طويل بين الاثنين ، وكتاريخ الخديوى إسماعيل الذى كتبه الإنجليز أو من سار فى فلكهم ، وكتاريخ سنى على الكبير الإمبراطور صنغى العظيم الذى كُتِبَ فى عهد أسكيا محمد الذى انتزع لنفسه السلطة بعد وفاة الإمبراطور ، والأمثلة كثيرة جدا على هذا النحو ، وقد صور هؤلاء الخلفُ سيرةَ السلف فى أسوأ صورة ، فأزالوا حسناتهم ، وبالغوا فى إبراز مساوئهم ، ونسبوا لهم الكثير مما هم منه أبرياء ، وقد حاولت فى موسوعة التاريخ الإسلامى أن أصحح هذه الأوضاع وأحق الحق قدر الطاقة .

ومن أسباب شيوع الخطأ فى التاريخ الإسلامى أن المستشرقين هم الذين كتبوه فى مطلع النهضة الحالية ، فجاء أكثر ما كتبوه حافلا بالظلم بعيداً عن الإنصاف ، وللأسف كان المستشرقون هم أساتذة الجيل الجديد من المسلمين فتأثر بعض التلاميذ بأساتذتهم ، وبخاصة أولئك الذين لم يكن لهم باع طويل فى الدراسات الإسلامية عندما أوفدوا إلى الغرب ليلتحقوا بجامعاته ، وكثيرا ما تقرأ لمسلمين فتحس أنهم صدى لمستشرقين ، لعمق آثار هؤلاء فى نفوسهم .

ذلك — بإيجاز — هو الزاد الذى يتحتم أن يتزود به الدعاة ، ولو كنا فى عهد استعمار لقلنا إن الاستعمار هو الذى يحول دون إنشاء معهد

أو معاهد للدعاة ، ولكن ماذا نقول الآن ولدينا عدد يفوق الحصر من الكليات والمعاهد العليا ، عدد يجعل من الصعب أن تحيط بأسمائها أو تعرف مدلولاتها ، ولكن ليس هناك معهد واحد للدعاة ، ومثل هذا المعهد سيقدم للدين الكثير ، ويقدم ألوانا من العون والتأييد [١] .

وفى ختام حديثنا عن الشرق الأقصى أرى من الخير أن أورد من الواقع حدثاً عشته يوما من الأيام فى صيف سنة ١٩٦٠ لعله يبرز للمسئولين مسئوليتهم أمام الله وأمام التاريخ .

كنت فى طريقى من إندونيسيا للقاهرة ، وتوقفت الطائرة فى بانكوك عاصمة تايلاند لنزول بعض الركاب وصعود آخرين وللتزود بما تحتاجه الطائرة ، وبعد فترة أعلن أن هناك عطباً خفيفاً يستدعى « قطعة غيار » من الخارج وأن الركاب لذلك سيمضون ليلتهم فى تايلاند ، ومن عادة شركات الطيران أن تتبارى فى إكرام الركاب فى مثل هذه الحالة ، فسرعان ما أخذنا إلى فندق عظيم ، ثم أعدت السيارات الفاخرة لتقوم برحلات فى العاصمة وفيما حولها لنشاهد الأماكن الأثرية بالبلاد ، ولنتعرف على معالم الحياة فى هذه المدينة ، ووزعت علينا كتيبات تبرز أهم هذه المعالم ، وكان من بينها مسجد ، وكان اليوم يوم جمعة ، وكنا قبيل منتصف النهار أى حوالى وقت الصلاة فطلبت من رائد الرحلة أن يأخذنى إلى المسجد ، فقد رأيتها فرصة لأرى المسلمين عدداً وفكراً ، وبعد قليل كنت فى المسجد ، ولم يكن المسجد مزدحماً بالمصلين وخطوت فى المسجد ، وبدأت أصلى ركعتين تحية المسجد ، وقد لاحظت أن بعض العيون بدأت ترمقنى ، بل رأيت غمزات وإشارات خفيفة أخذت تتجه لى ، فإن ملامح وجهى كانت تنبىء عن أننى غريب ، بل كانت تشير إلى أننى عربى ، فليست فىَّ شقرة الغرب ولا سمرة الإفريقى ، ولم يبق إلا أن أكون عربياً ، والعربى بالنسبة لأهل الشرق الأقصى رجل جاء من أرض النبى ، وينتسب له بالدم والعنصر والجنس واللغة .

---

(١) أنشئت بعض معاهد الدعوة بعد ذلك ، وارجو ان يكون لهذا الكلام نصيب فى انشائها .

وخطا نحوى شخصان واندفعا يسألان بإنجليزية ضعيفة ، وعربية ركيكة عن حالى ، فذكرت لهما أننى مسلم عربى مصرى ، وأستطيع أن أتحـــدث بالإنجليزية أو الاندونيسية أو العربية وتزايد عدد المحيطين بنا ويدأ حديث بيننا ، وأخبرتهم عن اسمى وعملى باندونيسيا ، ولم يكن اسمى غريباً عليهم فبعضهم سمعنى بالإذاعة أو سمع عنى من طلاب تايلاند المسلمين الذين يتعلمون باندونيسيا ، وقفز سؤال مهم هو :

ألا تحب أن تخطب لنا الجمعة ؟

وبدون تفكير أجبت : نعم أحب ذلك •

وكانت هذه الإجابة تشبه تيار كهرباء انطلق فى الأسلاك ، فقد أصبح هذا حديث كل الناس بالمسجد فى لحظة قصيرة ، وهنا تقدم شيخ من علماء البلاد وقال إن خطبة الجمعة من الدكتور شلبى شىء يحتاج إلى تنظيم لابد من الأخذ به فوراً ، وأعلن أنه يقترح تأجيل الخطبة والصلاة ساعة لتتخذ الأهبة لذلك ، وقبل الجميع هذا الاقتراح •

وبسرعة كانت هناك سيارة تحمل مكبر صوت ينطلق فى الشوارع تعلن عن وجودى بالمسجد وأننى سألقى خطبة الجمعة وأؤم المصلين وأتحـــدث للمسلمين ، وفى نفس الوقت أتخذت الاستعدادات لإحضار مكبر صوت بالمســجد وخارجه وإعداد مترجم يعرف اللغة العربية يقف أدنى المنبر وأمامه « سماعة » وهناك سماعة أخرى أمامى فوق المنبر ، واتفقت مـــع المترجم على أننى سألقى خطبتى ، فقرة فقرة ، وأتوقف عقب كل فقـــرة ليترجمها ، ثم أستأنف كلامى •

وانهال الناس إلى المسجد حتى ضاق بهم ، فبسطوا البسط خارجه ، وحضر كثيرون من غير المسلمين ليروا هذا التجمع الهائل ، وأشرف البوليس بكل أدب وذوق على النظام •

ولم أجعلها خطبة جمعة على النحو المألوف ، بل انتهزتها فرصة لألقى محاضرة طويلة فى مقارنة الأديان وماذا حقق الإسلام للبشرية من خير ، وذكرت فضل القرآن الكريم فى تطهير تاريخ الأنبياء السابقين ، وكان تاريخ هؤلاء الأنبياء مشوهاً تماماً فى الكتب المقدسة التى سبقت الإسلام بسبب تحريف هذه الكتب ، وتحدثت عن الحضارة الإسلامية بجانبيها التجريبى والأصيل ، ورأيت دمــوع الناس تذرف وروحانيتهم تبرز ، وبعد الصلاة انطلقت أصوات تُتَرجَمت لى بأنك لو بقيت هنا فإننا ننتشر بك الإســلام بسرعة ، بل وأقسم بالله على ذلك — لقد سمعت واحداً من غير المسلمين يقــول :

ابق معنا ونحن جميعاً ندخل الإسلام • وأجبت بإجابة حزينة مريرة ولكنها كلمة حق ، قلت : إننى للأسف لا أضع الخطط ولكنى أنفذها ولست استطيع أن أبقى ، فكل شىء مرســوم لى ولابد أن أسير طبقاً لمــا هو مرسوم ، ووعدتُ أن أنقل رغباتهم لمن يضع الخطط ، فأشعت فى نفوسهم الأمل ، وقد فعلتُ ، ولازلت أفعل ، ولكن الاستجابة كانت محــدودة أو كانت غير موجودة ، وأرجو أن يتحقق فى المستقبل ما عجزنا عن تحقيقــه فى المــاضى •

وأرجو أن أقرر أن مال الكويت والمملكة العربية السعودية وغيرهمــا من دول البترول ينبغى أن يلعب دوراً فى هــذا الشــأن • ولو تعاون مال الأغنياء مع فكر المفكرين وإخلاص المخلصين لكانت النتيجة خــير الجميع ورفاهية الجميع •

وقبل أن ندع الشرق الأقصى وتطلعاته للإسلام نورد فيما يلى مانشرته صحيفة أخبار اليوم فى العاشر من فبراير سنة ١٩٧٣ عن رغبة أهل كوريا فى التعرف على الإسلام ، وفيما يلى هــذا النص لعل فيه تذكرة لمن شــاء أن يتذكر •

مسئول كورى يشرح

لماذا لم ينتشر الإسلام فى كوريا

المسلم الذى يزور جمهورية كوريا الجنوبية يلاحظ مدى اهتمام حكومتها بتشجيع الأديان • فليس هناك أى قيد على أى مواطن لاعتناق الدين الذى يؤمن به ، والمذهب الذى يتبعه •

وهناك نشاط كاثوليكى كبير •• هناك ٣٥٠ كنيسة •• وهناك مدارس ومستشفيات وملاعب رياضية وجامعات مسيحية فى كوريا الجنوبية التى يدين معظم سكانها بالبوذية •

أما النشاط الإسلامى فقد اقتصر حتى الآن على أربعة آلاف من المواطنين فقط •

والفرصة سانحة لنشر الإسلام فى كوريا الجنوبية لأسباب كثيرة ، منها ان الرئيس الحالى بارك سنج هى ينادى بحرية الأديان • وعلى من يهمهم نشر الإسلام فى كوريا أن يتحركوا بسرعة فى عهد بارك سنج هى ، فربما يأتى بعده رئيس جديد للجمهورية الكورية ، تكون له اتجاهات دينية أخرى ، فتضيع الفرصة على المسلمين •

والكوريون يؤمنون منذ القدم (بهنانيم) وهى كلمة معناها الاله الواحد الذى لا شريك له ، وهذا أقرب ما يكون إلى الإسلام ، لذلك لن يجد المبشر بالدين الإسلامى صعوبة فى مهمته بين الكوريين •

والكورى الجنوبى لا يؤمن بالالحاد ، ولايؤمن بالشيوعية ، ولا يؤمن بالمادة البحتة • أن الكوريين يؤمنون بالروح وبالعقل وبالدين الصحيح •• والإسلام يملأ العقل بمبادئه ويسير مع الفكر والزمان والتطور •

وتسأل المسلمين فى كوريا الجنوبية عن أسباب عدم انتشار الإسلام فى دولة فتحت قلبها لكل الأديان فتسمع من يقول :

مطلوب إمكانيات مادية كافية ، نريد مسجداً كبيراً فى العاصمة سيول • الأرض غالية الثمن ، ولكن هذه المشكلة حلها الرئيسى بارك سنج هى ، عندما أهدى المسلمين قطعة الأرض ، وحتى الآن لم تتجمع الأمـــوال لبناء الجامع الكبير •

والمنح الدراسية التى تصل كوريا من الدول الإسلامية قليلة جـــدا ويكفى أن تعرف أن عدد الكوريين الذين أرسلوا إلى الدول الإسلامية فى منح مقدمة من تلك الدول لاتزيد على ٢٩ طالباً خـــلال الـــ ١٠ سنوات الأخـــيرة •

الخطر على الأقليات الإسلامية بالشرق الأقصى :

يثبت التاريخ بما لايدع مجالا للشك أن غير المسلمين عاشوا ويعيشون فى رحاب الإسلام فى أمن وسلام ، وكانوا فى كثير من الأحيان ينعمـــون بالغنى والترف أكثر من المسلمين ، ولكن الأقلية المسلمة لاتنال الأمن مع الأكثرية غير المسلمة ، وهـــذا ما يتضح لو تذكرنا مسلمى الأندلس والمسلمين فى الهند وفى اسرائيل • ومسلمو الفيليبين مثل صارخ فى العهد الحاضر ، وهذا يحتم علينا الجـــد لنشر الإسلام فى هذه المناطق لأن القوى المضادة لا تكتفى بالتبشير باديانها بل تسلك سبل الاضطهاد والعنف للقضـــاء على المسلمين والنيل منهم • ويتحتم على المسلمين كذلك أن يتعاونوا ويردوا هـــذا العدوان •

وأرفع القلم تاركاً الحديث لشاهد عيان مسئول هو الدكتور محمـــود حسن العروسى وكيل وزارة الخارجية المصرية ، وفيما يلى نص النقاش الذى دار بينه وبين مندوب صحيفة الأهرام (الأستاذ شوقى مصطفى)

ونشرته هذه الجريدة فى ١٩٧٢/٧/٢١ • ويتضح مما ورد فى هذا النقاش من حقائق ، التزام المسلمين جميعاً برعاية هؤلاء المضطهدين ، والتزامهم بالعمل حتى لا يتسع نطاق هـذا الاضطهاد فيمتد إلى مناطق أخرى ، وهاك هذا النص ، يقول الأستاذ شوقى :

أزمـة الأقلية المسلمة فى الفيلبين ارتبطت فى أذهان الكثيرين على أنها مشكلة اضطهاد دينى يتعرض له أربعة ملايين من المسلمين يسكنون الجنوب ويتمركزون فى مجموعة جزر ميندانا • وهـذا الاضطهاد الدينى من أهم الأشياء التى أثارت قلق كثير من الدول العربية حـول مصير تلك الأقلية ، وذلك بعد أن اتخذت الأزمة صـورة مسلحة ، وسقط الكثير من الضحايا • ولذا قبلت مصر وليبيا عرض الرئيس الفلبينى ماركوس لإرسال بعثة مشتركة تتقصَّى الحقائق وترفع مقترحاتها لحل المشكلة • وقد أعدت البعثة التى رأسها الدكتور محمود حسن العروسى وكيل وزارة الخارجية المصريـة تقريرها بعـد عودتها فى الأسبوع المـاضى من الفيلبين ، لعرضه علـى الرئيسين السـادات والقذافى •

وقد قابلت الدكتور العروسى وبدأت حديثى معه بسؤال حول أزمة الأقلية المسلمة بالفلبين وهل لها جذور أخرى بجانب الجذور الدينية ؟

فأجاب سيادته : أساس هذه المشكلة أن منطقة ميندانا التى يسكنها المسلمون كانت منطقة مهملة اقتصادياً واجتماعياً ، بمعنى أن مشـاريع الحكومة الفلبينية لتطويرها اقتصادياً كانت محدودة كمـا أن الخدمـات الاجتماعية والتعليمية كانت قليلة ، فخريجو الجامعات من المسلمين قلـة قليلة ، لأن مصاريف الجامعات باهظة ولا يستطيع أن يوفرها سـوى الأغنياء من المسلمين وهم قلة ، أما الأحوال الصحية فهى سيئة للغاية ، وقد اعترف الرئيس ماركوس نفسـه بأن ٦٠ فى المائة من سكان هذه المنطقة لم يَرَوْا طبيباً فى حياتهم •

وسألت سيادته : ولكن لمـاذا اتخذت المشكلة هذه الصورة العنيفة

حتى إننا نرى عصابات الكاثوليك المتطرفين تقابلها عصابات من المسلمين تحارب بعضها البعض وتشيع جواً مفزعاً بين السكان ؟

فأجاب : إن السبب المباشر لذلك — إذا تركنا مسألة التعصب الديني جانباً — هو مشكلة الأرض ، فالأرض فى تلك المناطق غنية وخصبة وأمطارها وفيرة ، وأهم منتجاتها الأرز والموز والمانجو وجوز الهند والأناناس ، ويقال إن بها بعض المعادن التى لم تستغل بعد ، ولسوء الحظ فإن نظام ملكية الأراضى فى تلك المناطق أحدث اضطراباً كبيراً ، ففى الماضى كان السلطان يمتلك الأرض وما عليها ، ومع تفتيت الملكية واختفاء الأقطاع تدريجياً ، كان الكاثوليك يقومون بتسجيل الأراضى لدى الحكومة ، أما المسلمون بسبب الجهل والتواكل فلم يهتموا بتسجيلها على أساس أنهم يعيشون عليها منذ مئات السنين • ومنذ عام ١٩٧٠ بذل بعض الملاك من الكاثوليك مجهودات كبيرة للاستيلاء على الأراضى بمساعدة عصابة إرهابية تسمى « إيلاجاس » أو « الفئران » وظلت تطرد المسلمين من أراضيهم بالإرهاب وحرق المساجد ، وقد حرق حتى الآن حوالى مائة مسجد ورأينا بأنفسنا بعض المسلمين الذين قطعت آذانهم اليمنى وأصابعهم وخاصة بين الصغار إمعاناً فى الإرهاب ، وهكذا كانت مشكلة الأرض ومشكلة التعصب الدينى توأمين متلازمين بالفليبين •

ومن ناحية أخرى فإن الزعامات الإسلامية فى تلك المناطق ليست متحدة ، فبعضها يؤيد الحزب الوطنى الذى يرأسه ماركوس ، وبعضها يؤيد الحزب الجمهورى المعارض ، وقد أدى ذلك إلى إضعاف وحدة المسلمين وعدم وقوفهم فى جبهة واحدة للمطالبة بإصلاح أحوالهم •

وعدت أسأله : ألا ترى أن حرق المساجد وقطع الآذان والأصابع يعتبر مؤشراً عنيفاً للاضطهاد الدينى ؟ وما رأيك فيما يقال من أن هناك عملية إبادة للمسلمين ؟

فأجاب : إن المعلومات المتوفرة لدى الحكومة تشير إلى أن هناك عناصر

تسللت إلى المنظمات الكاثوليكية المتطرفة مثل منظمة « إيلاجاس » بقصد إحداث الذعر بين المسلمين وطردهم من أراضيهم حتى تضطر الحكومة إلى إرسال قوات إضافية لحماية السكان ، الأمر الذى يترتب عليه خلو منطقة لوزون التى تقع فيها العاصمة مانيلا من قوات الأمن ، الأمر الذى يسهل معه بدوره استيلاء هذه العناصر على السلطة ، وقد اعترف الرئيس ماركوس بأن المنطقة المسلمة متخلفة ولكنه رفض فكرة الاضطهاد ، وفى رأيى وحسب مشاهداتى ليس هناك إبادة للمسلمين ، ولكن هناك ذعر وخوف بين المسلمين لأن عدد المسلمين اللاجئين الذين اغتصبت منهم أراضيهم أخذ فى الازدياد ، وثمة شعور من الخوف بالنسبة للمستقبل ، وإذا لم توقف الحكومة عصابة إيلاجاس — وهذا ما وعدنا به الرئيس ماركوس — وإذا لم تختلف الفروق الاجتماعية ، فسوف ينقلب الوضع الحالى إلى حرب دينية ، وربما كان حرق المساجد وقطع الأصابع والآذان هو بقصد التخويف ، هذا فى الوقت الذى يثبت فيه إن كنيسة واحدة قد أحرقت من جانب منظمتى « البراكودا » و « القمصان السوداء » المسلمتين ، وقد نشأت هاتان المنظمتان كإجراء مضاد لمنظمة « إيلاجاس » وقد قتل أفرادها بعض الكاثوليك المتطرفين أخذاً بالثأر فقد قتل أكثر من ألف مسلم •

— هل تعتقد أن الإجراءات التى تتخذها حكومة الفيلبين حاليا تعتبر كافية لوقف هذه الأعمال واستتباب الأمن هناك ؟

•• لا أعتقد أن الحكومة الفليبينية فعلت مايكفى وهى تقع عليها مسئولية حماية أرواح المواطنين ، وطالما كانت هناك أرواح تقتل وأملاك تسلب فهناك مسئولية على الحكومة ، وقد تحدثت مع وزير الحربيـة وقلت له إن عدم كفاية إجراءات الأمن قد يرجع إلى أن بعض جزر المسلمين نائية ، ولكنه أجاب إننا نتحكم تماماً فى جميع أنحاء البلاد ، وفى رأيى أن الحكومة يجب أن تسعى كحل للأزمة إلى إقرار النظام وحماية الأرواح والضرب بيد من حديد على منظمة « إيلاجاس » فإقرار الأمن فى تلك المناطق سيسمح بعودة الأهالى المسلمين إلى أراضيهم التى هجروها خوفاً

والتى اغتصبت اغتصاباً . وعلى المدى البعيد يتعين بذل مجهودات منظمة لرفع مستوى المعيشة فى تلك المناطق المتخلفة فقد هالنا ما رأيناه من فقر وجهل ومرض بين المسلمين هناك .

— كيف تستطيع الدول العربية أن تساعد المسلمين فى الفلبين ؟

.. للأسف ليست هناك أية سفارة عربيـــة ســوى سفارة مصر . والمبعوثون الدينيون هم من الازهر فقط ، وفى الواقع يجب زيادة عـــدد المبعوثين من الأزهر ، وإعطاء مزيد من المنح الدراسية للمسلمين فى الفلبين للدراسة فى القاهرة والعواصم العربية ليس فقط فى الشئون الدينية ، ولكن فى مجالات الزراعة والهندسة للاستفادة بهؤلاء فى المشاريع الزراعية المختلفة ، مثل إقامة السدود والقنوات وتنظيم شئون الرى . وقد ذكر لى أحد المحافظين المسلمين هناك أنهم لا يريدون طعاماً بل أجهزةً ومعـــدات زراعية لتطوير أراضيهم ، ومن الضرورى إقامة اتصال دائم مع حكومة الفلبيين لمتابعة ما وعدنا به الرئيس ماركوس من أنه سيبذل مجهـــودات كثيفة لإصلاح الأمور فى تلك المناطق البائسة .

* * *

تقارير من إندونيسيا عنى :

ولنعد إلى إندونيسيا أكبر دولة اسلامية بالشرق الأقصى أو بالعالم الإسلامى كله ، والتى تشمل عدة جامعات إسلامية يفد لها الطلاب من جميع ربوع المنطقة . أعود لها لأقرر أنها كانت ــ كما قلت من قبل ــ كريمة معى ، معترفة بالجميل ، ومن الوفاء لها أن أسجل هنا تلك التقارير الرقيقة التى أُرْسِلت لأولياء الأمور بمصر عن جهـــودى هناك ، أسجلها هنا لتبقى لا دليلاً على عملى ، بل دليلا على الخلق الطيب الذى يمتاز به هذا الشعب الكريم الذى لا يضيع عنده معروف .

K. H. MUCH ILJAS
MENTERI AGAMA R.I.
DJAKARTA

DJAKARTA. ____________

(شكر وتقدير)

يسرني في اللحظة التي أودع فيها سعادة الأخ الكريم الدكتور أحمد شلبي أستاذ الدراسات الأسلامية واللغة العربية بالكلية الأسلامية بجكجاكرتا والمنتدب من جامعة القاهرة للتدريس في الجامعات الاسلامية باندونيسيه ان أقدم شكري وتقديري على الجهود الطيبة التي بذلها سعادته في الحقل الثقافي والعلمي طيلة الثلاث السنوات التي قضاها في اندونيسيا، والتي كان فيها مثال النشاط و العمل المجدي .

إنني اذ أذكر له ذلك مع مزيد الفخر والإعجاب، أتمنى له اطراد السير في تأدية مهمته، كما أساله تعالى ان يجعل الفوز حليفه، وأن يحفه بعونه وتوفيقه

جاكرتا ٢٥ ذي القعدة ١٣٧٧
١٣ يونيه ١٩٥٨



وزير الشؤون الدينية
كياهي الحاج محمد الياس



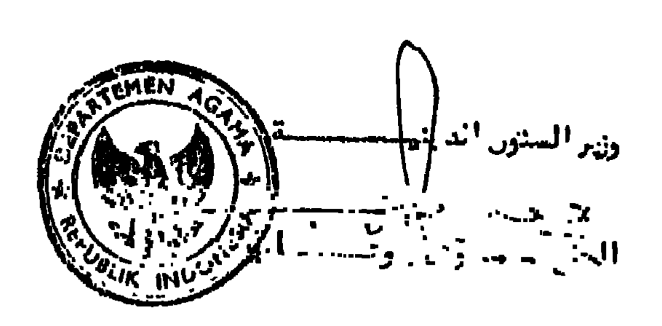
فى خلال هذا الاسبوع يغادر الاستاذ الدكتور احمد شلبى اندونيسيا عائدا الى الجمهورية العربية المتحدة بعد ان اتم بنجاح رائع ست سنوات استاذا للتاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية بالجامعة الاسلامية الحكومية

اننا نستعرض الجهود الكبيرة التى بذلها الدكتور شلبى لخدمة الاسلام والمسلمين فى بلادنا فنجد من الحق علينا ان نثنى ثناء عبقا على هذه الجهود وان نشكر شقيقتنا الجمهورية العربية المتحدة على ندبه للعمل بجامعاتنا ولانزال نأمل مزيدا من الوقت من الدكتور شلبى يواصل فيه جهوده ويستمر فى خدماته .

وهذا التقرير الموجز انما هو اعتراف بالجميل للسيد الدكتور على محاضراته الخاصة والعامة للطلاب والجماهير فى جميع ربوع اندونيسيا مركزا على كتبه التى نشرها لخدمة الثقافة فى اندونيسيا .

والله المسئول ان يجزيه خير جزاء

جاكرتا فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٦٢



وزير الشئون الدينية

INSTITUT AGAMA ISLAM NEGERI
AL DJAMI'AH AL ISLAMIJAH AL HUKUMIJAH
Tjiputat Pos Kebajoran Lama
D J A K A R T A
MIS

تقرير

الاستاذ الدكتور احمد شلبي شغل منصب استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية بالجامعة الاسلامية الحكومية مدة ست سنوات ؛ من اول مارس سنة ١٩٥٥ الى آخر ابريل سنة ١٩٦١ وبالاضافة الى التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية فقد ساهم الدكتور شلبي في تدريس عدة مواد اخرى من اهمها اللغة العربية وآدابها ومقارنة الاديان وتاريخ التشريع الاسلامي وغيرها .

وقد شارك الدكتور شلبي في تنظيم الجامعة واقتراح مناهجها وهيئة التدريس بها . وكان في ذلك مرجعا هاما لكثير من الموضوعات والبحوث

وفي خلال هذه السنوات طاف الدكتور شلبي باسم مصر اندونيسيا فزار الجامعات والمعاهد والهيئات والقى عددا كثيرا من المحاضرات التي كانت مثار اهتمام الجماهير والصحافة والاذاعة

وقد نشر الدكتور شلبي عددا كبيرا من الكتب اعيد طبع اكثرها عدة مرات ، وعالجت موضوعات كبيرة الاهمية ؛ ايقظت الشعور ودفعت ركب الحياة العلمية باندونيسيا الى الامام . ومن هذه الكتب المجموعة الرائعة التي الفها للتلاميذ لتعليم اللغة العربية على احدث الطرق .

ثم هناك الكتب العديدة التي نشرها لخدمة الدراسات الاسلامية والتي اقبل عليها الجمهور بشغف واهتمام

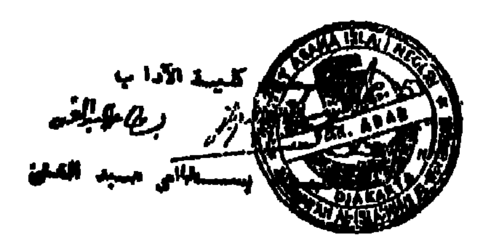
وكانت صلة الدكتور شلبي بتلاميذه وزملائه ممتازة للغاية ؛ فكان يحب الجميع ويحبه الجميع .

واعتقادنا ان الجامعة الاسلامية والشعب الاندونيسي لا يزالان في حاجة لمزيد من جهود الدكتور شلبي . ومن اجل هذا اقترحت الجامعة على الوزارة تجديد بعثه فوافقت الوزارة واصدرت قرارها بذلك ؛ ونحن نأمل ان يكون من الممكن موافقة الجهات المسئولة بالجمهورية العربية المتحدة على هذا التجديد خدمة للاسلام والمسلمين في اندونيسيا.

ونختتم هذا التقرير بشكر الجمهورية العربية المتحدة عموما والمؤتمر الاسلامي ووزارة التربية والتعليم بصفة خاصة على الفضل الذي اسدى لبلادنا بندب الدكتور شلبي لشغل هذه الوظيفة كما نذكر بمزيد الشكر والتقدير ذلك العون الكبير الذي حصلنا عليه من الدكتور شلبي داعين الله ان يحسن جزاءه على ما قدم من خير .

والله المستعان .

كلية الآداب



بستامي عبد الغني

في إدارة الوافدين والمبعوثين

عدت من إندونيسيا إلى أروقة وزارة التربية والتعليم المركزية كما كانت تسمى آنذاك (يوليو سنة ١٩٦١) ولم يكن لى ماضٍ فى العمل بالوزارات ولذلك أحسست أننى غريب فى هذه الوزارة على الرغم من أنها ترعى العلم وتنشر المعرفة ، ذلك لأن مجالى بها يوم عدت لم يكن فى قاعات المحاضرات أو دور العلم ، إنما كان فى المكاتب والشئون الإدارية ، ولكن لم يكن من ذلك بدٌ على كل حال ، بيد أن وكيل الوزارة أدرك صلتى بالخارج طالباً وأستاذاً فعرض علىَّ وظيفة « مدير مساعد » بإدارة الوافدين والمبعوثين فقبلت ، وكان مدير هذه الإدارة من الضباط الذين يباشرون ألواناً من النشاط فلم يكن وجوده بالإدارة منتظماً ، ولذلك ألقى علىَّ أكثر العبء .

والحقيقة أن الفترة التى أمضيتها بهذه الإدارة كانت — على قصرها — مفيدة جداً وتجربة جديدة علمتنى من شئون الإدارة مالم أكن أعلم ، مما سأقص هنا طرفاً منه .

اتخذتُ فى أول صلتى بهذا العمل خُلُق الجامعة ، ففتحت بابى لكل من أراد لقائى ، واتصلت بالوافدين اتصالاً مباشراً ، وظننت أننى بذلك فتحت فتحاً مبيناً لأقضى على الروتين ، ولأبتّ فى المسائل بسرعة وبدون وسائط ، ولقد نجحت الخطة فى أول الأمر ، ولكن ما إن عرف ذوو الحاجات أو مدّعو الحاجات هذا التصرف حتى انهالوا علىَّ أفواجاً ، فأصبحتْ حجرة مكتبى أشبه بركن من سوق مزدحمة بالناس ، ولم أكد أبدأ فى قضية حتى يقفز صوت من هنا أو هناك بمظلمة ، وأدركت أن هذه السياسة ستعطل العمل بدل أن تنجزه ، فعدت إلى الطريق المتبع ، أقفلت بابى وأصبح على الحاضرين أن يمروا بسكرتير ليُدْخلهم واحداً بعد واحد .

وقد ساءلت نفسى : لماذا لم تنجح خطتى الأولى بمصر مع أنى رأيتها ناجحة فى بلاد كثيرة ؟

والإجابة هى المركزية الصارخة التى تعيش فى بلادنا ، فتجعل رئيس المصلحة له يد فى كل شيء ، ولا يتم شيء بدونه ، بل تجعل الوزير نفسه يضع إمضاءه على حركات النقل والاستقالة لمدرس أو مدرسة من مئات الآلاف الذين يعملون بهذه الوزارة .

لقد كان معى فى هذه الإدارة أقسام كثيرة لمختلف الجامعات والمعاهد ويشرف عليها موظفون لهم درجة طيبة من الثقافة والخبرة ، ولكن الروتين أو اللوائح كانت تحتم أن يشركونى فى كل شيء على الرغم من رغبتى فى التفرغ لدراسة القضايا الكبرى التى تهم الوافدين والمبعوثين .

وبهذه المناسبة أذكر أنه كان من قريتنا عامل من عمال «القناة» الذين ألحقتهم الدولة بالعمل بالوزارات عقب القرار الذى اتخذ آنذاك بعدم التعاون مع سلطات الاحتلال ، وألحق هذا العامل بالمطافىء بالقاهرة ، ولجأ لى لأحاول نقله إلى محافظة الشرقية ، وقد أدهشنى أن وجدت أن وكيل وزارة الداخلية لابد أن يوقع على قرار هذا النقل .

ياالله ! ! كيف نشغل وقت وكيل الوزارة ووقت موظفى مكتبه بنقل عامل لا هو فى العير ولا فى النفير .

وفى هذا العام (١٩٧٣) تقدمت مشرفة اجتماعية بمدرسة إعدادية بطلب لجامعة الإسكندرية لتلتحق بعمل بها ، ووافقت الجامعة ، وبدأ شوط طويل لتوافق وزارة التربية والتعليم ، ووافق وكيل الوزارة بالمحافظة التي تعمل بها المدرسة ، ثم اتضح أن الوزير نفسه لابد أن يوافق على ذلك ، وأن الخطوات التى تمر بها هذه المسألة طويلة ومعقدة مما جعل صرف النظر عنها أيسر من تتبعها .

ومعنى هذا أن الروتين الذى عانيته فى مطلع الخمسينات وأنا أحاول نقل العامل ، وعانيته وأنا مدير مساعد للوافدين والمبعوثين لايزال باقياً حتى كتابة هذه السطور ، ولابد من قوة حاسمة لوضع حد لهذا اللغط .

* * *

وأخذت أباشر عملي عن طريق السكرتير ، ولكن ذلك منحني خبرة جديدة أيضاً ، فإن واحداً من الوافدين الإفريقيين حاول أن يدخل حجرة مكتبي دون أن يأخذ دوره عن طريق السكرتير ، ومنعه عامل الباب من الدخول ، فصرخ وغضب ، وارتفع الصوت فخرجت إليه وحاولت التفاهم معه ولكن صوته كان أعلى من صوتى ، وبدأ كأنه يهدد بالاتصال بالهيئات العليا لأنى لا أريد مقابلته ، وقلت له فى هدوء إننى سأتصل بالهيئات العليا قبله لأحتكم لها ، وأدرك أن تهديده سيظرّ به ، فتراجع وأخذ يعتذر ، واندهشت إذ يقف الضيف من صاحب الدار هذه الوقفة ، وأحسست أننا نُدلّل بعض هؤلاء ونعطيهم أكثر مما يستحقون ، وقد كنّا فى إنجلترا نتعلم على حساب أمتنا ومع هذا كنا نعترف بالجميل نحو أساتذتنا ونحو الشعب الإنجليزى كلما أكرم وجودنا .

ربما يخطر بالبال أننا ننتفع بهؤلاء سياسياً بطريق أو بآخر ، ولكن العجيب أن السنين تمر ، وقد مضى على هذه الحادثة حوالى عشرين عاماً ، ولا أزال أرى هذا الرجل فى القاهرة حتى يبدو أنه استطاب الإقامة هنا ، ومعنى هذا أنه لم يَنْقُل أفكارنا لبلاده ، ولم يقم بأى لون ينفعنا من الدعاية بين ذويه ، وأصبح قاهرياً ، ولو عاد لبلاده لكان فيها غريباً .

إننى أدرك فائدة الوافد للبلاد التى يتعلم بها وتربطه روابط وثيقة بأهلها ، روابط ثقافية واجتماعية ، ولكنى أقرر أن من الضرورى أن نحسن اختيار الوافدين ، بأن يكون خلق الوفاء والولاء واضحاً فيهم ، وأن يكونوا من عناصر صالحة ، لها ببلادها كيان ، وأن يكونوا من الأذكياء الموهوبين الذين يُغرس فيهم غَرْسُ العلم فينمو ويزدهر ، ينفع الواحد منهم به أهله ، وينشر من فكرنا وثقافتنا ، ويكون حلقة اتصال بيننا وبين بلاده .
ولكنى أقرر للأسف أن هذا النوع لم يكن كثيراً بين الوافدين .

* * *

ولم تطل بهذه الإدارة مدتى ، كانت فقط بضعة شهور ، أحسست خلالها بأنى لا أقوى على العمل الإدارى ، فاشتد شوقى للجامعة ، ففى رحاب الجامعة حياتى ونعيمى ، وبدأت أحاول الوسائل التى تنقلنى من جديد إلى حيث أحب أن أعيش ، كما سنرى فى الشوط التالى من أشواط رحـلة الحيـاة .

العودة للجامعة

العودة أو اللاعودة :

بعد كل هذا التطواف طيلة ثمانى سنوات خارج الجامعة بما فيه من جهد وما حقق من خير ، آثرت أن أعود للجامعة مرة أخرى ، فالجامعة لى كالهواء بالنسبة للانسان ، وكالوطن بالنسبة للغريب الشريد ، ولكن العودة للجامعة كانت عملاً متعذراً إلى حد كبير ، فقد كنت أشغل حينذاك الدرجة الثانية وعلى وشـك أن أنال الأولى بوزارة التعليم العالى ، وكان سلم الوظائف أمامى مفتوحاً ، وكانت درجة الدكتوراه التى أحملها ، والمؤلفات التى كتبتها ، والتجارب التى خضتها ، تفتح أمامى سبل التقدم ، وكان إخلاصى للعمل واضحاً ، وجدّى فيه متصلاً ، مما بشر بمستقبل مشرق فى حياتى بالوزارة لو بقيت بها ، ولكن ذلك لم يصرفنى قط عن الرغبة فى العودة للجامعة ، ولكن كيف السبيل للجامعة ؟ وإلى أى الوظائف سأتقدم ؟

إن إعلانات كانت تنشر من يوم الى يوم عن وظيفة أستاذ مساعد أو أستاذ ، ولكنى كنت أدرك أن هذا النشر عمل ظاهرى ، وأن هناك مستحقا بالجامعة استوفى المدة وتعتبر هذه الوظيفة فى الواقع أملاً أو قل حقاً له وإن كان القانون القديم يحتم الإعلان عنها ، فليس من اللائق أن أتقدم لهذه الوظيفة محاولاً أخذها من مستحق يترقبها .

بقى التقدم لوظيفة مدرس التى يكثر أن يعلن عنها وليس لها مستحق بالجامعة ، ولكن التقدم لوظيفة مدرس كان تصرفاً لا يقبله لى كثير من الناس ، فقد تقدمت بى السن ، ووصل زملائى فى الجامعة إلى وظيفة أستاذ ، وكان مرتبى بالوزارة يعادل مرتب الأستاذ وفى قبولى لوظيفة مدرس صعوبات اجتماعية واضحـة ، وصعوبات مالية ، إذ كان يتحتم تبعاً للقانون المعمول به آنذاك أن يضيع جزء كبير من مرتبى لآخذ فقط مرتب المدرس ، وكانت نهاية مربوطه أقل بكثير من المرتب الذى أتقاضاه ، ثم كيف أدخل هذه الوظيفة من الدرجة الثانية أو الأولى ، وقد دخلتها من قبل من الدرجـة السادسـة ؟

وصرخ فىّ بعض الرفاق يحذّرون من قبول وظيفـة مدرس بالجامعة

ويصورون لى مدى الخسارة الاجتماعية والمادية التى ستنزل بى ، ولكنى فى الحقيقة لم أتردد يوماً واحداً فيما اتجهت إليه ، فقد كانت الجامعة كل حياتى وكل مجدى ، وكنت أحس أن علىَّ رسالة كمعلم لابد أن أقوم بها ، وكمؤلف لابد أن أؤديها ، ولا وسيلة لتحقيق هذه الرسالة إلا فى الجامعة .

وإذا كان بعض الرفاق قد حذَّرونى من العودة للجامعة وشجعونى على البقاء بالوزارة ، فإن الجماهير العريضة فى العالم العربى والإسلامى وقفت موقفاً مضاداً ، وقفت تدفعنى للجامعة دفعاً ، وذلك بإقبالها على كتبى إقبالاً فاق كل أملى ، فأخذَتْ أجزاء موسوعة التاريخ الإسلامى وغيرها من الكتب التى كانت قد ظهرت لى تنفد جزءاً بعد جزء وكتابا بعد كتاب ، وأحسست بالمسئولية أن أسير فى إخراج باقى أجزاء موسوعة التاريخ وباقى الأجزاء من موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، وسلسلة مقارنة الأديان ، ولا يمكن السير فى إخراج هذه الكتب فى غير رحاب الجامعة .

وحزمت أمرى ، واتجهت إلى رجل يتحتم علىَّ أن أذكر اسمه هنا ، هو أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ، وكان آنذاك عميداً لكلية دار العلوم . وعرضت عليه الأمر ، فرحب بى ، وقال : هذه كليتك وهى ترحب بك ، ولما أثيرت فى جلستنا المشكلات الاجتماعية والمادية ، قال أحد الحاضرين إن معيداً بالجامعة يفضل أية وظيفة أخرى ، وشجعنى آخرون بأن مكانتى الاجتماعية لن تتأثر بكونى مدرساً أو أستاذاً ، فاستخرت الله وتقدمت ، ومن الحق أن ننسب الخير لذويه فنقرر أن مساعدات جمة وواسعة بذلها أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس وأيَّده فيها أعضاء مجلس الكلية وأساتذتها ، ليواجهوا بها اعتراض الدكتور ضياء الدين الريس رئيس قسم التاريخ آنذاك الذى عارض بشدة عودتى للجامعة دون سبب ، غفر الله له .

وعندما خطوت الخطوة الأولى فى فناء كلية دار العلوم للمرة الثانية تحسست ترابها بغبطة ، وقبَّلت هواءها ، ومسست جدرانها وأثاثها برفق ،

وقلت لنفسى : الآن أعود من جديد إلى كليتى وجامعتى ، أخـدم بالحب كله ، وبالإخلاص كله ، ما وسعنى السبيل •

والحق أشهد أن الزملاء — على العموم — لم يعاملونى قط فى أقـل من مستواى الطبيعى ، وكانوا يقدّموننى على أنفسهم مقدرين ظروف الأحداث التى مضت ، ولكن حدث مرة أن أُعِدَّ حفل بالدار فى مناسبة من المناسبات ، وكان اسمى بين أسماء الذين سيتحدثون فى هذا الحفـل ، ووضِعَ اسمى فى القائمة قبل اسم زميل كان يشغل وظيفة أستاذ مساعد وكنت لا أزال مدرساً ، فاحتج هذا الزميل على أن ترتيب الأسماء ليس طبيعياً ، وأثار احتجاجُه عاصفة من الضحك ، وقال له الزملاء : إنـه الدكتور شلبى بمكانته العلمية وتاريخه • ولكنه أصر على أن النظم الجامعية هى هى ، وبلغنى الأمر فترفقت فيه ورجوت القائمين بالأمر أن يكون اسمى آخر الأسماء ، وتمسكت بذلك ، وكان ما أردت ، وربما نالت كلمتى كثيراً من الحظوة لدى السامعين •

أقصد من هذه القصة أن أذكر أن بعض متاعب قابلتنى ولكنها كانت أقل كثيراً من الراحة النفسية والنجاح العلمى الذى صادفتهُ • وربما كان لهذا الوضع أثره الكبير الـذى دفعنى لمزيد من الصراع لأحقق لنفسى تعويضاً يتناسب مع الحياة الجامعية ، فصـدر الجزء تلو الجزء من موسوعة التاريخ الإسلامى ، وظهرت كل أجـزاء موسوعـة النظم والحضـارة الإسلامية ، وكل أجزاء سلسلة مقارنة الأديان ، وانتشر كتاب « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » فى كل الأرجاء ، وتُرْجِم الكثير من مؤلفاتى إلى لغات متعددة ، وعرفتْ الإذاعة والتليفزيون والصحافة والمجلات طريقَها لى ، وانهال الخير من كل اتجاه •

على أن الزمن مرّ ، وأصبحت أستاذاً مساعداً ثم أستاذاً وتحقق لى من الأهداف أكثر مما كنت أطمع فيه ، والشكر لله واهب النعم ..

* * *

وفى الجامعة مشكلات اجتماعية كبرى ، مشكلات تعيش فيها ومشكلات تنبع منها ثم تورق وتنمو خارجها ، وسنعيش مع مشكلات الجامعة فى الصفحات التالية ، ونذكر هنا أننا استبعدنا من هذه المشكلات ما سبق أن كتبناه مما عالجه التشريع الجديد الذى قضى على آفة الكراسى بالجامعة ، وقضى على رئيس القسم الخالد ، وقلل من دكتاتورية الحياة فى الجامعة ، وجعل أعضاء هيئة التدريس يختارون العميد كما يختار أهل القرية عمدتهم وأعضاءُ النقابةِ نقيبَهم .

ومع أن الكاتب ضنين بما يكتب ، ويرى فى الأوراق التى تحمل فكرَه قِطَعاً من قلبه ، فإننى نحيت هذه الأوراق جانباً لأن الهدف من هذا الكتاب هو محاولة الإسهام فى تطوير الحياة ، فإذا حُلّتْ مشكلة فمن الأولى أن نتطلع لسواها ، وألا نطيل الوقوف عندها بعد الحل .

والآن هيا بنا لنعيش مع بعض مشكلات الجامعة :

الجامعـــة والمجتمع

عشت فى جامعة القاهرة فترتين تفصل بينهما ثمانى سنوات ، امتدت الفترة الأولى من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٤ وبدأت الفترة الثانية مـن سنة ١٩٦٢ ولاتزال حتى كتابة هذه السطور فى صيف ١٩٨٢ .

والذى عاش فى الجامعة حياته متصلة ربما لا يدرك الفرق بين زمن وزمن أو ربما لا يحس الفرق ، لأن التطور البطىء لا يلفت النظر ، كمـا يحدث بالنسبة للطفل الذى ينمو يوماً بعد يوم ، أو ساعة بعد ساعة وأهله لا يحسون بذلك ، ولكن الذى يراه بعد غيبة يدرك هذا النمو بوضوح عند اللقاء الثانى .

والجامعة فى نظرى من ناحية صلتها بالمجتمع تختلف اختـلافاً واضحاً فى الفترة الأولى عنها فى الفترة الثانية ، ففى الفترة الأولى كانت الكلية مَعبْداً لنا ، وكنا نمضى فيها أوقات فراغنا فى لذة بالغة ، وكانت الصلة بين الأساتذة بعضهم والبعض قوية عميقة ، وكان التزاور كثيراً بين أعضاء هيئة التدريس ، وكان بالكلية سيارة واحدة يملكها أحد الأساتذة ، وكنا نسميها سيارة الكلية ، فمن حق كل واحد أن يركبها فى حدود الطاقة .

وكان للكلية نشاط يتصل بالعالم الخارجى ، ويتميز فى المناقشات ونتعرف على مشكلات الطلاب ونحاول حلها ، وكانت لنا رحلات وحفلات توثق الصلة بين الطالب والأستاذ ، وكنت أعرف طلاب الفرق التى أدرس لها جميعاً ، أعرف أشكالهم وأسماء أكثرهم ، وظروف عدد كبير منهم ؛ وكان الحب متبادلا ، وإجلال التلميذ لأستاذه قوياً .

وكان للكيلة نشاط يتصل بالعالم الخارجى ، ويتميز فى المناقشات العلنية لرسائل الماجستير والدكتوراه التى كانت تجذب عدداً ضخماً مـن الجماهير ، وفى المحاضرات العامة التى كان يقوم بها الأساتذة من الكلية أو يُدْعى لها أساتذة من خارجها ، كما كانت تتمثل فى الإسهام فى المقالات

والأبحاث التى تنشر بعدة صحف ومجلات ، وفى المساعدة فى كثير مـــن ألوان النشاط الذى يصل مجتمع الجامعة بالمجتمع خارجها •

وهكذا — بإيجاز — رأيت فى الفترة الأولى نشاط الأساتذة داخـــل الجامعة وداخل المجتمع ، وبعبارة أخرى رأيت مجتمع الجامعة صحيحا طيباً ، ورأيت صلة الجامعة بالمجتمع قوية عميقة •

ولمـــا عدت للجامعة بعد غيبة ثمانى سنوات رأيت كل شىء قد تغـــير تقريباً : رأيت صراعاً يدور فى طبقة هيئة التدريس بدل التعاون الشامل •

ورأيت انعزالية بين هيئة التدريس من جانب والطلاب من جانب آخر •
ورأيت عزلة إلى حد كبير بين الجامعة والمجتمع •
ورأيت الحياة الروحية فى المجتمع الجامعى تختفى أو تذبل •
لمـــاذا ؟ وما الذى قاد لهذا المصير ؟

إن الأسباب التى أدت لذلك متعـــددة ، بعضها صنعناه بأنفسنا ، وبعضها جـــاء عفواً ، وتكاتفت هذه الأسباب وتعاونت لتنال من الجامعة وتضعف من رسالتها •

وأخطر ما عانيناه من هذه الأسباب أن الثورة دفعت بعض الطلاب لينتسبوا إلى اتجاهاتها السياسية ، وأشيع أنهم يقدّمـــون التقارير عن أســـاتذتهم ، ولقـــد ســـئل أحـــد أصحاب النفـــوذ عن ذلك فأجاب بالإيجاب وقال : « اللى فى رأسه بطحة يحسس عليها » وكان معروفا عن بعض الطلاب أنهم يستطيعون الدخول على الوزراء دون كبير عناء •

ولم يكن هؤلاء الطلاب محدّدين ، وهذا جعل الشبهة تمتد للكثيرين مما أدى إلى قطع العلاقة الروحية بين التلميذ وأستاذه ، ومما زاد الطين بلة ، أنْ أشيع أن بعض الأساتذة لهم صلة بالمخابرات العامة ، وهـــذا قطع الوشائج بين الزملاء ، وأصبح الواحد يتحاشى زميله ويحتاط إذا تحـــدث إليـــه •

وكثرت أعداد الطلاب بالجامعة كثرة بالغة مما جعل من المستحيل أن تستوعبهم أسر ، أو يتعرف عليهم الأسـاتذة ، أو يجرى معهم حـديث اجتماعى .

وجاءت لعنة الإعارة إلى الخارج ، وأنا أسميها لعنة مع ما تؤديه من خدمات لمصر وللدول العربية والإسلامية ، وسبب ذلك أنها صرفت الأنظار عن الداخل ووجهتها إلى الخارج ، وأصبح المدرس أو الأستاذ يحسب بدقة المـدة الباقية له بمصر ليُصَرَّح له بالخروج للعمل بالأقطار الإسلامية أو العربية ، وأصبح بقاؤه بمصر ليس إلا استعداداً للسفر ، أو بلغة أخرى أصبح عمله بالخارج هو الأصل ، وعملـه بالداخـل ضرورة حتى يحين موعـد السـفر .

ودخل هيئة التدريس أناس ليخرجوا فى العام التـالى معارين منها إلى الخارج ، وتستطيع كلُّ كلية أن تقدم كشفاً عجيباً عن بعض الزمـلاء الذين ساحوا شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، وأن مدة بقائهم بالجامعة لم تكن إلا راحـة ، أو هدنة قصيرة بين رحلتين .

وفى كثير من الحالات طرق الأساتذةُ أبواب السفارات يطلبون العمل ، وكثيراً ماعوملوا بطريقة لاتناسب مستواهم ، وأذكر مرة أننى تلقيت برقية من إحدى السفارات العربية تستدعينى فى وقت محـدَّد لمقابلـة بعض المختصين بها تمهيداً لأن أُطلب للعمل بالقطر الذى تمثله هذه السفارة ، ولكن ظروف حياتى بالقاهرة : كتبى وأولادى ، وقبل كل شىء أو بعد كل شىء القناعـة التى عرفناها من ريفنا الطيب ، كل هـذا جعلنى لا أُحب الإعارة إلى الخارج ، فانتهزت هذه الفرصة لأثأر لإخوانى الذين كنت أعرف أنهم يعاملون معاملة أقل من مستواهم ، فكلفت زوجتى أن تتصـل بالسفارة لتخبر الملحق الثقافى أن الموعد الذى حدَّد فى البرقية لايناسبنى ، وأن تحديد موعد لا يكون من جهة واحدة وينبغى أن يتم بالتفاهم معى ،

وتمّ بناء على ذلك تحديد موعــد جديد ، وفى الموعــد ذهبت إلى مبنى السفارة فحاول البواب أن يمنعنى ، فأفهمته بأننى حضرت بنــاء علــى برقية وموعد محدد فأدخلنى ، وذهبت لمدير مكتب الملحق الثقافى ، فطلب منى أن آخذ دورى مع الجالسين ، فنظرت حيث رأيت طابوراً طويلا من الزملاء ينتظرون المقابلة ، فأحسست بالخجل ، وقلت للموظف : إننى حضرت بناء على موعد محدد وساعة هى الآن ، فأخبرْ مَنْ استدعانى بذلك ، ففعل • ودخلت ، واعتذرت • عن عدم رغبتى فى السفر ، وأستطيع أن أصور — لولا عدم الرغبة فى السير خلف التفاصيل — مدى انفعالات الاحترام وحركات التقدير التى ظهرت على اللجنة مع كلمات الاعتذار التى كنت أقولها ، لقد اعتدل من كان متكئاً ، وعثر على مكانه الطبيعى مَنْ يحس بالشموخ والكبرياء بسبب حرص المصريين على أن ينالوا الاعارة •

على أن الأساتذة معذورون تماماً فى حرصهم على السفر ، ويكفى أن يعرف القارىء أن مرتب المعار يصل إلى حوالى عشرة أمثال مرتبه بمصر ، فالمدرس الذى يعانى ضنك الأربعين جنيها بمصر يتقاضى فى بعض البلدان ما يعادل خمسمائة جنيه ، هــذا عدا السيارات الفارهة والحصــول على كل شىء بأيسر طريق •

وارتفعت تكاليف الحياة بمصر ارتفاعاً باهظاً ، فاتجه الأساتذة إلى الكدح المضنى لتحقيق لقمة العيش ، وقبلوا انتدابات رخيصة الســعر قاموا بها لتساعدهم فى حياتهم ، ويكفى أن نعرف أن من الأساتذة مــن يسافر كل أسبوع إلى أسيوط أو الإسكندرية لإلقاء محاضرتين مكافأتهما جنيهات قليلة ، وفى الرحلة كثير من العناء وضياع وقت طويل ، ولكنها سبيل للحصول على هذه القروش البسيطة ، والمهم هنا أن الكدح من أجل لقمة العيش قلل الصلة بين الأستاذ ومجتمع الجامعــة وبين الجامعــة والمجتمع العام •

والمأمول أن نتحاشى هذه العيوب كلها لتعود الجامعة منارآ يهـدى طلابها ولتمتد أشعته إلى الخارج وهاجة بهيجة •

وقد عالجت التشريعات الجديدة التى صدرت فى صيف ١٩٧٢ بعض العيوب التى أشرنا إليها فى الجامعة ، ويبقى أن نقترح حلولا لمـا تبقى من مشكلات فى المجال الذى تدارسناه فى الصفحات الماضية ، وهذه الحلول هى:

أولاً : لا يجوز أن تصبح عضوية هيئة التدريس بالجامعات معبراً للإعارة إلى الخارج ، ويتحتم على من يدخل عضواً بهذه الهيئة أن يبقى بمصر مـدة لا تقل عن ثلاث سنوات قبل أن يعار للخارج •

ثانياً : فيما يتعلق بالقبول بالجامعات يتْبَع التنظيم التالى :

(ا) الموهوبون فقط هم الذين تفتح لهم أبواب الجامعات ويفسح المجال لسواهم فى الأعمال المختلفة بحيث يوجهون حسب استعداداتهم إلى الحرف والفنون المتنوعة بعد الحصـول على الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية • ويفتح طريق الترقية أمـام من يَبْرِزَ نجاحاً فى حياته العملية من هؤلاء •

(ب) تحدِّد كلُّ كلية من كليات الجامعة العدَد الذى تقبله بنـاء على استطاعتها من جانب ، وعلى حاجة الدولة والتزاماتها من جانب آخر ، بحيث يجد كل من يتخرج من الجامعة عملاً ينتظره دون الوقوف فى الطابور الطويل لانتظار لفتة من القوى العاملة التى توزع المتخرجين ، لا للحاجة إليهم ، بل رحمة بهم ، وبحيث يختفى ما نشاهده من نقص فى المدرسين بالمدارس وفائض فى كثيرين من المتخرجين سواهم •

———

الرشوة ... وفى الجامعة

إذا دخلت الرشوة مكاناً أسرع له الانهيار ، وإذا دبت بأرض جاء على أثرها الضياع والانحلال ، وإذا اقتحمت دولة ولى عنها الأمن والخير والرفاهية .

وقد وقف الإسلام من الرشوة موقفاً حاسماً ، وندد بمرتكبى هذا العمل القبيح ، قال تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم » (سورة البقرة الآية ١٨٨) وقال عليه الصلاة والسلام : « الراشى والمرتشى فى النار » . وقال : مافشت الرشوة فى قوم إلا أخذوا بالرعب .

وبلادنا الحبيبة تعانى كثيراً من الأدواء الداخلية والخارجية ويقف العدو الشرس على أبوابها يهدد ماضيها التليد ، وعنصرها الطيب . وخيراتها الجمة ، وتعانى كذلك مشاكل اقتصادية واجتماعية ولكن أخطر ما أخافه عليها هو الرشوة ، وكنت بطبيعة سنى وثقافتى الدينية ومكانتى فى المجتمع أخاف الرشوة ولا أفكر فى أن أقدمها لتسهل لى أى عمل من الأعمال ، ولكننى لاحظت أن بعض حقوقى تعطل ، وأن أمور غيرى تيسر . فشكوت ذلك لرفيق كان يباشر مشروعاً كالذى أباشره ولكن دون عناء . فأوصانى بأن أقدم بعض المال لشخص معين . فصرخت فيه : إنى أخاف ذلك ، أخاف الله وأخاف الشخص نفسه أن يدعى أننى أقدم له رشوة . فأجاب قائلا : عن خوف الله كلنا نخافه ، ولكن ذلك للضرورة ، وأما الشخص فأنا به قمين ، وأكد لى أنه سيرحب بما يقدم له ولن يغضب .

ولم أستطع أن أستجيب لنصيحة صديقى ، وآثرت أن أخطو إلى منتصف الطريق ، فاصطنعت مناسبة خاصة وقدمت له ما يسمى « هدية » فقبلها عن طيب خاطر ، ومنذ ذلك الوقت وهو يبذل أقصى الجهد لتيسير أمورى فى ذلك المجال .

وهكذا اتخذت الرشوة اسماً جديداً خداعاً هو « الهدية » وأحياناً سيمت « عمولة » ولا تغير هذه الأسماء من الواقع شيئاً ، إنها رشوة بلاشك مهما كان الاسم الذى يطلق عليها ، وقد أدرك الفكر الإسلامى اتجاهات التحايل للحصول على رشوة بغير اسمها ، فاتجه الفكر الإسلامى إلى تحريم الهدايا للعمال ، قال عليه السلام : هدايا العمال غلول (أى خيانة) وقد وضح الرسول أن الهدايا للعمال أو الولاة يُقصد بها شىء من ورائها ، فقد ولى عليه السلام رجلاً من الأزد ليجمع الزكاة ، فلما عاد وأخذ يقدم ما جمعه من مال للرسول ، احتجز بعضه وقال هذا أُهدى لى : فقال الرسول ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدى إلىّ ؟ فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا [1] .

ومما فعله الفكر الإسلامى للقضاء على الرشا التى تقدم باسم غير اسمها أن منع الحاكم وأعوانه من أن يدخلوا الصفقات العامة بائعين أو مشترين ويقول عمر بن عبد العزيز فى ذلك : تجارة الولاة مفسدة ، وللرعية مهلكة [2] .

وهناك لافتة توضع فى أكثر الجمعيات الاستهلاكية ، وقد كتب عليها « ممنوع إعطاء البقشيش » وقد اعتاد الناس أن يقرأوا ما بين الكلمات وأن يتجاوزوا المدلول الأبله لهذه العبارة وأصبح معناها هو . « قدم البقشيش تجد ما يسرك » وقد طفت بلاد أوربا الراقية ولم أجد مثل هذه اللافتة ، مما جعل هذه العبارة ونظيراتها مشجعاً على عكس ما كتب عليها ، وتسرب هذا الاتجاه إلى كل الأشياء المناظرة ، فعلى الشاطىء لافتات تمنع لعب الكرة ولكن اللعب يدور تحت هذه اللافتات ، وتنشر الصحف أن لعب الكرة بالشوارع ممنوع فيسرع الصبيان للشوارع يحتلونها ويوشكون أن

---

(١) ابن تيميه : السياسة الشرعية ص ٤٦ .
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٣ — ١٠٠ .
وانظر دراسة شاملة عن هذا الموضوع فى كتاب ، السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى للمؤلف .

يمنعوا المرور بها أو أن يسيئوا للمارة • وفى الحدائق لافتات بالمحافظة على النظافة ويتجه الاهتمام — فيما يبدو — إلى محاربة النظافة حيث توضع هذه اللافتات •••• وهـكذا •

ولنعد إلى الرشوة لنقرر أنها إذا اقتحمت الجامعة تربت وتطورت مـع أجيال الشبان ومع مرور الزمن ، وإذا عششت فى هذا الجـو المقدس أفرخت وتكاثرت بشكل سريع وواسع ، ذلك لأن طلاب اليوم هم موظفو الغد ، وحاملو راية الحركات الوطنية والفكرية ؛ وإذا عرفوا الرشـوة واستساغوها نشروها فى مدى وجيز بكل الأرجاء ، وإذا أعطوا الرشـوة اليوم قبلوها غداً وكانت الكارثة ؟

هل عرفت الرشـوة طريقها إلى الجامعة ؟

لست أدرى • ولكنى أذكر من دنيا الواقع أمثلة محددة ، رجاء أن يكون لها أثرها فى تصفية جـو الجامعة المقدس •

أشرف على رسالة للماجستير لطالب مصرى يعمل بالخارج ، وتدور المراسلات بينى وبينه عن بعض نقاط العمل العلمى ، وقد زارنى فى إحدى إجازاته وسألنى عما إذا كنت أحتاج لشىء من الخارج ، وقبلت السـؤال بيسر ، لأننا للأسف نحتاج إلى بعض الأشياء من الخارج ، وليست هذه الأشياء — للأسف مرة أخرى — موجودة فى القاهرة التى كانت فى يوم من الأيام موئلا لطلاب كل الحاجات من مختلف الأقطار العربية والشرقية • ونماذج هذه الأشياء معروفة والحاجة إليها ماسة ، ومع هذا فقد ذكرت لتلميذى أننى أحب أن أعيش فى أى بلد كما يعيش أهله وألا أتطلع إلى ما عند الآخرين ، وتبعاً لذلك لم يأخذنى الشـوق إلى « الملوخية » وأنا بانجلترا ، ولا إلى « الفسيخ » وأنا بإندونيسيا ، ومع هذا الاتجاه فهناك أشياء لا غنى عنها ولا بديل لها عندنا ، ومثال ذلك بعض الأدوية البسيطة التى لا بديل لها هنا مثل دواء « أدكسولين » وثمنه خمسة عشر قرشاً وأنا محتاج له لالتهاب يظهر فى شفتى أحياناً وليس له بديل ، ومثل قطع غيار

للسيارة لامناص من الحصــول عليها من الخارج ، وأعطيت تلميذى مبلغاً من المــال مقدما يكفى لشراء ما طلبت ، وهددته أنى لن أقول عن مطالبى إلا إذا أخذ المــال ، فأخذه ، وتفضل فأرسل لى ما طلبت ، وكتب لى بعد حين يسأل عما إذا كنت أريد شيئاً آخر لأنه أوشك أن يعود فى إجــازة للقاهرة ، فطلبت إليه أن يرسل لى أولا كشف حساب دقيق عن الصفقــة الأولى ، واجابنى بأنه يرجو « الانفتاح » فى هذه المسائل لأن مرتبه يصل إلى خمسمائة جنيه ، ومطالبى بسيطة جداً ، ويرجو عدم « التدقيق » فكتبت إليه إننى قررت أن أوقف التعامل المــادى نهائياً بينى وبينــه فكتب لى يعتذر ، وأرسل الكشف المطلوب .

وطالب آخر ريفى يبدو على مظهره أنه إلى الفقر أقرب منه إلى الغنى ، قال لى مرة : إن والده يريد زيارتى . ودهشت لهذا الطلب ، فليس بينى وبين والده أية صلة ، ولم أره فى حياتى ولا مرة واحدة ، ومع هذا فقــد رحبت بلقائه كخطوة ريثما أفكر معه فى سبب هذا اللقاء . وأحسست بما يسميه الصحفيون « الحاسة السادسة » بأن فى الأمر شيئاً ، ولكنى لم أشأ أن اصرح له بشىء ، بل اتخذت طريقاً غير مباشر فذكرت لهذا الطالب قصة الطالب السابق الذى وقع فى خطأ لم أغفره لــه ، وارتبك الطالب الريفى ، وصرّح بأن والده كان ينوى أن يحضر لى بعض منتجات الريف . وصرخت فيه احذّره ، وذكرت له أننى فلاح ، ويرد لنا من الريف كل ما نحتاج إليه من منتجات الريف ؛ وكان طالبا ساذجاً فألح فى هــذا الموضوع ، مما جعلنى أقسم له أن ذلك لو حصل فإن ما يسميه هدية مع ماكتبه من الرسالة سيرسل للجامعة فوراً مع اعتذار عن عــدم الاستمرار فى الإشراف عليه .

وطالب ســورى لم أره فى حياتى ، اتصل بى تليفونيا متوســلاً للقائى بزميل كريم هو الأستاذ أنور الجندى ، وجاء الموعــد ولم يحضرا ، وبعد حوالى ساعتين اتصل بى هذا الطالب تليفونياً من بيتنا القديم إذ لم يعرف أننا انتقلنا إلى بيت آخر ، وقال إنه فى الطريق ، وأنه جاء وحــده

لعذر طرأ على الأستاذ أنور . وقلت له أن عندى عملاً بالتليفزيون الآن وإننى للأسف لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، وسألته إذا كانت لـه حاجة أستطيع أن أقضيها له ، فقال لى إنه يريد أن يسجل معى رسالة للماجستير ، فاعتذرت بأن عندى عدداً لا أستطيع الإشراف على أكثر منه ، ونصحته أن يطرق باب زميل آخر ، وذكرت له أننى فى المستقبل إذا تخرج بعض طلابى أمكن أن أفكر فى الإشراف عليه ، وانتهت المكالمة التليفونية .

وبعد قليل اتصل بى أقاربى الذين يسكنون فى المسكن الذى كان يتكلم منه الطالب السورى ، وقالوا لى إن الطالب ترك عندهم « لفّـة » وإنهم رفضوا أخذها ، ولكنه تركها وأسرع ، وقد بذلت جهدا كبيرا لإعادة « اللفة » إلى هذا الطالب الذى ظن أننى أقبل هذا المنكر .

وهذه الأحداث المتكررة جعلتنى أصرخ : هل أخذت مرة « رشوة » فشاع ذلك عنى وراح الطلاب يتقربون إلى بالرّشا ؟

وأجبت نفسى بأنى لم أقبل قط أية رشوة تحت أى إسم وأىّ ظروف . فلماذا إذن يقع ذلك معى ؟

وسألت بعض الزملاء عن ذلك فطمأنونى بأن ما حـدث لى حـدث لغيرى ، وأن ذلك أصبح عادة منتشرة .

ولست أدرى بعد ذلك إذا كانت هـذه « الهدايا » عرفت طريقها للجامعة وأن الطلاب تكلموا بها مع بعضهم البعض ، فراح كل منهم يقتحم ذمة أستاذه بهذا الثمن الرخيص .

وقد أثرت حديثى هذا فى أمكنة أخرى ، وتساءلت عن السر فى هذا الاتجاه ، وحاول بعض السامعين أن يهوّن علىّ الأمر وأن يوضح لىّ أن هذا الذى أشـكو منه شائع فى كثير من الأوساط تحت أسماء مختلفة ، وذكّرنى بعض الزملاء بالدعوات التى توجّه لكبار الناس هنـا وهناك

لزيارة بعض الأقطار وإلقاء محاضرة أو اثنتين هناك ، والتكريم الواسع والمكافآت الباهظة التى تدفع لهؤلاء ، ويحدث فى إثر ذلك تسهيلات لأبناء هذه البلدان أو تيسيرات مختلفة مما يوحى بأن المحاضرات الميمونة لم تكن كل شىء ، وقد أحس بعض كبار الزائرين بما تحمله هذه الهدايا من معان فرفضوا تسلمها ووجهوها للدولة ولم يأخذوها لأنفسهم .

تلك صيحة اكتفيت فيها بالحديث عن نفسى وعن تجاربى دون أى تلميح أو تصريح بغيرى ، وأرجو ان يقطع دابر هذا الوباء ، وألا يخدعنا أى اسم يحمله ، فقد قدمت هدية لعمر بن عبد العزيز ، فرفض قبولها ، فقال له مقدمها : إن الرسول قد قبل الهدية . فأجاب عمر : هى لرسول الله هدية وهى لنا رشوة . أى أن الرسول معصوم عن الانحراف عن الحق بسبب الهدية ، فالهدية ستظل هدية بالنسبة له ، ولكننا غير معصومين عن ذلك ، وستنقلب الهدية إلى رشوة معنا ، وذلك قول فى منتهى الحكمة .

واعتقادى ان الرشوة بكل أسمائها ينبغى أن تعد جريمة كبرى يتجه القانون لبيان خطورتها . وللتحذير منها ، وينزل بمرتكبها أقسى عقاب .

مشكلة الكتب الجامعية

من زوايا لا يعرفها الناس

الحديث عن الكتب الجامعية حديث قديم متجدد ، وقد أصبحت مشكلة الكتاب الجامعي مشكلة عويصة ، يمكن القول إنها استعصت على الحل إلى درجة كبيرة ، وكل الناس يذكرونها دون أن يستطيعوا أن يصفوا لها العلاج الشافي ، وسأحاول هنا أن أصور هذه المشكلة تصويراً حقيقياً . وأن أصف لها العلاج ، فأنا — كأستاذ وكزميل لأساتذة ومدرسين عديدين — أعرف عنها الكثير ، وأستطيع تشخيصها بدقة ، والتشخيص الدقيق يقود غالباً إلى العلاج الصحيح .

ولنبدأ بسؤال جرىء هو : هل كل أعضاء هيئة التدريس بالجامعات عندهم موهبة التأليف ؟

والإجابة الصريحة الجريئة هي بالنفى دون شك ، فالمدرس شيء والمؤلف شيء آخر ، وقد يكون المدرس مؤلفاً ، وقد لا يكون . والجيل الذى سبقنا من الأساتذة ، عَبَرُوا حياتهم العلمية مدرسين بالجامعة وأساتذة ، وكانوا موفقين فى وقفاتهم بالمدرجات وقاعات المحاضرات . ولكن الكثيرين منهم لم يدونوا شيئاً ، أو كتبوا كتابات قليلة ، وأسماء هؤلاء معروفة بوضوح فى المحيط الجامعى .

وفى الخارج يمضى الأستاذ عمره كله يحقق فكرة أو يُعِدّ بحثاً . فالاهتمام متجه للكيف ، وإذا استعرضنا الأساتذة الذين درسنا عليهم فى الخارج نجدهم جميعاً من هذا الطراز مثل برفسور لويس ودكتور ريس وبرفسور أربرى .

وكثيرون من شيوخ الأزهر عبروا القرون وعاشوا يعلمون ما كتبه السابقون ، وقلَّ من أمسك منهم بقلمه ليكتب كتابا أو مجموعة من الكتب .

وفى ضوء هذا الوضع لم تكن هناك مشكلة للكتاب الجامعى ، لا من حيث تأليفه وجودته ، ولا من حيث بيعه وتوزيعه .

وعندما بدأ التأليف فى الجيل السابق اتجه المؤلفون إلى الفكر العام ، وكان هدفهم خدمة العلم ، ولم يكونوا يكتبون — فى الغالب — للطلاب ، وإنما للمكتبة العربية وللمثقفين على العموم ، وتحت هـذا الشعار ظهرت مؤلفات أحمد أمين وطه حسين وأحمد الشايب ، وكان الإقبال عليها من خارج الجامعة أكثر من الإقبال عليها من الجامعة ، وبخاصة أن بعض كتاب ذلك الجيل لم يكونوا من أساتذة الجامعات مثل عباس العقاد والمازنى وهيكل وتوفيق الحكيم وسواهم ، وأقبل الناس عليهم إقبالا كبيراً .

وتطورت الأمـور فى الجامعة وأصبح التأليف ونشر المؤلفات أساساً للترقية ، ودخل عالمَ التأليف فئاتٌ من المدرسين والأساتذة المساعدين والأساتذة راضين أو كارهين ، ولا شك أن هناك كتباً رائعة وأبحاثاً ممتازة أخرجها الزملاء هنا وهناك ، فملأتْ فراغاً كبيراً فى المكتبة العربية ، واستحقَّ مؤلفوها التقدير والإعجاب ، ولكن بجانب هذه المؤلفات ظهر إنتاج فجٌّ كُتِبَ فقط لتحقيق الترقية ، وهنا أقف وقفة لأذكر بصدق بعض مظاهر هذا اللون من التأليف **ليعرف المسئولون والقراء أصل مشكلة الكتاب الجامعى** .

مَرَّ بنا مرة ونحن جلوس زميل من الزملاء ، ورأيناه يتجه للمكتبة بحماسة ، فناديناه ليجلس معنا ، فأجاب : آسف ، إنى ذاهب لأؤلف كتاباً لأن موعد الترقية قد أوشك أن يجئ . وهكذا اتجه هذا الزميل ليؤلف كتابا بالضبط كما يذهب الإنسان إلى مطعم ليتناول الغذاء أو إلى النادى ليستريح .

ولابد أن نتخيل مدى مالهـذا الكتاب من جودة إذ أُلِّف فى مثل هذه الظروف .

هل هذا النوع من التأليف قليل ؟ ويمثل أصحابه قلةً بين أعضاء هيئة التدريس ؟

الإجابة بالنفى ، وحسبك أن تعود إلى إحصائية لتدرك فيها أن أكثر ما يخرجه أعضاء هيئة التدريس يظهر قبيل الترقية بفترة وجيزة ، بل يقدم بعضهم أجزاء من الكتاب قبل أن يتم طبع الكتاب ، أو يقدمه مجزءا (ملازم) قبل أن يتم تجليده .

وفى ظروف كثيرة تحين فرصة أو فرص للترقية فى وقت غير متوقع ، كالتى تحين عند كتابة هذه السطور (يوليو سنة ١٩٧٢) إذ جُعلت مدة خمس سنوات كافية للأستاذ المساعد ليقدم إنتاجه ليصبح أستاذاً ، وكانت المدة قبل ذلك سبع سنوات ، فقد اتجه الأساتذة المساعدون الذين أمضوا الفترة اللازمة ليؤلفوا بعض الكتب حتى يتقدموا مطالبين بالترقية ، واتجهنا نحن إلى حثهم لإعداد أنفسهم لهذه الفرصة ، ولولا هذه الفرصة لتوانوا وتمهلوا فى التأليف .

وعندما يصل عضو هيئة التدريس إلى نهاية السلم أى إلى الأستاذية نجده يستريح من هذا التأليف أو التكليف ، وقل أن ينتج شيئا بعد ذلك .

وأعود فأكرر ما سبق أن أشرت إليه من أن موهبة التأليف موجودة عند كثيرين من الأساتذة ، وأن هؤلاء يؤلفون خدمةً للحركة العلمية واستجابة لدافع داخلى علمى ،ولكن حديثنا هنا عن التأليف الذى يكتب للترقية أساساً ، وما أكثر هذا النوع .

وعلى هذا فالجامعة لا تكتفى من المدرس بالتدريس وإنما تطالبه بالتأليف ، وعلى المدرس أن يؤلف طائعاً أو كارها .

ثم تبدأ خطوة أخرى بعد التأليف هى خطوة النشر ، فمَن الذى سينشر هذا الكتاب وينفق على إخراجه ؟ ولنتذكر أن متوسط تكاليف نشر الكتاب هى تقريبا ألفان من الجنيهات ثمنا للورق والأكليشهات وأجرة الطباعة . من الذى سيدفع هذا المبلغ ؟

الحقيقة الواضحة هى أن المؤلف أو مدرس الجامعة يواجه من الناشر سؤالا روتينيا هو : هل هذا الكتاب مقرر ؟

فإذا كان الكتاب مقرراً قبلـه الناشر دون تردد ، والتزم المؤلف بتدريس مادته وتقريره على الطلاب .

وإذا لم يكن الكتاب مقرراً فلا سبيل لنشره ، أو أن السبيل لنشره ضئيل للغاية وبخاصة للمدرسين الذين لا يزالون فى أولى درجات السلم ولم تشتهر أسماؤهم بعد .

حتى المؤسسات العامة التى يمكن اعتبارها حكومية مثل دار المعارف تسأل هـذا السؤال ، فإذا كان الكتاب مقرراً عرف طريقه للمطبعة دون توان ، وإن لم يكن مقرراً فأحسن ما يواجه به الكتاب هو الإحالة إلى لجان الفحص وقد يرْفَض دون إحالة إليها ، ولجان الفحص قد ترفضه وقد توصى بطبعه فإذا أوصت لجان الفحص بنشره فإنه يأخذ دوره بين مطبوعات الدار ولا يدرى أحد متى يجىء هذا الدور .

والكتاب المقرر يكون أحياناً مأساة ، فقد يكون ضحلا ، وقد يكون فى موضوع غير مهم ، ولكن التدريس يخضع له فلا يصبح المنهج هو أساس التدريس ، وإنما يصبح الكتاب هو الأساس .

ولست أستطيع أن أذكر نماذج من هذه الكتب ، وفى ذهنى منهـا عشرات النماذج ، لأن كتابى هذا لم يكتب ليشهّر بأحـد وإنما ليسهم فى إصلاح الأحـوال .

وفى كثير من الحالات يخسر المؤلف مبلغا ماليا إن نشر الكتاب على نفقته وذلك حيث تكون الأقسام قليلة الطلاب كقسم الوثائق والمكتبات بكلية الآداب ، حيث يمكن عدّ الطلاب على أصابع اليدين ، وحيث يقـل العدد ببعض الكليات ، فقد كانت كلية دار العلوم خلال سنوات كثيرة ، قليلة العدد مما لا يساعد على توزيع الكتاب توزيعاً معقولا .

وعلى هـذا فمشكلة الكتب الجامعية لا تمس الطلاب فقط ، ولكنها مشكلة يعانى منها المفكر ، ويعانى منها الأساتذة ، فالمفكر الرفيع يعانى من فيض التأليف الذى يصْنع من أجل الترقية لا من أجل خدمة العلم ،

وهو لذلك لا يجـد وسيلة للانتشار إلا عن طريق الطلاب الذين يرتبط نجاحهم بمطالعة هذا الكتاب •

والمدرس بالجامعة ضحية أيضاً من ضحايا الكتاب الجامعى ، ضحية وهو يعانى من أجل التأليف لغرض الترقيـة ، وضحية وهو يلتزم بتوزيع هـذا الكتاب تبعاً لوعد ضرورى قدمه للناشر ، وضحية وهو يقف أمـام لجان الضرائب تحاسبه بعنف وتطلب منه نسبة كبيرة مما ترى أنه حصل عليه من ربح فى بيع الكتب ، وهنا يتساءل المؤلفون ، وبعضهم يكتب فى الذرة ، وبعضهم يكتب فى الطب ، وبعضهم يكتب فى السياسة والآداب والأديان والتاريخ والحضارة ، هؤلاء جميعاً يتساءلون : لمـاذا يعفى مؤلفو الأغانى ومؤلفو الأفلام والتمثيليات •••• من دفع الضرائب على ربع صافى أرباحهم وما أكثر هذه الأرباح ؟ ولا يعفى من ذلك المؤلفون فى العلوم والآداب والاجتماع ؟ ألا تقف الذرة والفكر السياسى والعلمى أو ما ماثل ذلك موقف المساواة مع الأغنية والفيلم والتمثيلية [1] ؟

وننتقل الآن إلى نقطة أخرى هى أن القوانين الجامعية ترى التأليف معياراً يقاس به عضو هيئة التدريس ، وهذا يسلمنا إلى مجموعـة من الأسئلة هى :

١ — هل حقيقة يدل التأليف على مكانة المعلم العلمية ؟

٢ — وهل حقيقة لا يرقى إلى الدرجة الأعلى إلا من أسهم بأبحاث وكتب منشورة فى خدمة العلوم والمعارف ؟

٣ — وهل فحص الإنتاج يتم بطريقة دقيقة فينال كل ذى حق حقه ؟

فى الإجابة عن السؤال الأول نكرر ما سبق أن أشرنا إليـه من أن جودة التأليف لا تدل على براعة المؤلف كمعلم ، فكثيرون مـن المؤلفين يضيقون بالوقفة فى المدرج ، وقد يعجزون عن السيطرة على جماهـير الطلاب ، أو تكون أصواتهم غير قوية •••• وكذلك كفاءة المعلم لا تستلزم

---

(١) كان هذا التصرف المشين فى عهد عبد الناصر ، وقد صححت هذه الأحـوال بعده .

مهارة فى التأليف ، فقد يكون المعلم قادراً على فهم الفكرة من مراجعها وقادراً على نقلها آلى الطلاب ، ولا يستلزم هذا ملكة اقتراح مشكلة لم تكتب من قبل ، وإعداد مراجع لها ، ووضع خطة لبحثها ٠٠٠٠ إلى غير ذلك مما يتطلبه التأليف ، ولعل حاجة الجامعة إلى مدرس أشد من حاجتها إلى مؤلفين ، أو قل بوجه الدقة إن الجامعة إذا احتاجت الى مائة مدرس مثلا فإنه يكفيها عشرة من المؤلفين ٠

وفى الإجابة عن السؤال الثانى أقول فى إصرار إن الإجابة بالنفى ، وإن الناس جميعاً يرقون ، وأننا نغير فى التقرير لنجعله صالحاً كجواز مرور للدرجة الأعلى ، وأن أقصى ما تستطيع اللجان عمله هو التسويف قليلا ، أو طلب مزيد من الأبحاث أو تأجيل سنة ، ثم تكون الترقية ، ولو لم يُضف شىء ذو بال إلى ما قدمه عضو هيئة التدريس من قبل ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول أن يُقبل شخص ما عضواً فى هيئة التدريس بعد حصوله على الدكتوراه ، ثم يركن على الرف ، ويسبقه من كانوا بعده ، ليس هذا معقولا ولا واقعاً ، فواقع الجامعة يقرر أن الصف يمشى كطابور الجند ، ولو أصبح اللاحق سابقاً لحصل صراع ما أجدرنا أن نتحاشاه ٠

اللجان الدائمة للترقية :

وفى الإجابة عن السؤال الثالث تجدنا وجهاً لوجه أمام لجان الترقية وبخاصة ما يسمى اللجان الدائمة ، والحديث عن هذه اللجان طويل ومرير ، وقد تعرضت الصحافة لها بكثير من النقد ، وأحصت عليها صوراً عجيبة من الانحراف ، وسأنقل هنا ماذكرته جريدة الأخبار يوم ١١ من إبريل سنة ١٩٧٣ عن إحدى هذه اللجان ، يقول المحرر الأستاذ محمود عارف :

« شهدت قاعة لطفى السيد بجامعة القاهرة حدثا لا يتكرر كثيراً ٠٠ فقد أصدر مجلس الجامعة برئاسة الدكتور حسن إسماعيل رئيس الجامعة قراراً بإجماع الأصوات بترقية اثنين إلى وظيفة أستاذ مادة الكيمياء ، وهما الدكتوران : انجيل حبيب وجمال مصطفى بكلية الطب وترقية الدكتور

سعد الزنفلى إلى وظيفة أستاذ بكلية الصيدلة ، وذلك على خلاف ما قررته اللجنة العلمية .

« ولقد جاء إجماع مجلس الجامعة بأحقية الثلاثة فى الترقية بعد أن تبين المجلس أن هذه اللجنة وقعت فى تناقض خطير مع نفسها . فهى توافق على ترقية البعض وترفض الآخرين رغم أن أبحاث الفريقين واحدة .. وتناظرت أبحاثهم التى تقدموا بها للترقية فى فترات ليس بينها فاصل زمنى كبير .. فقد عقدت اللجنة اجتماعاً فى يناير والثانى فى مارس من العام الحالى .

« إن الأصل فى اللجنة العلمية أيا كان تخصصها إنها أعلى سلطة علمية ، كلمتها هى القانون وأعضاؤها قضاة يحكمون بين الناس بالعدل . لا تستهويهم الأهواء ولا تغريهم المنافع المتبادلة .

« ولكن ما حدث أمر يؤسف له ، لأن الأستاذية تسمو على الأحقاد . وتعف عن ارتكاب صغائر الأمور ، فهى رائدة تضيف ولا تهدم ، تثرى الحياة الجامعية بالعلم النافع والخلق القويم .. ولا يكفى أن يرفض مجلس الجامعة قرارات هذه اللجنة ، بل ينبغى أن يكون هناك الثواب والعقاب . هذه ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن المجلس الأعلى للجامعات يبحث إعادة تشكيل اللجان العلمية فى جميع التخصصات ، فهل لنا أن نطلب إعداد صيغة قسم يؤديه أعضاء اللجان الجدد أمام رئيس المجلس الأعلى للجامعات قبل توليهم مسئولية هذا العمل الخطير . وهذا أمر ليس بجديد ، فهو نظام معمول به فى النيابة والهيئات القضائية » .

وكلمة الأستاذ محمود عارف قوية وصريحة لا تحتاج لمزيد من البيان ، ولكنها تفتح لى الباب لتقديم دراسة تحليلية دقيقة عن أسباب هذه « المزالق » التى تعرضت لها هذه اللجان .

وكلمة مزالق هذه مقتبسة من حديث صحفى آخر نشره الدكتور

عبد المغنى خلف الله الأستاذ بجامعة القاهرة بجريدة الأخبار فى ١٩٧٣/٤/٢٥ يتحدث فيه عن مزالق بعض اللجان ونقاط الضعف فيها .

ولابد أن الدراسة التى أقدمها هنا ترتبط باللجنة الدائمة للتاريخ ، فمعرفتى بها أوسع وصلتى بها أعمق ، ولى معها تجربة تدعو للدهشة ، وأنا أشير لهذه التجربة وأنا أستاذ وقد وصلت إلى أرقى درجات السلم ، ولكنى أخاف على الأجيال القادمة ان يكون مصيرها فى أيدى هذه اللجنة .

وعندما أتعرض للحديث عن اللجنة الدائمة للتاريخ أجد فيضاً من المعلومات التى لو دُرِست لأمكن أن يتغير وجه هذه اللجنة ، **والمعلومات عندى على كل حال ، وأنا مستعد للادلاء بها لو اتجهت العناية لتصحيح الأوضاع فى هذه اللجنة** ، وأكتفى هنا بالقليل من القول حتى لا ننشر على العالم أخطاء تردَّى فيها بعض من تلعب بهم الميول على نمط ما روته كلمة الأستاذ محمود عارف .

وخلاصة ما أذكره هنا هو :

١ — هناك تعصب واضح لمعهد ضد معهد فى هذه اللجنة .

٢ — هنا أريد أن أقول إن اللجنة إما أن نصفها بأنها لا تقرأ الإنتاج الذى يُقَدَّم لها أو أنها لا تفهم ما تقرأ ، فليختر أعضاء هذه اللجنة أى الطريقتين أيسر لهم ، وعندى الأدلة واضحة ومحددة على هذا القول .

٣ — فى حالات معينة استبعدت اللجنة ترجمات قام بها المؤلف من اللغة العربية إلى لغات أجنبية ، بحجة أن الأصل العربى قدم لترقية سابقة ، ونسيت اللجنة أو تناست ، أن النقل إلى اللغة الأجنبية عمل قائم بذاته ، فالترجمة من اللغات الأجنبية أو إليها عملٌ علمى يحسب للمؤلف أو المترجم .

٤ — فى حالات معينة استبعدت اللجنة طبعات جديدة بها زيادات مهمة بحجة أن الكتاب قد قدم لترقية سابقة على الرغم من تنبيهها إلى التطور الكبير فى الدراسة فى الطبعات الجديدة التى حدثت بعد الترقية السابقة .

وأساس العناء الذى ترزح هذه اللجنة تحته هو انتقال الأمر مـن الرعيل السابق إلى الجيل الجديد ، فيوم أن كان أساتذتنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة والمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة وأمثالهم يحكمون علينا كانت النزاهة طابع الحكم ، ولكن الأمر قد تغير يوم ضمت اللجنة زميلا سبق إلى الأستاذية فَضَمَّ إلى اللجنة وأصبح يحكم على زميل له تأخر عنه عاماً أو عامين • وربمـا كان هذا أقدم منه تخرجاً أو أكبر منه سناً ، وفى هذا الجو ظهرت المنافسة بل الأحقاد •

ويندهش القارىء عندما يرى هذه اللجنة تجيز من لم تعرف المكتبة العربية له مؤلفا واحداً ، وتعرقل أو تحاول أن تعرقل من شهدت لهم كل الأوساط العلمية فى الداخل والخارج بالكفاءة ، ومن أثروا المكتبة بمؤلفات عديدة ظهرت طبعات متعددة منها •

وكلمة أخيرة عن هذه اللجان فإن عضويتها خالدة تقريباً ، ومعنى ذلك أن العضو فيها يتحكم فى الطابور الذى يقف خلفه لأنه لابد لهـذا الطابور أن يمر عليه ، وليس هذا التحكم ظناً بل هو واقع تؤيده شواهد محددة •

وفى كلمة أخيرة أقترح أن يُوقَف نشاط هذه اللجان ، وأن تُؤلَّف لجان خاصة لكل حالة ، لعلنا نقضى على هـذا السيف المصلت على جماهير المثقفين •

عودة لمشكلة الكتاب الجامعى :

ولنعد لمشكلة الكتاب الجامعى لنقرر أن التآليف للترقية حَرَمَ المجتمع الجامعى من التأليف الهادىء الهادف المتمهل الذى لا يرمى إلا لخير الناس وخدمة العلم •

وفى ظل هذا التأليف المرتبط بالترقيات اختفى التأليف الجماعى أو قلَّ ، وعن طريق التأليف الجماعى كان يمكن أن تزود المكتبة العربيـة

بطاقات يكمل بعضها بعضاً ليكوّن العمل فى مجموعه ذخيرة علمية مفيدة ، فلو أن أساتذة التاريخ عُنوا بكتابة التاريخ واتجه كل منهم لكتابة حقبة تخصّصه ، لتكوّن من العمل الجماعى موسوعة ضرورية دقيقة فى أقصر وقت ممكن ، ولو فعل ذلك أساتذة الفلسفة والقانون وغيرها من العلوم لعاد ذلك بالخير على المكتبة العربيـــة وعلى المثقف العربى ولكن ذلك لا يتم فى ضـــوء الوضع الحالى ، لأن التوقيت الزمنى لا يوافق الجميع ، ولأن الاهتمامات مشتتة ، والعمل الفردى هو هدف الترقية الفردية ..

اقتراحات لحل مشكلة الكتاب الجامعى :

لقد وعدنا فى مطلع هذه الدراسة أن نصف العلاج لهذه المشكلة ، فماذا عندنا لها من علاج ؟

والإجابة جرئية نسجلها فى النقاط التالية المتتالية :

أولا : ينبغى أن نتذكر تماماً أن التأليف الحـــالى — بشكل عام — لم يخـــدم الفكر ، ولا يدل على نبوغ المدرس ، وإسهامُه فى خدمـــة الثقافة محـــدودة للغاية ، فينبغى أن يتوقف الالزام به ليصبح التأليف بدافع الرغبة لا بدافع الترقية ، وهو بهـــذا سيقلّ قلة ظاهرة ، وبالتالى سيزول عبء التكليف بشراء هذه الكتب .

ثانياً : كل الناس فى مختلف الأعمال يرقون لمناصب دون تأليف بل بإجادة العمل الذى يوكل لبعضهم ، وإذا كان لابدّ من أبحـــاث علميـــة فينبغى أن تكتفى الجامعـــة بتقديم هـــذه الأبحاث مخطوطة أو مكتوبة على الآلة الكاتبة ، وتقـــوم الجامعة بنشر ماتراه ممتازاً منها ، وهـــذا أيضاً سيزيل الكثير من الكتب التى تخلق مشكلة الكتاب الجامعى .

ثالثاً : تهتم الدولة اهتماماً جريئاً وواضحاً بحل مشكلة مرتبات أعضاء هيئة التدريس ليتَنَحّى الكتاب تماماً من أن يكون مصـــدر رزق ، وسنتكلم بعد قليل عن الشكوى المالية لأعضاء هيئة التدريس .

رابعاً : يتوقف طبع المذكرات توقفاً تاماً ، فأكثرها للاستهلاك المحلى ولا يليق بالجامعة .

خامساً : وللمحافظة على المستوى العلمى للجامعة يوجه أكبر اهتمام لاختيار أعضاء هيئة التدريس من أول درجات السلم فلا ندع فرصة للتسلق والتسلل ، ويكون ذلك باختيار المعيدين من بين العشرة الأوائل لكل فرقة ، والتعرف على قدراتهم خلال عملهم بالدراسات العليا ويمكن الاستغناء عن أى واحد لا يثبت كفاءة ممتازة خلال هذه الدراسات . وإذا دخل المعيد هيئة التدريس بعد حصوله على الدكتوراه تترك له التأليف ليكون منطقة حرة بالنسبة له ، ويرقى بعد مدة معينة إلى أستاذ مساعد ، ثم بعد مدة أخرى إلى أستاذ ، على أن يكون للتأليف ميزة خاصة يحصل عليها من يؤلف شيئاً ذا بال ، فقد يسمى مدرساً متخصصاً ، ويكون للتخصص علاوة مالية كتلك التى تخصص لرئيس القسم تشجيعاً على التأليف الراقى الذى لا يلجأ له إلا الموهوبون ، وتظل هذه العلاوة تصرف للتخصص مدة ثلاث سنوات مثلا ثم تقطع إلا إذا قدّم عملا جديداً فيه إبداع وموهبة .

وبمناسبة الحديث عن تربية المعيدين ليصبحوا أعضاء بهيئة التدريس ، أقرر أن من الضرورى أن نلاحظ فى توجيههم مواهبهم الذاتية وما بهم من حس وذوق حتى يصبح مدرس الأدب أديباً ، ومدرس العروض شاعراً ومدرس البلاغة بليغاً فصيحاً ، فبعض الدراسات تحتاج مع الاطلاع والبحث إلى حسٍّ وذوق وموهبة خاصة .

سادسا : يقرِّر القسم المنهجَ الذى يُدْرَس ، ويوصِي بكتاب من اثنين أو من ثلاثة ليستعين به الطلاب ، سواء كان مؤلفو هذه الكتب ضمن هيئة التدريس أو خارجها ، ويتحتم على من يقوم بالتدريس أن يلم بالمنهج كله فى محاضراته ، ويحدَّد ثمن مناسب لكل ملزمة من الكتب المقررة وعدد مناسب من الملازم لكل ساعة من ساعات الجدول ، ويمكن أن

يكون ذلك فى حدود ثلاثة قروش للملزمة ، وعشرين ملزمة للساعة مـن ساعات المحاضرات النظرية ، وفى الدراسات العملية ينظم ما يقابل ذلك .

سابعاً : تسهم أطراف متعددة فى تيسير الكتاب للطلاب بوجه عام وللفقراء منهم بوجه خاص ، وأقترح لذلك أن يسهم المؤلف بنسبة مئوية من الثمن تخصم للطلاب جميعاً باعتبار الكتاب يباع منه عـدد كبير ، فكأنه يباع بأسعار الجملة ، وتكون هذه النسبة بين ٢٠ ٪ و ٢٥ ٪ وتسهم الكلية بمبلغ نشترى به نسخاً تعادل ٥ ٪ من عدد الطلاب ، ويمكن أن يسهم صندوق الطلبة والحكومة أو الحكم المحلى بمبالغ مماثلة ، وتعار هذه الكتب للطلاب الفقراء بطريق المشرف الاجتماعى الذى يعرف هـؤلاء الطلاب والطالبات .

ثامناً : يتم الاتفاق مع المؤلفين على عدم إجراء تغيير ذى بال عند إعادة الطبع إلا كل سنتين ، بحيث يمكن الانتفاع بالنسخ المعارة لدفعتين من الطلاب ، مع ملاحظة أن استعمال هذه الكتب مدة عامين سيقضى عليها تقريباً ، فلابأس من تجديد الطبع مع الزيادات وتجديد الشراء على هذا النسـق .

ولعلنا بذلك نكون قد وصفنا الحل الصحيح لمشكلة الكتاب الجامعى ، وأوقفنا سيل الكتب التى ليست إلا معبراً للترقية ، وهو معبر يخلق مشكلات جمة فى نواح متعددة . والله الموفق .

استاذ الجامعة وشكواه المالية

الحديث عن شكوى أساتذة الجامعات من قلة مرتباتهم حديث مشهور . ولكن ما جذور هذه القضية ؟ وما مدى العناء الذى يقاسيه هؤلاء ؟

أريد هنا أن أعرض هذه القضية بدقة ، فهى فى الحق ليست قضية الأساتذة وإنما هى قضية الرأى العام ، قضية عشرات الآلاف من البيوت التى تتطلع لتَلْحِقَ أبناءها كل عام بالجامعات ، ولكنها قلما فكّرت فى الأساتذة الذين سيتلقّون أبناءهم هناك ، وهذا فى الحق يسجّل عتباً على الرأى العام ، ونقداً لتفكيره ، فكيف تحرص الأسرة بمختلف الوسائل لينال ابنها درجات عالية فى الثانوية العامة حتى يلتحق بالجامعة . ولا تفكر إطلاقاً فى الجامعة التى ستتلقى هذا الابن ؟

هل الجامعة بناء شامخ يضم الأولاد ولا شىء بعد ذلك ؟

إن المربين يقولون إن الجامعة أستاذ وطالب ومكتبة ومعمل . وليس البناء الشامخ وقاعات المحاضرات إلا تحسينات أضافها التقدم المـادى . وكان سقراط يعلم مريديه تحت ظلال الأشجار ، وكانت مساجد المسلمين تجذب العلماء والطلاب ، وطالما أخرجت للعالم خيرة العقول فى مختلف العلـوم .

ويحدثنا التاريخ أن خلفاء المسلمين كانوا يضفون الهبات والمرتبات على المعلمين بشكل وصل أحياناً إلى حد الخيال ، فقد كان المأمون فى بيت الحكمة يعطى للمترجمين زنة ما يترجمونه من الذهب الخالص . فالـذى يترجم كتاباً يأخذ ثقله ذهباً ، ولم تكن الكتب تكتب على أوراق ، وإنمـا على سعف النخل والقماش وأحياناً على قطع من الحجارة ، وهذا يدلنا على الأجر الضخم الذى كان يناله المترجمون والمفكرون ، ويحكون من الجاحظ أنه دخل البصرة مرة ، ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة . فسأله ميمون بن هارون : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم الجاحظ وقال :

أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبى داود فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنحل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفتُ عن البصرة وكأنَّ لى فيها ضيعة لا تحتاج إلى تجديد أو تسميد »[1] .

ومعلم الجامعة ليس ككل المعلمين ، لأنه يعطى من عقله ، ويعرض قبله ، ويشكّل المـادة من جديد ، فهو لا يعلّم كتاباً وُضِعَ له ، ولكنه يتحرك داخل المـادة بفكره ، ويقترح ، ويضيف ، ويبتكر ، وهو يعيش مع الأبناء فى مرحلة خطيرة ستبقى آثارها فى نفوسهم بعد التخرج ، وهو يتلقاهم وثقافتهم عامة فيمنحهم التخصص الذى سيظل معهم طيلة العمر ، فدَوْرَه فى تكوين الشباب خطير ، وحقّه على الدولة عظيم .

وللأسف لم يتجه الرأى العام للتفكير فى حياة الأساتذة والمدرسين فى الجامعات ، مع حرص الرأى العام أن يلقى بأبنائه فى أحضـان هـذه الجامعات ، وتصوّرْ معى أن جامعات العالم — وهى فى أشـد الحاجة إلى الأساتذة — جذبت علماءنا ومفكرينا وأغرتهم بالمـال الوفير والراحة الجمة فأخذتهم إليها ، فإلى مَنْ ستلقى الأسر بأبنائها ؟

بل هناك ما هو أشق من ذلك ، فقد اتجهت الحكومة إلى إصـلاح مرتبات الأساتذة ، وصرّح رئيس الحكومة أن مرتبات الأساتذة تختلف عن سواها من المرتبات ، فقد بقى « كادر » الجامعة حيث وضع من أمد بعيد ، وتطور « الكادر » العام ، وكان لابد من أن تمتد يد الإصلاح إلى مرتبات أساتذة الجامعات ، واقترح رئيس الحكومة إصلاحات مرضية إلى حـد ما ؛ ولكن للأسف وُجِدَ من الآباء من يعترض على هذا الاتجاه الإصلاحى فى اجتماع المؤتمر القومى (يوليو سـنة ١٩٧٢) وحاول بعضهم غمز هذه المحاولة أو عرقلتها .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٧٠ — ٧٦ .

وبعد هذا العتب الذى نوجهه للرأى العام نعود للمسألة لنتدارسها ، ولنعرضها بدقة على الرأى العام ، ليعرف عنها ما لا يعرف .

من هم أساتذة الجامعة ؟

المدرس بالجامعة له تاريخ طويل قبل أن يصل إلى هذا المنصب ؛ إنه ذلك الذى كان صبياً يكدح ، ويعمل أكثر من سـواه من التلاميذ ، وكان يحرص على كل حصة وعلى كل درجة ، وكان بالتأكيد من أوائل الناجحين وكثيراً ما كان أولهم ، وخاض مراحل التعليم على هذا النمط ، وفى الليسانس أو البكالوريوس كان أول الناجحين أو من أوائلهم المعدودين .

ولهؤلاء الأوائل طموحهم وحقوقهم ، إنهم من الخامات الطيبة التى تعتز بها الأمم ، وتتلقى الجامعة هؤلاء الممتازين لتبدأ معهم شوطاً جديداً من البحث والدراسة ، فإذا كان المتخرجون الآخرون قد أخذوا يجنون بالليسانس أو البكالوريوس نتائج نجاحهم ، فإن الأوائل الذين أُخِذوا معيدين بالجامعة راحوا من جديد يكدحون ويذاكرون ويعيشون فى المكتبات والمعامل عدة سنوات تحت ضنك شديد ليحصلوا على درجة الدكتوراه ، وأكثرهم يُرْسَلون إلى الخارج فى بعثات ليحصلوا على الدرجات العليا منها ، وهناك فى الخارج تصرف لهم مرتبات تتناسب مع البلاد التى يتعلمون بها ، وقد كنت طالباً بجامعة كمبردج بانجلترا ، وكانت تصرف لنا مرتبات سخية ، وكان هناك كذلك مرتب خاص للملابس يُصرَف لنا مرتين فى العام ، ومبلغ يصرف كل عام لشراء الكتب والمراجع ، وكان متوسط ذلك حوالى مائة جنيه استرلينى شهرياً ، وهو كما قلت مرتب سخى بالنسبة لنا ، هذا بالإضافة إلى الرحلات العلمية الداخلية والخارجية التى تتحمل الدولـة تكاليفها .

وهناك عيون مفتوحة تتطلع لطلاب الدراسات العليا بالخارج ، وهناك إغراءات واسعة تعرض عليهم ليعملوا بالخارج عقب تخرجهم ، وكثيراً ما نجحت هذه الإغراءات فبقى أعضاء البعثات بالخارج ولم يعودوا إلى

مصر عقب حصولهم على الدكتوراه ، والذى دفعهم إلى ذلك ليس فقط ما تعرضوا له من إغراء مادى وأدبى ، بل ما كانوا يعرفون أنه سيكون مآلهم عندما يعودون إلى مصر ، فقد كانوا يعرفون أن الثلاثين جنيها أو الأربعين فى انتظارهم ، وأن نصفها يدفع إيجار مسكن ولا يتسع النصف الباقى لتكاليف المواصلات والملابس ، أما المراجع والدواء والطعام فلا يبقى له فى الميزانية نصيب •

ومع هذا فالكثيرون منهم يعودون حباً فى الوطن ووفاء له ، ورغبة فى خدمة الأجيال التالية ، وأملا فى تحسن الأحوال ، ولكن الحقيقة المرة طالما صدمت بعضهم ففقد توازنه عندما فقدت الميزانيـــة توازنها ، وكثيرون منهم لم يستطيعون الزواج ، والمتزوجون لم يستطيعوا أن يرعوا زوجات وأبناءهم ، وبخاصة أن هؤلاء الأولاد بعضهم ولد ونشأ فى أوربا وأمريكا وذاقوا — لا أقول الترف — ولكن طعم الكفاية ، فلم يكن من السهل أن يعيشــوا فى الحرمان • وأرجو أن يقنع القارىء بأن الدكتور المدرس فى الجامعة يقتضيه هذا المركز أن يسكن سكناً ملائماً ، وأن يلبس ويظهر هو وأولاده فى مستوى لائق ، وأن يكون فى ميزانيته نصيب للمراجع والدوريات وبعض الأجهزة التى لا تقوم حياته العلميـــة بدونها ، والتى يشترى أكثرها من الخارج ، وبما يسمى العملة الصعبة ، فإذا لم نحقق لأستاذ الجامعة هذه الضروريات فإنه لن يؤدى عمله كما ينبغى •

وقبل أن أسترسل أقف وقفة قصيرة تصوّر من الواقع مصير نماذج من الزملاء ، حاولوا أن يعملوا بمصر ولكن قهرتهم الأحداث •

كان لنا زميل عاد من أرض الشمال ، وكان قبل عودته يسكن مع أسرة عميدها يشتغل « قبطان » إحـــدى البواخر التجارية ، وفى مصر بدأ الزميل يتقاضى الثلاثين جنيها ، وحاول أن يجد مسكناً فسمع عن المئات أو الآلاف التى تدفع مقدماً أو ••• وراح يسكن فى فندق فلم يكف مرتبه أجراً للفندق ، وعاش فى دوامة هائلة ، وفى يوم تلقى خطاباً من عميد الأسرة

التى كان يسكن عندها يقول له إن باخرته ستمر ببورسعيد فى يوم كذا . ويطلب الرجل مقابلته للاطمئنان عليه .

وشدّ الزميل رحاله إلى بورسعيد للقاء الرجل ، وعلى ظهر الباخرة سأله الرجل عن أحواله ، فوصفها الزميل إليه . وذكر لــه ما يعانيه فى حياته التى لا يبدو أنها ستصل إلى الاستقرار ، قال له الرجل : وماذا يرغمك على هــذا العناء ؟ قال الزميل : وكيف الخلاص منه ؟ وحينئذٍ تلقى الزميل إجابة غيّرت مجرى حياته ، فقد قال له الرجل : ابق حيث أنت على ظهر الباخرة ، وعد إلى رخاء العيش الذى ألِفْته بالشمال . والتقطت أرضُ الشمال هذا الزميل كنزاً من الفكر والأمل نظــير مطالب الحياة العاديــة .

وعندما كنتُ طالباً بجامعــة كمبردج كان معى زميل اسمــه سعد وهو أيضاً من ابناء المعادى وكان تخصصه بعيداً عن تخصصى ، كنت أدرس فى مجال الدراسات الإسلامية ، وكان يتخصص فى النبات ، وبعــد أن حصل كل منا على درجة الدكتوراه سافر هــو إلى أمريكا ليعمل هناك . وعدت أنا للقاهرة وللثلاثين جنيهاً ، أو بالضبط (سبعة وعشرين لا غير) وحدث ان عَرَضَتْ عليه إحــدى الكليات الأمريكية أن يعلم بها اللغة العربية . على أن تدفع له مرتباً ضخماً يزيد عن المرتب الذى يتقاضاه كمتخصص فى النبات والتربة ، ولكنه اعتذر ، وقال : لست متخصصاً فى اللغة العربية . فتلقى عاصفة من الضحك ، وقيل له : ألا تستطيع أن تقرأ الصحف العربية بلهجة عربيــة أصيلة ؟ ولمــا أجاب بالإيجاب . قالوا له : هذا كل ما يعنينا . ومع هذا فقد آثر زميلنا أن يبقى حيث يقضى تخصصه ، ولم يكن فى حاجة إلى المــال الزائد ليغريه بالتحول إلى مدرس لغة عربية ، وقال للمسئولين : إننى أستطيع أن أكتب لزميل متخصص فى اللغة العربية ، والدراسات الإسلامية ليحضر لكم ، وذكر اسمى لهم ، فرحبوا بى . وقالوا فى هــذه الحالة يصبح المرتب أكبر وأكبر .

وكتب لى صديقى سعد بذلك وذكر الرقم الذى يُسيل اللعاب ، ولكن

جذورى كانت قد تعمقت بمصر ، وكنت أجـد فيها كفايتى فلم أوثر فراقها .

وعدد كبير من الزملاء سافروا فى صيف من الأصياف للخارج ، ومن هناك أرسلوا استقالاتهم للجامعات واستقروا فى أعمال تدر عليهم ربحاً وفيراً ، وفرشوا بذلك من ضنك العيش الذى لاقوه بمصر .

ولست أحب أن أسترسل فى ذكر هذه النماذج ، فهى أشهر من أن نطيل عندها الوقوف .

على أن أساتذة الجامعات عندنا لديهم فرص لا تتوافر لسواهم ، فالجامعات العربية كلها تقريباً تتطلع إليهم ، وطلبات الإعارة كثيرة للغاية ، وتقتضينا مسئولياتنا العربية والعلمية أن نحقق لهذه الجامعات حاجتها ماأستطعنا ، لنبنى معها مستقبل أمتنا العربية ، والإعارة — كما أشرنا من قبل — انتقال بمرتب المدرس أو الأستاذ إلى حوالى عشرة أمثاله بالقاهرة مع كثير من التسهيلات فى نواح مختلفة ، وعندما يعـود المدرس مـن الإعارة تواجهه من جديد نفس الصدمة التى واجهته وهو عائد من البعثة .

كلمة مهمة نعترض بها حديثنا عن أساتذة الجامعات المصرية بمناسبة الإعارات لنتكلم عن قَدَرِنا كدولة تنتج الرجال وتَعُدُّهم ثرواتها إذا أنتجت الدول الأخرى مختلف الصناعات أو المعادن ، فقـد حققت مصر استقلالها كله أو أكثره عن تركيا من مطلع القرن التاسع عشر ، وأنشأت المدارس فالجامعات والمعاهد ، وخطت فى سبيل التقدم والمعارف خطوات واسعة ، وعندما حصلت الدول العربية الأخرى على الاستقلال لم تجـد غير مصر ملجأ لها لتستعير منها المعلمين والمفكرين ليسهموا مع إخـوانهم العرب فى بناء دولهم وحضارتهم ، وقام المصريون بهذا الدور بنشـاط ملحوظ فى مختلف البلاد ومختلف الميادين الفكرية . وهكـذا كان لبلادنا الشرف أن أنتجت الرجال الذين حملوا المسئولية العلمية فى البلاد العربية ، بل حملوها إلى البلاد الإسلامية كذلك ، ثم تعدوا هـذا النطاق إلى دول أخرى فى أوربا وأمريكا اعتمدت على أبناء مصر فى دراسـات مختلفة ، وبخاصة فى الدراسات العربية والإسلامية .

وهكذا ينبغى لنا أن نتذكر دائماً أن لدينا طاقات من الرجال يمكن أن نفيد بها ونستفيد ، ويتحتم أن نعنى بهذه الطاقات لتظل لنا وتنفع سوانا . وألا نهملها فتتركنا إلى وطن غير وطنها الذى نشأت فيه .

هذا وسيظل الأستاذ المصرى نموذجاً لا يباريه سواه فى نشاطه ومواهبه التى اعترف بها الجميع .

ولنعد لمرتب المدرس أو الأستاذ بالجامعات المصرية لنذكر أن بعض يعارون للجامعة الأمريكية فى قلب القاهرة ، وليس فى الإعارة للجامعة الأمريكية بالقاهرة اغتراب أو بعد عن الأهل والوطن ، ومع هذا فالمرتب يقفز قفزة واسعة فيصل أو يقرب من مرتب المعار للخارج ، مما يجعل المقارنة عسيرة بين الأستاذ بجامعة القاهرة ، وزميله الذى جذبته الجامعة الأمريكية بميدان التحرير .

ونقطة أخيرة نختم بها حديثنا هى : مامرتب الأستاذ العراقى فى جامعات العراق ؟ والأستاذ السورى فى جامعات سوريا ؟ والأستاذ السودانى فى جامعات السودان ؟

لقد عملنا مع هؤلاء فى بلادهم ، وكانت مرتباتنا كمعارين مغتربين قريبة جداً من مرتباتهم فى بلادهم ، حتى فى البلاد التى لم يتدفق فيها البترول كالسودان . ولا داعى لأن نذكر فى هذه المقارنة مرتبات الأساتذة الإنجليز والأمريكان لأن الخيال لا يلعب بعقولنا ، ولأن أهدافنا قومية وطنية أكثر منها مادية ، وكل ما نطلبه أن نحقق لأنفسنا وذوينا ضروريات الحياة بيسر لنتفرغ للمهمة الكبرى التى تتطلع لها عشرات الألوف من الأسر كل عام .

الدراســات العليــا بالجامعــة

الدراسات العليا تكوين جديد للإنسان الجامعى ، وهذا التكوين يتخذ وسائل جديدة غير تلك التى كانت تتبع مع الطلاب قبل الحصـــول على الليسانس أو البكالوريوس ، فالطالب فى فرق الليسانس و البكالوريوس يتلقى محاضرات تشرح له المناهج المختلفة ؛ وفى كثير من الأحوال تتجه للاتســـاع أكثر من اتجاهها للعمق ، ولكن الحال يختلف فى الدراسات العليا ، فليس فيها محاضرات ، وإنما فيها إرشاد وتوجيه ، فالوجبة لم تَعُدْ تُقدَّم للطالب ، وإنما عليه أن يُعِدَّها هو بإرشاد أستاذه ، والفكرةُ لم تعد تُلقى له وإنما عليه أن يبحث عنها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر تتجه الدراسات العليا للعمق واقتراح المشكلات وحلها أكثر مـــن اتجاهها للاتســـاع والتعميمات ، فمرحلة الاتساع والدراسة العامة يُفْرض أن الطالب قد انتهى منها فى فرق الليسانس أو البكالوريوس .

ففى فرق الليسانس يقود الأستاذ السيارة وعليه كل مسئوليات الركب ، وفى الدراسات العليا يدرب الأستاذ مريده على القيادة وعلـــى التزاماتها بإشرافه وإرشاده حتى إذا نجح قادها بنفسه بدون مرشـــد .

تلك هى الدراسات العليا كما تعلمناها وكما أوضحتها فى كتابى « كيف تكتب بحثا أو رســـالة » وهذا يجعل مهمة الدراسات العليا صعبة ويجعل الذين يستطيعون حمل أعبائها من الطلاب قليلين .

والدراسات العليا أساساً تتجه للمعيدين لتكوين الجيـــل الجـــديد الذى سيحمل عبء العمل فى الجامعة بعد الجيل العامل ، وتوضع الوثائق والمكتبات والمعامل فى خدمة هذا الهدف ويكون مع المعيدين أفراد آخرون من الموهوبين الذين يحاولون الحصول على الدرجات العليا ليكونوا أقدر على حمل المسئوليات بالقطاعات المختلفة بالدولة ، فهم هدية الجامعات للمجتمعات ، ليحملوا لها أحـــدث ما أحرزه العلم من تقدم وكشف ، حتى يشير العمل فى ضـــوء العلم ، فيتحقق بذلك ما يقوله الإمام الغزالى :

العلم بدون عمل جنون ، والعمل بدون علم لا يكون •

وأساتذة الجامعات يبذلون جهداً ضخماً لا يعرفه الكثيرون و.. يشرفون على طلاب الدراسات العليا ، فكثيراً ما يساعدونهم فى اختيار موضوع البحث ، وموضوع البحث نواة لعمل يمكن أن يقوم به الأستاذ لنفسه وينسب له ، ولكنه يؤثر به تلميذه ومريده ، ثم يساعده فى تخطيط البحث ورسم معالمه الكبرى ، ولا يدرك إلا العارفون مدى الفرق بين تخطيط وتخطيط ، وفى كلمة موجزة هناك تخطيط يجعل تنفيذ العمل عسيرا أو مستحيلا وتخطيط آخر يجعل التنفيذ يسيراً وسهلا ، ودور الأستاذ فى التخطيط واسع إذ أن الطالب قليل الدربة فى هذا المجال ، وليست له تجارب تساعده لوضع خطة حكيمة •

ويسير الأستاذ مع الطالب بعد ذلك يرشده إلى المراجع أو يمده بها ويمنحه كثيراً من فكره وآرائه لتبدو فى النهاية منسوبة للطالب ، وكثير منا فى الحق قطع من قلب الأستاذ ، وعندما يكتب الطالب أجزاء من رسالته يتناولها الأستاذ ليقرأها ويراجعها ويرشد الطالب إلى التحقيق والتمحيص والزيادة والحذف ، ويضطر الأستاذ آنذاك يترك عمله هو ، وكتبه التى تنسب إليه لينجز عمل تلميذه ، إن الإشراف على رسائل الدراسات العليا نوع واضح من الإيثار ، يقدمه جيل إلى جيل خدمة للعلم وللإنسانية •

ماذا يأخذ الأستاذ نظير ذلك ؟

الإجابة أنه لا يأخذ شيئا ، بل يعطى من وقته وجهده وفكره ويعطل عمله ، ولا أحد يدرى بذلك تقريباً ، ومع هذا فالأساتذة راضون ومقبلون على هذا العمل ، وهم يطلبون الجزاء من الله ، ويأملون أن يكونوا بذلك قد أدوا حق الوطن •

ولكن لنا وقفة مع الدراسات العليا ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار . فالقانون يبيح للطالب الذى يحصل على تقدير « جيد » فى الليسانس أو

البكالوريوس أن يتقدم للالتحاق بأقسام الدراسات العليا ، واعتقادى أن الحصــول على جيد ليس كافياً على الإطلاق ، وما أجدرنا أن نعطى الحق لذويه ، وأن نقرر أن الدراسات العليا ينبغى أن تكون للموهوبين فقط ، أى يتحتم أن يكون هؤلاء حاصلين على تقدير « جيد جــداً » أو « ممتاز » وبهذا نريح ونستريح ، فهناك طلاب طموحون ولكن لا ينبى طموحهم على أســاس سليم ، ويدفعهم هذا الطموح للالتحاق بالدراسات العليا من تقدير « جيد » والحق أقول أن هؤلاء يتعثرون دائماً ، وأكثرهم يفشلون ، والذين يتمون دراستهم قل أن ينتجوا عملاً ذا بال •

وهناك اقتراح نثبته هنا ، وهو تقليد متبع فى بعض جامعات العالم ، وذلك أن كل قسم من الأقسام يقترح كل عام موضوعات محدده للدراسة ، وتوزع هذه الموضوعات على المعيدين ، وما يتبقى منها يختار له أكفـا المتقدمين للدراسات العليا من خارج الجامعة ، ونحن بهذا نتحاشى رسائل كثيرة لا تضيف جديداً مهماً للفكر العلمى أو الأدبى •

وكلمة أخيرة عن مناقشة الرسائل ، أثبت فيها ملاحظة تحققت لدى من طول الخبرة ، هى أن مناقشة الرســائل لا تُعَدُّ فى الواقع امتحاناً للطالب ، ولكنها فى كثير من الأحوال « استعراض عضلات » يقوم به بعض الممتحنين ليثبت به مقدرة خاصة ، أو ليغمز به زميله المشرف على الرسالة ، وهذه الاتجاهات يتحتم أن تتوقف ، وأن تكون المناقشة موضوعية لا غير ، ثم إن المــدة التى تقضى غالباً فى المناقشة وبخاصة فى الرسائل النظرية طويلة للغاية ، لأنها تمتد إلى خمس ساعات أحيانا أو أكثر ، وهى مملوءة بالهجوم والنقد ، ويحس المستمع أن الإعياء أصاب الطالب الذى يتناوب المهاجمون أدوارهم عليه ، ويجلس هدفا لحرابهم طيلة هذه المــدة ؛ ثم تكون النتيجة منحه أسمى التقادير ، والذى نراه أن المدة ينبغى ألا تتجاوز الساعتين فى الماجستير والثلاث ساعات فى الدكتوراه ، وأن يجعل الممتحن هدفه إثارة أهم النقاط التى تحتاج إلى مزيد من الايضاح أو الشرح ، لا أن

يستعرض صفحات الرسالة صفحة تلو صفحة ، ثم يتحتم أن يكون التقدير مناسباً للمناقشات التى دارت حــول الرسالة ٠

والمأمول بهذا أن تكون الدراســات العليا أعظم جــدوى للطالب وللجامعة وللمجتمع ٠

وبعد ٠٠٠ لقد وقفنا مع الجامعات ومشكلاتها وقفة طويلة تستحقها منا هذه الجامعات التى ترعى الفكر وتنمى العقل ، ولعلنا بذلك قضينا بعض الحقوق لهذه المنارات العظيمة ٠

فى السودان

الروابط بين مصر والسودان :

ارتباط مصر بالسودان ارتباط وثيق ، خلقته الطبيعة ، وعززه التاريخ ، وقواه الدين والدم واللغة ، ومن العبث أن توجد دوافع للفصل بين مصر والسودان ، فإن الإحساس العميق بين المصرى والسودانى ينتصر دائما على الدوافع الشريرة ، ويعيد الحب والود بين الشعبين ، أو قل بين الشعب الواحد الذى انتصر أعداؤه مرة فقسموه شعبين ، وكلما أدرك هؤلاء الأعداء أن وسائل التجمع ستكتسحهم وتقضى على مؤامراتهم ، كلما أدرك هؤلاء الأعداء ذلك شددوا من قسوتهم ، وزادوا من الحواجز التى وضعوها بين الشمال والجنوب ، ولكن ذلك كله إلى حين ، ولن يستطيع العشب الطفيلى أن يقف فى وجه التيار الجارف .

وقد كان من وسائل الدوافع الشريرة لتجزئة الوطن الواحد ، أن أخفوا تاريخ جنوب الوادى على شماله ، وكان عيباً واضحاً أدركناه ونحن طلاب ووعيناه ونحن مدرسون وأساتذة ، فقد اتضح لنا أن تاريخ السودان لا ينال حقه من الدراسة ، وأن المصريين يعرفون من تاريخ فرنسا وإيطاليا وانجلترا أكثر مما يعرفون من تاريخ السودان ، وإذا جهل المصريون ذلك فإن جهل العرب كان أشد وأشمل .

ولم يقنع الاستعمار بهذه التعمية ، بل راح يذيع غمزات تثير جزءا من الشعب على جزء آخر ، وتصوره فى صورة تزيد من القطيعة .

من أجل هذا رحبتُ بالدعوة التى وُجِّهت لى سنة ١٩٦٦ لأشغل منصب رئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية ، وكان مدير الجامعة هو الأستاذ الدكتور كامل الباقر ، والدكتور الباقر صديق قديم زاملنى فى الدراسة بكلية دار العلوم ، وزاملنى فى الدراسة بانجلترا ، وعرفت فيه صفات جمة تجذب التعاون معه ، عرفت فيه تنوع المواهب وعمق الإخلاص ، وعرفت فيه العروبة الأصيلة والثقافة

الإسلامية الرفيعة ، ولهذا رحبت بهذه الدعوة واستجبت لها على الرغم من أننى كنت قد عقدت العزم عقب عودتى من رحلتى الطويلة بإندونيسيا ألا أرتبط برحلات طويلة أخرى فى أية جامعة ، ولما خطر ببالى هذا العزم قلت لنفسى : إننى فى السودان لن اكون غريباً ، وإن انتقالى من جامعة القاهرة إلى جامعة أم درمان ليس إلا إنتقالا من مدينة إلى مدينة داخل الوطن الواحد فى أضيق حدوده ، واستقر الرأى على السفر •

وكان مما قوى الاتجاه للاستجابة أننى أردت أن أدرس المنطقة التى كنت وصلت لها فى دراستى بموسوعة التاريخ الإسلامى ، وهى المنطقة التى تقع جنوب صحراء إفريقية ، والتى خصصت لها الجزء السادس من هذه الموسوعة ، فقد أيقنت أن هذه الرحلة ستتيح لى دراسة السودان وأنا بين أهله ، وأن أجمع مزيداً من المراجع عن هذه المنطقة لا تتوفر فى القاهرة ، وربما استطعت أن أنتقل من السودان إلى سواه من الأقطار الإسلامية حوله ، وقد حققت هذه الرحلة كل هذه الأهداف أو أكثرها •

وكان هناك سبب آخر قوّى عزيمتى للسفر للسودان ، ذلك أننى كنت دائماً أحلم بجامعة إسلامية بقلب إفريقية ، فالبلاد الإسلامية بقلب إفريقية لم تنتشر بها الحضارة الإسلامية بعد ، ولاتزال فى حاجة إلى مزيد من الدراسات الإسلامية ، والبلاد غير الإسلامية المجاورة للأقطار الإسلامية تحتاج إلى من يقدم لها دعوة الإسلام ، فإن خريطة الإسلام تتصل بشعوب لادينية وينبغى أن ننقذ الناس من اللادينية أو من البدائية ونجذبهم إلى عبادة الله ، وكانت أحلامى تمتد فتصور لى أن جامعة إسلامية فى أم درمان ليس من البعيد أن تفتح لها فروعا هنا وهناك على الحافة التى يلتقى بها المسلمون بسواهم لتكون هذه الفروع مشاعل إسلامية على الطريق •

وفى جو هذا التفاؤل والأمل أعلنت استجابتى ، وبدأت أعد العدة لأرحل إلى الجنوب •

ذهبت إلى قريتى لأودع أهلى ، وبقيت بينهم بضعة أيام ، ولما عدت

للقاهرة راعنى أن عرفت أن رجال الشرطة يدقون بابى من حين إلى حين ، وأنهم تركوا إخطاراً لى بأن أذهب لوزارة الداخلية فور وصولى ، ولكنهم مع هذا يعاودون التردد على المنزل للتأكد من عودتى من الريف ، وليعيدوا التأكيد بضرورة الذهاب لهذه الوزارة دون تأخير . وأسرعت للذهاب بين الدهشة والقلق ، وهناك استقبلنى ضابط صغير الرتبة ، وسألنى :

هل تريد أن تذهب إلى السودان ؟

أجبت — وقد عرفت أن الموضوع يتصل بهذه الرحلة — : لا ، لا أريد .

فعاد يقول : عندنا أوراق من جامعة القاهرة تقرر أنك تريد الذهاب للعمل بجامعة أم درمان .

فأجبت : السؤال واضح وإجابتى عليه واضحة . لا أريد الذهاب لجامعة أم درمان وأنا مستعد أن أكتب لك بذلك الآن .

— إذا كنت لاتريد الذهاب فلماذا كتبت لنا الجامعة بذلك ؟

— اسأل الجامعة ؟ أو افترضْ أننى كنت أريد ثم عدلت عن رأيى .

وهنا دخل ضابط أكبر سناً وأعلى رتبة ، وتعرّف على وجهى من برامج التليفزيون التى أقدمها ، فرحب بى بحرارة طيبة ، وطلب لى بعض المشروب ، وسأل عما جاء بى إلى مكاتبهم ، فقلت له : كأنك ترى أن الحضور إلى هنا فيه شىء من الشبهة !! وضحكنا وأصبح الجو وديا جميلا ، وأطلع على الأسئلة والإجابات فقال : ما هذا ؟ ، وأجبت بأن الرحلة إلى السودان إذا كانت ستستلزم أن ترْسل أفواج الشرطة إلى بيتى عدة مرات خلال الأيام الماضية ، وإذا كانت الرحلة إلى السودان ستستلزم الحضور إلى هنا وتستدعى هذا الاستجواب ، فإن فى يدى أن أعتذر عن عدم القيام بها وكفى الله المؤمنين القتال . وذكر الضابط الأول أننى كنت قد فصلت من الجامعة ، وأن هذا يستدعى بعض الإجراءات للسماح بالسفر ، فقلت

لـــه : كان الفصل من الجامعة سنة ١٩٥٤ ، ونحن الآن سنة ١٩٦٦ ، وفى خلال هذه السنين الطويلة عينت بوظيفة دبلوماسية ، وعدت للجامعة ، وأسندت لى كثير من الأعمال الهامة ، فهل لايزال الفصل من الجامعـــة يلاحقنى ؟

وانتهت هذه الجلسة بالتراضى ، وشددت الرحال إلى عملى الجديد .

وفى السودان التقيت بأهلى ورفاقى ، وتحقق لى واقعياً ما كنت أفكر فيه ، الدم العربى ينساب فى كل وجه ، واللغة العربية الفصحى غالبـــة باهرة ، والإحســـاس برباط الود متبادل ، وتأثر بعض الناس بدعايات الاستعمار موجـــود ، ولكن غير منتشر ، وكان علينا أن نزيله ، ورو الدكتور كامل الباقر هفافة شفافة سمحة ، مع ذكاء نادر وعلم وفير ، ونائب المدير فضيلة الأستاذ مجذوب مدثر ثروة هائلة من العلم والخلق ، وأغاب الموظفين أصدقاء ودودون ، والطلاب كلهم إقبال وأمل . فى هذا الجـــو الحافل أمضيت عاماً وبعض عام ، وأمضيت هذا الوقت فى الجامعة وفى المجتمع ، علمت فى الجامعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ، وكان إقبال الطلاب عظيما يدعو للبهجة والأمل ، ولقد حاولت أن أسكب لهم نفسى وأضع بين أيديهم معارفى ، وقد تلقوا بغبطة وشغف ما وضعته بين أيديهم ، حتى ليمكن القول إن الدراسة التى شرحناها كانت أطول من الزمن الذى قضيناه معاً .

أما مع الجماهير فكانت لى جولات فسيحة واسعة ، فقد كانت الهيئات والمدارس تدعونى لمحاضرات عامة فى المناسبات الإسلامية داخل الخرطوم وخارجها ، وكنت ألبى هذه الرغبة بكل ترحاب ، وأقـــدم لكل جيل وكل جماعة ما يتناسب مع فكرها وثقافتها ، وقد نظمت الجامعة دراسات لهيئات مختلفة ، وكنت أشترك فيها جميعاً ، فرجال الصحافة والإعلام قدمنا لهم دراسات مختلفة اشتركت فيها بنصيب كبير ، والأئمة ورجال الوعظ أعدت

الجامعة لهم حلقات دراسية قدمت فيها لهم الكثير عن الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ، وكذلك فعلنا مع أمناء المكتبات ، وغيرهم ، وهذا جعل الجامعة مشعل نور للمجتمع كله •

الاستعمار والتبشير :

وقد خلق الاستعمار فى السودان مشكلة كما خلق مشكلة فى كل مكان نزل به ، فالأكراد فى العراق ، والإسلام والمسيحية فى لبنان ، وزنوج الجنوب فى السودان ••• ولولا الاستعمار ما وجدت هذه المشكلات ، والاستعمار يبقى فى يده هذه الورقة ليلعب بها عندما يحتاجها ، فإذا لم يحتج إليها أهملها وألقى بها بعيداً ، ولما تم للسودان استقلاله ، وحسب أن الأمر أصبح بيده ، وحاول أن يلعب دوره الحر فى السياسة العربية والإسلامية والعالمية ، حرك الاستعمار هذه الأداة • والذى يتتبع تاريخ التبشير فى إفريقية وآسيا يدرك أن المبشرين فشلوا تماماً فى نشر المسيحية عن طريق الكنيسة أو عن طريق التبشير المجرد ، وهنا تحركت العقلية الاستعمارية فاقترحت طريقاً للمبشرين لينالوا بعض النجاح • وكان أن أسلمتهم زمام التعليم • وتركت لهم شئون المدارس • ثم أسلمتهم زمام الصحة وتركت لهم الإشراف على المستشفيات ، والطفل ضعيف المقاومة والمريض ضعيف المقاومة كذلك ، وبهذا استطاع المبشرون أن ينفذوا إلى نفوس الصبيان والمرضى وأن ينشروا المسيحية بينهم ، وأن يتخذوا من هؤلاء أعواناً لهم عن طريق وضعهم فى وظائف حساسة عندما يشبون أو يصحون •

وعندما أراد السودان أن يتحرك بحرية تامة أثار المستعمرون أدواتهم فى جنوب السودان ضد الحكومة الشرعية والحكم الوطنى ، وقادت المدارس والمستشفيات وخريجوها هذه الثورة ، فاضطرت الحكومة أن تؤمم المدارس والمستشفيات وأن تشرف عليها إشرافاً مباشرا ، وأدرك المبشرون بذلك أنهم فقدوا الحصون التى يحتمون بها ، فثارت الكنائس على هذا القرار ،

فأممت الحكومة الكنائس وأعلنت أنها ستشرف عليها وتعيّن بعض المسيحيين السودانيين لقيادتها ، وزادت الثورة اشتعالا ، واتخذت الغابات مقراً لها ، واستعانت بعصابات المرتزقة .

والمهم أن تصرف الاستعمار في السودان طيلة الفترة الاستعمارية حال دون انتشار الإسلام واللغة العربية بالجنوب ، بل أضعف الدين وقضى على ما كان معروفاً من اللغة العربية كما فعل بالنسبة للغة العربية في الجزائر . وكانت النتيجة أنني لم أجد أمامي بجامعات السودان أي طالب من أبناء الجنوب ، وكانت هذه مأساه طالما تحسرت عليها .

ولا تزال هذه المشكلة تعيش حتى الآن ، والإسلام لا يعرف تفاضلا عن طريق الجنس ، وفي أحضانه التقت كل الأجناس والألوان ، ولعل ذلك يهيىء مستقبلا أحسن لهذه المشكلة الخطيرة .

وقد حصل لي موقف في الجامعة يستحق الذكر ، فقد كانت جامعة أم درمان تعتمد اعتمادا رئيسياً على المصريين ، وكنا بها نمثل حوالى تسعين في المائة من أعضاء هيئة التدريس لمختلف فروع المعارف ، وظهرت في الجو الحزبي همسات تتساءل :

— أليس من بين السودانيين من يستطيع أن يدرس التاريخ الإسلامي ؟

— أليس من بين السودانيين من يستطيع أن يدرس كذا وكذا .

وأراد الأستاذ الدكتور كامل الباقر — وهو عالم حصيف ذكي مخلص — أن يقضي على هذه الهمسات بطريقة عملية ، فدعا السيد الاستاذ الصادق المهدي لزيارة الجامعة وكان سيادته قد استقال حديثاً من رياسة الوزراء ويقف قائداً للمعارضة التي تتبنى مثل هذه الهمسات ، وحضر رئيس الوزراء السابق ومعه بعض وزراء وزارته ، وكنت ألقي محاضرتي للفرقة الثانية عندما سمعت دقات على الباب ، ثم انفتح الباب عن هذه النخبة الكبيرة من

القادة ، واستقبلتهم بسرور ، وعرضت أن يتفضلوا بالجلوس معنا ردحا من الزمن ليروا طرقنا الحديثة فى تدريس التاريخ الإسلامى ، فوافقوا .

واندفعت أعرض رءوس مسائل عن مقدمات التاريخ : مجال التاريخ الإسلامى ، فلسفة التاريخ ، مناهج التاريخ ، تفسير التاريخ ، الالتزام فى التاريخ ....

ثم انتقلت لعصور التاريخ الإسلامى فوضحتها عصراً بعد عصر . وأبرزت ضرورة أن تشمل الدراسة الدول المنسية فى التاريخ وهى تلك التى تقع جنوب الصحراء الافريقية أو فى جنوب شرقى آسيا .

ثم انثنيت للحديث عن الحضارة الإسلامية مبينا أنها تشمل نوعين هما الحضارة الفكرية والحضارة التجريبية ودور الإسلام فى كل منهما .

والتقطت السودان لأبين الدور الذى يمكن أن يقوم به فى خدمة قضاياه وخدمة القضايا العربية والإسلامية بإفريقية بسبب موقعه كهمزة وصل بين العرب والزنوج .

وفى دقائق محدودة كنت قد استوعبت الخطوط البارزة للتاريخ الإسلامى كله ، ووفقنى الله فى ذلك العرض أروع توفيق ، فخرج هؤلاء القادة وهم يقررون أن قلة من الناس تستطيع أن تدرس التاريخ الإسلامى على هذا النحو ، وخفتت الأصوات التى كانت تتهامس ظانة أن من اليسير أن يستبدل بالمصريين غيرهم .

الدول العربية ونكسة ١٩٦٧ :

وموقف آخر ضخم عانيناه فى هذه الفترة ، وكان للسودان فيه موقف مشرف يذكر بكل خير ؛ ففى صيف سنة ١٩٦٧ حصلت الهزيمة المريرة التى مُنينا بها ، وانقضت علينا هذه الحثالة البشرية تعربد وتزمجر ، وكانت من قبل كالفئران تعيش فى الجحور ، فهبت كالعاصفة تنال منا وتسيطر على

على أرضنا وتهزم جيشنا ، لأن ساسة هذا العهد الأسود وجهوا كل اهتمامهم ضد الشعب ، وغفلوا إلا عن مصالحهم الخاصة ، وقد عانينا شر عناء من هـذه الهزيمـة ، ولكن أكبر نصيب من هـذا العناء حـل بالمصريين الذين كانوا يعملون بالبلاد العربيـة ، فأكثر هـذه البلاد العربية ترى مصر ملزمـة بأن تدافع عن العرب وتنتصر ، وترى أن على مصر أن تعانى الجـوع والحرمان لتعد الجيوش وتشترى الاسلحة ؛ وأن عليها أن تنتصر ؛ فإن انهزمت فالويل لها ، ليس من اليهود فحسب ، بل من العرب ، الذين يتحتم أن يعيشـوا فى ترف العيش ، وأن تريق مصر الدماء والمـال لتضمن السلامة لهؤلاء المترفين .

لقد عرفت فى التاريخ الوسيط جماعات الأحابيش التى كانت تُكْتَرَى بالمـال لتدافع عن قوم أو تشترك فى الدفاع عنهم . وعرفت فى التـاريخ الحديث جماعات المرتزقة التى تقوم بنفس الدور . ويذكر التاريخ الوسيط والحديث أن هذه الجماعات كانت إذا هزمت وسقط منها عـدد من القتلى فى ميدان القتال ، فإن الأمم التى أكترتها كانت تتقدم فى الحال لتقدم لها تعويضات باهظة ولتشجع هؤلاء على استعادة مكانتهم ليستأنفوا تنفيذ الدور الذى عهد لهم به .

لو كانت قوى مصر من المرتزقة لاستحقت من العرب عندما انهزمت أن يقدم لها العرب التعويضات والتشجيعات الوافية . ولكن جنـود مصر يحمون العرب بلا مقابل ، والويل لهم من العرب إن فشلوا فى الحماية .

إنه قَدَرُنا ، ونحن نرضى نسـتعد للكفاح وأن ننفق عليه قوتنا ونؤثره على حاجات أنفسنا ، وأن نسقط فى الميدان ، ونهب من جديد حتى تعلو كلمة الله ، وليعش فى الترف من يحب أن يعيش ، وليلازم الامبالاة من يحب اللامبالاة ، فلميادين القتال رجالها ، ولمتع الحياة هواتها .

وأغلب الظن أنه لم يخطر ببال أحد من العرب أن العدو يتربص بهم جميعاً ، وأن هزيمة فياق عربى معناه سير العدو خطىً أخرى للأمـام

ليبسطو على مناطق عربية جديدة ، فتخطيط العدو بعيد المدى ، وأطماعه تتصل بمناطق الثراء والمــال بالوطن العربى •

كان على العرب بعد هزيمة ١٩٦٧ أن يلتزموا بدخول المعركة بعد أن ضعفت مصر عن احتمالها فى تلك الفترة ، وأن يقفوا فى صف واحد أمــام اليهود ، ولكن الذى حصل أنهم وقفوا فى صف واحد ضد مصر ، وأنزلوا سخطهم بالمدرسين المصريين والأطباء والمهندسين الذين يعملون ببلادهم ، وكم لاقى هؤلاء المكافحون من عدوان العرب عليهم ، ذلك العدوان الذى شمل السخرية والكلمات البذيئة والتهجم القاسى •

ماذا كان موقف السودان من هذه الأزمة ؟

الحق أن موقف السودان كان نبيلا النبل كله ، كريما إلى أبعد حالات الكرم ، لقد قاسمونا مرارة الهزيمة ، وأحسست بالجرح ينساب فى نفوسهم كما كنا نحس به وكانت كلمات العزاء والأمــل دســتور هــؤلاء القوم الــكرام •

لو كنت فى أى بلد عربى وجرى لى ما جرى للزملاء لهرولت عائدا لبلادى كما فعل البعض ، ولكنى فى السودان لم أحتج إلى ذلك ، وهــذا الموقف كان عظيم الأثر فى نفسى ، وأنا الآن أنقله من جنبات النفس إلى الكلمة المكتوبة الخالدة •

قضية الاعارة للخــارج :

وهذا الموضوع يشدّنى للحديث عن موضوع آخر ، ذلك هو قيمــة المعلم المعار من قطر إلى قطر ، وأقرر أنه لا يعرف مايعانيه المعار الغريب إلا المعار الغريب نفسه ، وقد مررت بهذه التجربة مرتين ، مرة فى إندونيسيا وأخرى فى الســودان ، مع أنى كنت موفق الحظ فى المرتين فالشعب فى إندونيسيا ، وفى الســودان يعرف الرسالة الضخمة التى يحملها المعار

ويعده رسول الفكر ، ترك الأهل والوطن لينقل فكره وتجاربه إلى الآخرين ، فهو بذلك يقدم تضحية تفوق كل تضحية ، وليس هناك أى جزاء مادى يعدل ما يقدمه هذا المعلم ، والتاريخ يذكر أن الخليفة المأمون كان يقدم للمترجمين والمؤلفين بدار الحكمة وزن أعمالهم من الذهب الخالص ، ولما تردد خازن بيت المال فى ذلك مرة لأن أحد هؤلاء قدم أعماله العلمية مكتوبة على أشياء ثقيلة الوزن ، صاح به المأمون : أعطه دون تردد ، فإننا نأخذ منه الباقى ونعطيه الفانى ، نأخذ دماء قلبه ونعطيه حطاما ، وليس هناك شىء يكافىء دماء القلوب •

وحسب من لا يدرك الصعوبات التى يعانيها المعار أن يتذكر أننا ونحن فى الخارج مات أفراد منا وأعدناهم لمصر جثثا وكانوا قد ودعوها شبابا يفيضون بالحياة والحيوية ، وسقط آخرون بمرض وحملناهم إلى الطائرة ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة فى جنبات الوطن ، ومرض آخرون أمراضاً بسيطة كالزكام مثلا أو الصداع ، وعجزت كل الأدوية أن توقف هذا المرض . واضطر الأطباء أن يعلنوا أن الدواء الناجح أن يعود المريض لوطنه ، وعاد هؤلاء وعادت لهم الصحة عندما استنشقوا نسمات الوطن •

و فى مطلع هذا القرن عندما أنشأنا الجامعات المدنية بمصر ، وفى منتصف هذا القرن عندما بدأنا حركة التصنيع ، والآن ونحن نبنى جيشنا طبقا للنظم العسكرية والأجهزة العسكرية الحديثة ، كان لابد أن نستعين بأعداد هائلة من الأساتذة والخبراء ، وقد دفعنا أضخم المرتبات لهؤلاء وأولئك ، وأحسنا معاملتهم إلى أبعد حد ، وحاولنا أن نجعلهم ينسون آلام الاغتراب ، وقد يكون لى أن أقدم هنا مزيداً من التفصيل باعتبارى أعيش فى ضاحية المعادى التى تضم عدداً كبيراً جداً من هؤلاء الأساتذة والخبراء ، وأشهد أن سكان المعادى على اختلاف طبقاتهم يشتركون بطريق أو بآخر فى تكريم هؤلاء الذين جاءوا من بلادهم لعوننا ونقل خبراتهم إلينا ، ترى ذلك فى نادى المعادى الذى يترك المواطنون حقوقهم فى الملاعب لهؤلاء الغرباء ، وتراه فى المواصلات حيث يقدم المصريون ضيوفهم على أنفسهم ، وكذلك

ترى ذلك فى دور العلم التى يلحق بها هؤلاء الضيوف أبناءهم ، وفى المحال التجارية التى يؤمها هؤلاء لشراء مطالبهم ، وهيهات أن ترى أنانياً أو مستغلا إلا فى القليل النادر مما يعد شذوذا لا تخلو منه أى بلد من البلدان .

على أن مصر لم تستقبل الخبراء والمعلمين فقط ، وإنما استقبلت آلاف الطلاب الوافدين الذين جاءوا إلى مصر يوم كانت وجدها موئل العلم فى العالم العربى وفى إفريقية ، وقد كنت أستاذا بكلية دار العلوم وبها طلاب من ست وأربعين جنسية عبر قارات العالم . ماذا فعلت مصر مع هذه الجيوش الجرارة من الطلاب ؟ الذى لاشك فيه أن مصر أحسنت الإحسان كله لهؤلاء ولاتزال تفعل ، وأعطيناهم من التسهيلات والمساعدات ما يحصل عليه الطلاب المصريون ، ولا نزال نخصهم بكثير من العون ، ليس ذلك من المن فى شىء ، فقد كنا نعتقد ولا نزال نعتقد أن مصر للجميع ، وأنها وطن لكل غريب . ومما يدل على ذلك أن كثيرين استوطنوا مصر نهائيا ، أو أطالوا بها مدة إقامتهم ، أو سافروا وعادوا إليها ، وهذا شىء نفخر به ونعتز بالتمسك بحوافزه .

ماذا تفعل الدول العربية أو بعضها بالخبراء والأساتذة المصريين ؟

لقد بدأت الدول العربية تنشىء المدارس والجامعات بعد استقلالها ، أى فى العقد السادس والسابع من هذا القرن ، ولم تجد الدول العربية غير مصر ملاذاً لها لتستعير منها مختلف التخصصات والخبرات ، وليست هناك دولة أخرى تنافس مصر فى إمكانها أن تعين أخواتها العربيات ، فالطبيب الإنجليزى أو المهندس الفرنسى لن يستطيع أن يؤدى عمله بسهولة مع جماهير أكثرها لا تجيد اللغات الأجنبية ، وقد حاولت بعض الدول العربية أن تستعير من الباكستان بعض الخبراء ، ولكن ظهر أن كل واحد من هؤلاء يحتاج إلى مترجم يلازمه . أما الدراسات الإسلامية واللغة العربية وآدابها فهى علوم تعد وقفا على المفكر المصرى الذى يجوب بها الأرض جميعا لينشرها ويخدمها .

واستجابت مصر بكل معانى الكرم فآثرت الدول العربيــة بخــير أبنائها ، نعم بخير أبنائهما ، فقد كنا نقــوم بامتحانات لاختيار أحسن العناصر الراغبة فى الســفر ، وتقدم هذه العنصر الممتازة للدول العربية ، ووضعنا أسساً للاختيار تجعل أعلى الكفاءات أحق بالسفر •

ولقد كان طبيعياً أن تشكر لمصر هذه اليد ، وأن تعترف هذه الشعوب العربية بفضل الإشعاعات الفكرية التى يحملها المصريون إلى أبناء عمومتهم فى الوطن العربى ، وبخاصــة أن الحاجة لاتزال ماســة وستظل ماســة جيلا وأجيالا ، وبوجه أخص فيما يتصل بحملة درجات الدكتوراه الذين يبــدو أن مصر ستبقى المعين المهم أو المعين الوحيد لهم لمــدة لا يمكن التكهن بهــا •

هل شكرت الشعوب العربية مصر على موقفها الحافل بالإيثار ؟

وأنا أقول الشــعوب وأعنى ذلك لأن عتبى متجه للشعوب ، ولأن الهيئات الرسمية بالبلاد العربية تقوم بواجباتهما على وجه مرض ولو لم يكن ذلك لتوقفت هذه الإعارات ، أما الشعوب فنسمع عن معاملاتها للمعارين المصريين بما يدفع للاشمئزاز ، ويالهول ذلك إن كان صدقاً كله أو أكثره ، وقد ظهرت مع هذه المعاملة كلمات قاسية مثل التعيّش — الزحف المصرى •

ولقــد سمعت عن مسئول مصرى كبير أحسن الله جزاءه ، أدرك ما يعانيه المصريون فى موقف معين ، فهتف : إذا كان هذا إحساسكم نحــو المصريين فنحن مستعدون أن نسحبهم لمصر فى الحال ، ويالضخامة الفراغ الذى سيخلفه هؤلاء لو تم هذا التصرف ، وأعتقد أننا لانحب أن نفعل ذلك ، ولكن لانحب كذلك أن يساء إلينا •

* * *

موقف مصر من الدول العربية :

هناك فكرة خطرت ولاتزال تخطر ببال الكثيرين هى أن تتفرغ مصر لنفسها ردحاً من الزمن تعيد بناء الحياة المصرية والقرية المصرية والإنسان المصرى ، على نمط ما فعل الاتحاد السوفيتى الذى أحاط نفسه بسياج أسموه حينذاك « الستار الحديدى » ولم يفتحه إلا عندما أعـاد بنـاء نفسه فى مختلف الميادين ، فخرج إلى الناس قوياً مارداً ، وعلى نحـو مافعلت الصين عقب ثورة ماو ، ولو فعلت مصر ذلك لحققت نجاحاً عظيما ولقدمت لها إمكانياتها وسائل لنهضة عظيمة .

ولكن هذا الاتجاه لم يؤخذ به ، فقد غلب التفكير الذى يرى أن وضع مصر بين الدول العربية لا يجيز لها أن تُعرِض عن العالم كما فعل الاتحاد السوفيتى ، وكما فعلت الصين ، وأن التزام مصر نحـو الدول العربيـة يحتم أن نقتسم معها حلو الحياة ومرها ، وأن مصر لو أدارت ظهرها للدول العربية عشر سنوات أو عشرين سنة ثم عادت لتتجه لهذه الدول فقـد لاتجدها ، فكثير من الدول العربية لا تقوى على مواجهة الحياة وحدها ، ولو وقفت وحيدة فى الحياة فسيبتلعها التيار ، وبقيت مصر تعيش للعرب ، وكانت هـذه تضحية وإيثاراً فى دنيا نرجو أن تعرف التضحية والإيثار .

تحية إلى السودان فى ختام حديثنا عن السودان ، لقد كانت السودان بلادى طيلة إقامتى بها ، وكان أهلها أهلى ، وإنى لأشيد بما نعمت به من ودٍّ هناك خلال الفترة الخصبة التى أمضيتها مع الإخوة بجنوب الوادى .

لمسات عامة

مقدمة

فى رحلة الحياة هناك نقاط متناثرة مهمة لا تدخل تحت موضوع واحد ، ولا تحتويها فترة واحدة من فترات هذه المرحلة ، وقد جمعت هذه النقاط تحت هذا العنوان العام « لمسات عامة » ، وسيرى القارىء مدى مالهذه اللمسات من أهمية لافى حياة صاحب الرحلة فحسب ، بل فى حياة كل إنسان بوجه عام •

زوجـــة الكاتب

كثيرون من المؤلفين يصدّرون كتبهم بإهدائها إلى الزوجة والأولاد ، ذاكرين أن التفرغ لهذا الكتاب حرم الزوجة والأولاد من رعاية يستحقونها وراجين أن يكون فى إهداء هذا الكتاب لهم ما يعوّض هذا التقصير .

ولا شك أن كتبى طالما تسبّبت فى حرمان زوجتى وأولادى من وقت كان يمكن أن ينعموا به لو لم تستول دراساتى على وقتى وجهدى ، وطالما فررت من أولادى لأخلو إلى قلمى وعقلى ، أو أبعدتهم عنى إذا حاولوا أن يقتحموا علىّ خلوتى ، ومع هذا فلم يخطر ببالى أن أهــدى أى كتاب من كتبى إلى زوجتى وأولادى ، وكنت أنظر إلى أى إهداء من هذا اللون نظرة فيها شىء من الامتعاض أو الدهشة ، فهذا الإهداء لن يعوّض الزوجة ولا الأولاد شيئاً على الإطلاق . واعتقادى أنه شىء قام به شخص ثم قلده آخرون حتى صار تقليداً أشبه بالروتين يقوم به بعض المؤلفين حتى أولئك الذين لايسبب الكتاب لآلهم أى لون من ألوان الحرمان .

وماذا يمكن أن ينال الصغير من سطورِ إهداء حملت اسمه ربمـا قبل أن يعرف القراءة ؟ وماذا يمكن أن تنال الزوجة من هذه السطور ؟ ثم إن القارىء الذى اقتنى هذا الكتاب ، ماذنبه أن تطالعه الصفحة الأولى بحديث المؤلف عن زوجته وأولاده ، وإذا صح أن هــذا الإهداء يمنح أى تعويض للزوجة والأولاد فأجدر به أن يكتبه المؤلف فى نسخة بخطه يقدمها لزوجته وأولاده دون أن يجعل ذلك إعلاناً يفرضه على من لا تهمه هــذه القضية ، وبخاصة أن المؤلف ليس وحده الذى يَحْرِم آله من المتع بسبب عمــله ، فكثيرون من الموظفين والعاملين يقاسمونــة نفس التصرف بدرجه أو بأخرى .

ومن أجلْ هذا لم أكتب قط إهداء من هــذا اللون ، وجعلت صلتى مباشرة بالقارىء دون وسيط يقدمنى إليه أو قريب يستأثر بصفحة من

صفحات الكتاب ، ومن الحق أن أقرر أن زوجتى ترى هـذا الرأى ولم تتوقع أبداً إهـداء من هذا اللون .

ومن أجل هذا وجدت فى « رحلة حياة » فرصة لأتحدث عن زوجتى أو أتحدث إليها ، فهى شطر حياتى ، ولها دور مهم فى رحلة هـذه الحياة ، والحديث عن زوجة الكاتب يستدعى أن أقص قصـة تحمل المعنى الدقيق لطبيعة الكاتب وحقوقه ، فقد أحسست مرة باضطراب صحى فاتصلنا بعيادة الأستاذ الدكتور « أبو شـادى الروبى » الأستاذ بكلية طب القاهرة ، وطلبت من مساعد الطبيب أن يضع اسمى ضمن أسماء الراغبين فى أن يعرضوا أنفسهم على الطبيب ، وفى الموعد المحدد ذهبت إلى العيـادة تصحبنى زوجتى ، وذكرت اسمى للممرض ومددت يدى بالأجر المحـدد للكشف ، ولكن الممرض رفض أخذ الأجر وأسرع يخبر الطبيب بحضورى ، وسرعان ما حضر الطبيب بنفسه ورحب بى ودعانى إلى غرفته وتفرَّغ لى ، وأبدى سروره بلقائى ، قلت له : إن الممرض لم يأخذ أجر الكشف كأنه خُدِع بلقب دكتور وحسبنى طبيباً ، وأنا لست بطبيب فأرجو أن تأذن له بتسلم المبلغ المحدد ، فابتسم الرجل وقال : ليس الأمر كما توقعت ، فنحن نعرف انك لست طبيباً ، ولكنى أعرف قَدْرك وأعُدُّ من حقك علىّ أن أشرف على صحتك وأعالجك . قلت له : إن دفع الأجر يشجعنى على العودة لك كلما أحسست بمرض ، ولكن الامتناع عن أخـذ الأجر المحـدد قد يخجلنى فلا أعود إليك إن احتجت إلى عونك ، فأجاب : ان أنت لم تحضر لى سعيت أنا إليك ، وأضاف إن الكاتب ثروة قومية ، ومن حقه على الأطباء أن يعنوا به ويحافظوا عليه .

تلك ومضة طيبة من الأستاذ الدكتور أبو شادى الروبى أحسن الله جزاءه ، ولكنْ كم من الناس فى المجتمع يحمل هذا الإحساس تجاه الكاتب ؟ وكم منهم يرى الكاتب على حقيقته ، عقلا يشع للآخرين ويذبل وهو يضىء دنيا الناس وكم منهم يدرك العناء الذى يلاقيه الكاتب والمؤلف وهو يبحث

وينقد ويفكر ، ثم وهو يتعرض للنقد والهجوم بالحق وبغير الحق ؟ قلة قليلة من الناس تدرك هذا فى الكاتب .

والأستاذ أنيس منصــور كتب مرة ساخراً يروى أنه كان ينزوى بسيارته المتهالكة يوماً حينما وقفت بجواره سيارة فارهة أنيقة ، ثم أطلت منها فنانة (راقصة) وداعبته بسؤال مهم هو : أيهما أفضل الكتابة أو الرقص ؟ وابتسم الأستاذ أنيس منصــور ، وقال مداعباً : وكيف لى بالرقص ؟ على أنه فى أعماقه يقرر أن هذا هو قدرنا ونحن به قانعون .

ومنذ سنتين أو ثلاث سنوات ظهرت فى ميدان الغناء فتاة ، وقد رأيتها آنذاك عند بناء التليفزيون العربى ، كانت تركب سيارة تاكسى ، وكانت ملابسها عادية ومظهرها بسيطاً ، وقد رأيتها حديثاً فَذُهِلْتُ ، إنها تركب سيارة فاخرة ، يقودها سائق مدرَّب ، يفتح الباب لها وينحنى ، وتلبس ملابس الأميرات أو الملكات . ولم أحسدها ولم أغبطها ، لأنى رضيت بقدرى وأخلصت الود لعملى ككاتب ومؤرخ ، وحسبى أن يوجد فى المجتمع قلة قليلة من أمثال الدكتور أبو شادى الروبى تعرف حق الكاتب وتكنّ له هــذا القدر من التقدير .

وإذا كان الكاتب قد رضى بقَدَرِه ، وآثر أن يطمع فى الخلود أو يحلم به ، وفضَّل ذلك على رفاهية الحاضر وترف العيش ، فأنَّى لــه بزوجة توافقه على هــذا الاتجاه وترضى بهذا المصير ؟ وبخاصة إذا اعترفنا بحقيقة لا بد من الاعتراف بها ، وهى أن الكاتب مرهف الحس يصبح أحياناً كالطفل يحتاج إلى من يدلّله ويهدهده ، وهو لا يخضع لقوانين الروتين التى يخضع لها باقى الناس ، يندفعه تفكيره فى قضية ما أن يغيب عن الوجود فترة لا يحتمل خلالها صخب الحياة ولا مطالب المرأة ، ويغرق أحياناً فى عمل فينسى كل ما حوله وكل التزاماته ، ويعجز أحياناً عن حل مشكلة علمية يتدارسها ، فينعكس ذلك على نفسه اضطراباً وقلقاً ، فإذا انتصر على مشكلة وجد لها حلاً فرح ورقص ، وأنى للكاتب أن يجد له

زوجة تشاركه هذه الأحاسيس ، وتدلله وتغفر هناته ، وترضى بأن تربط مصيرها فرحاً وحزناً بمشكلات الكتابة بدلا من أن تربطها بفاخر الثياب ومطالب الحياة .

إن من العسير أن نجـد زوجة من هذا اللون ، وأرجو ألا أكون بذلك قد باعدت بين الكاتب وبين الفتيات ، فمن الحق أن نقرر أن الكاتب عندما يجد الزوجة المناسبة يتخـذ منها مصـدر إلهام ، ويكتشف فيها مظاهر حسن يصعب على الآخرين كشفها ، ويضفى عليها من عبارات الحب سحراً تهيم به ، ويرى مطالبها قبل أن تراها هى ، ويسعد وهو يحقق هـذه المطالب ، وسرعان ما تصبح من أسعد الزوجات وترى فى الحياة بجواره أسعد حياة ، وإن كان بها نوع مما تراه الأخريات حرماناً وشظفاً ، وأشهد أن زوجتى (السيدة كريمة إمام) من هذا اللون وهى تبذل أقصى الجهـد لتعاوننى فيما ارتبطت به من أعمال .

إننى أستطيع أن أجزم أن بها استعداد الفنانة الكاتبة ، ولكن ذلك الاستعداد لم يوجَّه التوجيه الصحيح فى الوقت المناسب ، فوجدَتْ فىَّ وسيلتها لتحقيق مأربها ، وهالها أن يكون زوجها كاتباً ، ومؤرخاً ناجحاً إلى حـد معقول فراحت تصبُّ نفسها لمساعدتى ما وسعتها الحيلة ، حتى يمكن القول بصـدق ودقة أنه لولا جهدها ما وصلتُ إلى ما وصلت إليه على الأقل من ناحية الكم .

لقد كانت تعمل مدرسة بالمدارس القومية يوم أن قدر لنا الزواج . وكنت أسمعها تتحدث عن تلاميذها بحنان وإعجاب ، وكانت تقص علىّ أحداث يومها وحياة زميلاتها ، وأدرك من قصصها شدة ارتباطها بعملها ، ولذلك ترددتُ طويلا قبل أن أطلب منها أن تتفرغ لى وتدع عملها ولكن استجابتها لى كانت أسرع مما توقعت ، وقالت وهى توافق : اننى بذلك سأشاركك فى أعمالك الكبيرة ودراستك العلمية والجامعية ، فكأنك تنقلنى

من العمل بهذه المدارس إلى حياة أرفع وأعلى . وشكرتها ، وبدأنا حياةً أُسْرِيَّةً متعاونة خصبة .

كنت أملى عليها أكثر مـا أكتب منـذ ذلك الحين ، وكانت تُعِد لى المراجع ، واضطلعتْ بتصحيح تجارب المطابع فكنتُ أقرأ التجارب مرة واحدة للتحقيق العلمى ، أما ماعدا التحقيق العلمى من مشكلات فقد تركته لهـا ، وأجادت حمل مسئوليته . وكنت أكتب للتليفزيون والإذاعة والمجلات والصحف كتابة سريعة بقلم الرصاص ، ولا أراه بعد ذلك إلا منسقاً مرتباً بأجمل خط وأدق نظام .

وقامت بدور السكرتيرة خير قيام وإن كانت لاتحب هذا اللقب ، ولا أحبه لها ، فهى تتلقى المحادثات التليفونية وتأخذ مذكرة بها ، وتتصرف بلباقة حولها .

وخطاباتى الكثيرة التى ألتزم بكتابتها إلى المادحين أو الناقدين أو الناشرين ، أمليها بسرعة خاطفة لأجدها بعد حين منسقة معدة للإرسال ، وما علىّ إلا أن أوقع فى نهايتها ، وحتى هذا التوقيع أجادته ، فأصبحت تقوم به ، ولم أخش ذلك ، إذ ليست لى ثروة ذات بال أخاف أن تتصرف فيها بما يخالف رغبتى . وطالما استشرتها فى بعض المواقف العلمية أو الفكرية ، فأبدتْ رأياً حصيفاً أخذتُ به ، وطالما قرأتُ لها ما كتبت أو قرأتْه هى فاقترحت تعديلات ذات بال فاتبعت رأيها ، وهناك حقيقة يتحتم إبرازها هى أنها تحب هذا العمل ، فهى لا تؤديه كواجب ، وإنما كرغبة ، ولاأذكر أنها ضجرت منه يوما أو تكاسلت عنه . وفى كثير من الأحايين أكـون مشغولا بمشكلة علمية تؤرقنى وتقض مضجعى ، وأحياناً ألتقط — وأنا بالفراش — الحل لهذه المشكلة ، وهى تغط فى نوم لذيذ ، وأوقظها أو تتيقظ هى عندما أضيء النور لأدون هذه الفكرة ، وتكتب عنى ما أريد بدقـة وحنان ، وهى تقول : أَمْلِ ما تريد لعلك تستريح بعد ذلك فتنام .

وتنقلب زوجتى إلى طبيب ماهر عطوف عندما أشكو أى مرض ، وتدفعنى للشفاء دفعاً ، وأرانى مضطراً للإقبال على الشفاء إشفاقاً عليها وتهدئة لعواطفها الطيبـــة •

❊ ❊ ❊

وبعد ، هل يجب القارىء أن تكون زوجته كزوجتى ذكية شـــديدة الارتباط بزوجها ؟ لست أدرى ماذا ستكون عليه إجابات القراء ، ولكنى أذكر أننى قرأت مرة دراسة قامت بها إحدى الهيئات بإيطاليا فقد اتجهت هذه الهيئة بسؤال إلى مئات الشابات اللاتى يتطلعن لفتى الأحلام ، وكان الســـؤال هـــو :

ماذا تحبين فى زوج المستقبل ؟

طويلا أو قصيراً ؟

غنياً أو فقيراً ؟

وسيما أو عادياً ؟

• • • • • • •

متوقد الذكاء أو عادى الذكاء ؟

واختلفت الإجابات حول هذه الأسئلة ، ولكن فى السؤال عن الذكاء . اتجهت الغالبية المطلقة من الفتيات لرفض أن يكون الزوج متوقد الذكاء ، وعللن ذلك بأنه يتحسس كل شىء ، ويتعرف كل هفوة ، ويقدر الأمـــور بدقة العبقرى فيحاسب بناء على تقديره ••

وزوجتى فى الحق ذكية جداً ، وفيها مميزات الذكاء وسخافاته ، أما مميزاته فقد تحدثنا عن بعضها ، وأما سخافات الذكاء فمنها أننى لا أستطيع أن أخفى عليها شيئاً إذا أردت ذلك ، ومنها أن حاسة الشم عندها حادة ،

فإذا صافحتنى امرأة تستعمل نوعا معينا من العطور عرفَتْه وتساءلت . من أين هـذا العطر إليك ؟ وهكذا بها نزوات الأذكياء كما أن بها مآثر الذكاء .

هل أستطيع أن استرسل فأورد بعض المتاعب التى تثيرها زوجتى أحيانا ؟ أغلب الظن أننى لا أستطيع ، فقد هددت بأنها ستستعمل مقص الرقيب وهى تعيد كتابة هذه السطور لتدفع بها إلى المطبعة . ولذلك فمن الأفضل ألا أستطرد فى ذكر هذه المتاعب ، وإن كان من الحق أنها قليلة جداً ، وليس لها ثقل يذكر عندما توضع فى الميزان أمام الفضائل .

شىء مهم يتحتم أن أذكره ، هو أن للمرأة سلاحا تستعمله ضـد الرجل ، ذلك هو سلاح الدموع ، ولكن زوجتى عندها سلاح آخر أكثر حدة ومضاء من سلاح الدموع ، ذلك هو المرض الذى يطرأ عليها بقسوة عندما أغضبها . فإذا حدث خلاف حول أمر ما وكنت صاحب حق سرعان ما ترتفع درجـة حرارتها ويسرع نبضها وتحمر عيناها ، وأرانى مضطرا أن أبعد الغضب عنى لأصبح طبيباً يقدم الابتسامة والدواء ، واعتقادى — وأرجو ألا أكون مخدوعا — أنها لاتصطنع هذا الاتجاه ، ولكنه سـلاح منحته لها الطبيعة لتنتصر به علىَّ كلما كان من الحق أن يكون لى شرف الانتصـار .

* * *

وبعد ، هذه لمحة عن زوجتى « السيدة كريمة إمام » لعلى بها أكون قد وفيت لها بعض دينها ، ولعلى بها أكون قد عوضتها عن الكلمات التى يكتبها بعض المؤلفين لزوجاتهم فى صـدر مؤلفاتهم ، ولعلى بها أخيراً أدفع عديداً من الزوجات لتعاون كامل مثمر مع الأزواج ، وأدفع الأزواج إلى العرفان بالجميل .

أولادى

زينة الحياة ، وقطع من القلب ، قضت ظروف حياتى التى ذكرتها من قبل أن أعيش بمنأى عنهم عدة سنوات ، عندما كنت أعمل بإندونيسيا ، وكانت لقمة العيش تدفعنى للغربة وحبى لهم يشدنى لأبقى بينهم ، ولكنى — من أجلهم — تغلبت على قلبى وسافرت وأطلت السفر ، فهم جديرون لذلك بكلمة هنا فى رحلة حياتى •

ولهم فضل يتصل بالناحية العلمية ، فطالما عملوا لى ؛ نقلوا من مسوداتى بعض المقالات ، أو صححوا تجارب الطبع ، أو عملت يدهم الصناع فى اعادة ترتيب مكتبتى ، ففى حالات كثيرة آخذ كتبا من رفوفها ولا أعيدها لمكانها ، وتبقى كذلك حتى تمتد أيديهم وبخاصة البنات للمكتبة بالترتيب والتنسيق والتجميل، وإن كانت دراساتهم وأعمالهم الخاصة تستغرق أكثر وقتهم • أما الأطفال من أولادى فكانت ابتسامتهم توحى بالكثير من الإلهامات والإشراقات ، وكان لهم فضل من الناحية الاجتماعية ، فطالما ألزمونى براحة كنت منصرفاً عنها ، ودفعونى إلى أن آخذهم إلى نزهة أو رحلة ما كنت أقوم بها لولا رغبتهم وإلحاحهم ، وبهذا كانوا يعيدون لى النشاط لأستأنف العمل برغبة آكد وعزيمة أقوى •

والأولاد امتداد للإنسان ، فهو يعيش فيهم بعد أن ينتهى عمره ، ومن اجل هذا أبذل أقصى الجهد لأعيش فيهم فى المستقبل أحسن مما عشت بنفسى فى الماضى ، وأريد كذلك أن أربطهم بجهدى وتجاربى التى تؤكد **أن الإخلاص فى العمل وحب الوطن والوفاء للدين تؤتى ثمارها طيبة ناضرة ، وتنعكس على النفس راحة وعلى القلب طمأنينة ، وعلى المال سعة ، فالإخلاص الجم عميق الأثر فى حياة الإنسان •**

يارب بارك أيامهم وألهمهم التوفيق ، واجعلهم امتداداً صالحاً يخدم اله ووطنه ودينه بكل أمانة وإيثار ، مع الحب والتمنيات لسهير ورضا وعادل وعبير وحسام الدين ووسام •

صـــــورة شبابى

لدينـــا صـــورة مكبَّرة بالمنزل التُقطت لى وأنا فى سن الخامســة والعشرين ، وهى توشك أن تنطق بالصحة والقوة والأمل والجمال . رآها رفيق لى فوقف أمامها مبهوراً ، وسألنى : كم تدفع لتعود لمثل هـــذه السن مرة أخرى ؟ وأجبت فى حزم : لا أريد أن أعود على الإطلاق لتلك السن ، هل تريدنى أن أصارع من جديد ، وأكافح من جديد ، وأسير من جديد هـــذه المسيرة الطويلة ؟! لا ، لا ، إننى لا أقوى على الصراع مرتين . ومرحباً بالشَّعر الأبيض وبحاضر الحياة ومستقبلها ، وشكراً لعصر الشباب الذى احتمل مختلف المتاعب ليوصلنى إلى ما أنا فيه ، على أن للتقدم فى السن ميزة كبرى ، فعلى الرغم من أن الصحة لا تساعد على العمـــل الطويل ، ولكن التجارب المليئة بالخبرات تجعل الوقت القصير يمنح من الإلهامات والفوائد مالا يمنحه الوقت الطويل عند الشباب . فالشاب لايزال الفراغ يملأ نفسه والأوهام تلفتُ عقله ، وإن أراد الشاب أن يتخلص من الفراغ والأوهام جدَّ وكدح ليصل إلى غايته ، ولكنه ســيرى نفسه آنذاك قد تقدم فى السن وتخلىَّ عن الشباب أو تخلى عنـــه الشباب ، إنهـــا سُنَّةُ الحياة .

قد يسخر الغنى من الفقير ، وقد يسخر الصحيح من العليل ، وقد يسخر الناجح من الفاشل ، ولكن من الخطأ أن يسخر الصغير فى السن من الكبير ، فكل شاب ليس له بحال من الأحوال — إن عاش — إلا أن يصبح كبيراً ، فهى خطوة لابد آتية ، وحسبك أن تستعرض ماضى حياتك ، وترى ما قدَّمتَه للوطن والدين والانسانية من خدمات خلال هذا الماضى . وتسعد أو تبتئس وأنت تراجع هذا الحســـاب ، وسترى أن مساهمتك الواسعة فى هذه المجالات تمنحك قوة وسعادة أكثر ممـــا يمنح الشباب لجماعات الشبان . إن من حق الإنسان وهو يتطلع إلى شَعره الأبيض والى الأخاديد التى حفرها الزمن فى وجهه أن يتطلع كذلك إلى ماخلَّف من جهد وما أرسى من قيم وخدمات ، وذلك وحده هو المقياس الصحيح .

وفرة الإنتاج العلمى وتفسيره

ماذا قدمتُ للمكتبة العربية والإسلامية من ناحية الكيف ؟

ليس هذا موضوع بحث هنا ولكن البحث يدور هنا حول ماقدمتُ من ناحية الكم ، فهناك موسوعة للتاريخ الإسلامى ، وموسوعة للنظم والحضارة الإسلامية وسلسلة لمقارنة الأديان ، بالإضافة إلى كتب أخرى باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأندونيسية والماليزية وقد شغل هذا العدد من الكتب أذهان بعض الناس ، فراحوا يحدسون ويفكرون ، وربما وقف بعضهم مشدوها فاستسلم للظنون والخواطر ، متناسيا أن شيوخنا الأوائل كتبوا أضعاف ما كتبنا كما فعل الطبرى والاصفهانى وغيرهما .

وعلى كل حال فإنى هنا أقف لأضع التفسير الدقيق لهذا الإنتاج ، وأول تفسير أقدمه هو عملية الترتيب والنظام ، فمؤلفاتى ليست جزافا ، وإنما خضعت لسياسة طويلة المدى ، فمنذ بدأتُ أكتبُ رسالتى للدكتوراة عن « تاريخ التربية الإسلامية » قبيل منتصف هذا القرن وضعت خطة طويلة لدراسة الحضارة الإسلامية التى تعد التربية الإسلامية جزءا منها ، وقسمت الحضارة إلى سياسة واقتصاد وتربية ونظم اجتماعية وعسكرية ، وأعددت حافظة خاصة « ملفاً » لكل موضوع ، وأخذت أقرأ عن التربية وأجمع المادة عنها ، ولكنى عندما أقابل أى اقتباس أو أى مادة عن السياسة أضعها فى الملف الخاص بها ، وكذلك أفعل مع الاقتصاد والنظم الاجتماعية والعسكرية ، فلما انتهيت من دراسة تاريخ التربية وجدت عندى مادة لابأس بها عن الموضوعات الأخرى ولما انتقلت إلى السياسة أقرأ مراجعها وأدرس مصادرها قابلتنى نقاط مهمة تتصل بالاقتصاد والنظم الاجتماعية ففعلت بها مافعلته من قبل ، وهذا وفر الوقت توفيراً ملحوظا . ومثل هذا حدث فيما يتعلق بالتاريخ والأديان .

وهناك نقطة مهمة ترتبط بهذا الموضوع هى أننى لم أعرف الراحة بين كتاب وكتاب كما يحدث لكثير من الزملاء الذين يؤلفون فى موضوعات مختلفة ، فإن الواحد منهم ينتهى من موضوعه ، ثم تمر به فترة راحة قد تمتد شهوراً أو سنين ريثما يخطر بباله موضوع جديد ليبدأ فيه ، ولكننى كنت أنتهى من جزء لأبدأ فى جزء آخر بعد راحة قصيرة أو — أحيانا — بدون راحة ، وكان هذا أيضاً من عوامل السرعة فى الإنتاج .

وعامل آخر ساعد مساعدة فعالة على السير فى التأليف بسرعة ، ذلك هو الإصرار على التضحية من أجل الهدف ، وذلك هو تطويع النفس على الحرمان من النتائج المادية والمعنوية السريعة رجاء الوصول إلى نتائج أوسع وأشمل مع مرور الزمن ، ولأضع هذا فى حقائق محددة أذكر أن الإعارات للخارج لم تجتذبنى قط مع مافيها من إغراء مالى ، وكنت أحيانا أُطلب شخصيا فأعتذر ، فقد كانت القاهرة مركزا أساسيا لى فى كثير من الأحيان بسبب وفرة المراجع وضرورتها ، وبسبب أن الأقطار الخارجية تستنفذ طاقة المعار لتستفيد منه أكبر فائدة ، وتقدم له ما يغريه بالعمل الإضافى الذى لايدع نشاطا للتأليف والتفكير . أما رحلتى إلى إندونيسيا فقد كانت لضرورة خاصة . وكانت رحلتى إلى السودان ذات هدف علمى واضح .

ويدخل فى هذا النطاق موقفى من المحاضرات الإضافية أو المقالات التى تطلبها المجلات والصحف . فلم يجتذبنى هذا ولا ذاك مع ما فيه من فائدة سريعة لأنه استنفاد لجهد رأيت دائما أن يوجه لخدمة المدى البعيد .

وعامل ثالث كان عظيم الأثر فى الوصول لهذه النتيجة ، ذلك هو طواعية اللغة والقدرة على الأداء فإذا كانت عندى فكرة فإن نقل الفكرة إلى عبارات جميلة سهلة مسترسلة كان دائما يسيرا . والحق أن كثيرين من المؤلفين يجيدون الأفكار أو يسعون لإجادتها . ولكن قدراتهم اللغوية

محدودة للغاية ومعرفتهم بقواعد اللغة وأساليبها ضئيلة ومع ذلك لا يتجهون لرفع مستواهم فى هذا المجال . وتراهم وهم يكتبون كأنما ينحتون من صخر . إن اللغة وسيلة ضرورية لمن يعانى التأليف ويمارســه وبدون السيطرة على اللغة يظل التأليف قاصراً .

والحديث عن اللغة العربية بالنسبة للمؤلفين العرب يقودنا لمقارنة خطــيرة ، هى أن الطبيب الإنجليزى والمهنــدس الإنجليزى والمــؤرخ — الإنجليزى .... أقدر على لغته من الطبيب والمؤرخ والمهندس العربى أو قل المصرى بوجه خاص ، وما يقال عن الطبيب الإنجليزى يقال عن الطبيب الفرنسى أو الألمــانى .

إن طواعية اللغة عامل مهم بالنسبة لكل من يمسك القلم ليكــون مؤلفاً ، وبدون اللغة الطيعة نفقد الأداة السليمة السلسة للتعبير عن النفس ، وقد كنت يوماً شاعراً كما ذكرت من قبل ، فلما تخليت عن الشعر أو تخلى الشعر عنى بقيت المقدرة على التعبير الجميل سلاحا رائعا يسَّر علىَّ كتابة ماجال بالخاطر أو مادبره العقل .

وعمل رابع وأخير أقدمت عليه بحزم ، ويمكن القول بإن قليلين قــد استطاعوا ان يُقْدِموا عليه ، ذلك العامل يتمثل فى زوجتى التى طلبت إليها أن تتخلى عن عملها لتتفرغ لمساعدتى على نحو ماشرحت من قبل . وربما كان مرتب زوجتى يدعو للاغراء ، لأنه وصل آنذاك رقما عالياً ، وكان المستقبل يوحى لها بالمزيد من الرقى ، وكان عملها ســهلا فقــد كانت قبل أن تستقيل تشغل وظيفة « عضو فنى » ، وكان مقر عملها على بعد خطوات من المنزل ، ولكن كل ذلك لم يخدعنى ، ووجدت فى بقائها بجوارى ما يساعد على مزيد من النجاح فى العمل والسرعة فيه ، فآثرت ذلك دون تردد ، وكان لهذا وزنه الكبير فى سهولة سير العمل .

تلك هى الأسباب الحقيقية العملية لكثرة الإنتاج ، وهى نموذج لمن شاء أن يرى ، ولمن يتطلع للمدى البعيد دون أن يدع نفسه فريسة لومضات خير لا تلبث أن تنطفىء وتذهب أدراج الرياح .

وقبل كل شىء وبعد كل شىء هناك عون الله وتوفيقه ، والمدد الضخم الذى نتلقاه منه ، فيدفع عجلة الحياة إلى حيث يشاء واهب الحياة .

الترشيح لمجلس الشعب

لم يكن فى الحسبان قط أن أرشح نفسى لمجلس الشعب ، فهو شرف لم أجدنى يوما ما مؤهلا لمباشرته ، ومسئولية لم أحس قط أننى أستطيع حملها ، ولكن الظروف دفعتنى دفعاً لأصبح مرشحاً أو على عتبة الترشيح ، فأفادنى هذا الموقف فائدة كبرى ، وتعرفت على معالم للحياة لم يكن من اليسير أن أتعرف عليها •

بطريق المصادفة البحتة حضرت سـنة ١٩٦٩ اجتماعا فى مدينـة « أبى حماد » عقد لتختار القيادات مرشح الدائرة لمجلس الشعب ، ومدينة « أبى حماد » هى مقر الدائرة التى تقع فيها بلدتنا ، وكان رئيس الاجتماع زميلا كريماً هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو هاشم ، وهو خطيب ممتاز وعالم فاضل ، سيطر بلباقة على الاجتماع ، وأثار فى الحاضرين إحساساً بمقدرته ومكانته فى مجال السياسة واللغة ، وبعد أن خطب فأجاد بعثت له ببطاقتى ، وعليها تحية ورجاء أن يمنحنى فرصة لكلمة قصيرة ، وعرض الأستاذ محمود أبو هاشم هذه الفكرة على الحاضرين بأدب جم قائلا: إن أستاذه يحضر هذا الاجتماع ، ومن الوفاء أن يبر التلميذ بأستاذه ، وأن هذا الأستاذ (وذكر اسمى) يطلب الكلمة وطلب رأى الحاضرين ، فوافقوا بالإجماع •

لقد وصفت آنفاً مكانة الأستاذ محمود أبو هاشم بين الحاضرين ، وكان أغلبهم لا يتوقع أن هناك من يفضله أو حتى يماثله ، فما بالك أن يوجد أستاذ له ، وأنا لم أكن أستاذا للأستاذ محمود ، ولكن أدبه العـالى وضعنى فى هذا المكان • والمهم أن الحاضرين استقبلونى أروع استقبال من كان يعرفنى من قبل ، ومن كان يسمع عنى دون أن يرانى ، ومن سمع عنى خلال هذا التقديم الكريم •

وانطلقت أتكلم ، وشـددت أسماع الحاضرين بحديثى ، ذكرت أن

دائرتنا فى موقف دقيق ، إنها على خط النار ، وينبغى إعدادها اعداداً خاصا لتقوم بواجباتها تجاه الوطن ، وأن ممثل هذه الدائرة مسئول عن هذا الواجب ، وناديت بأننا لا يمكن أن نخلى بلدان الدائرة بلدا إثر بلد أمام العدو الزاحف ، بل لابد أن نصمد ونموت فى المعركة ، ويتحتم أن يكون الفلاح مزارعاً ومحارباً ، وكذلك يكون التاجر والموظف بهذه الدائرة ، وذكَّرت الحاضرين بما قدمناه من جهود فى الحملات المختلفة التى تعرضت لها بلادنا حتى شرفت بيوتنا وأسرنا بأعداد كبيرة من الضحايا والخسائر ونحن نقف على باب قطرنا المجيد ندافع عنه بإصرار واستماتة .

وانثنيت لواجبات مجلس الشعب فى هذه الحقبة المريرة ، ذاكراً أن هذا المنصب لم يعد للترف وإنما للكدح والجهد ......

وعندما انتهيت من خطابى كانت هناك همسات بأن هذا المتحدث ينبغى أن يكون ممثل الدائرة فى مجلس الشعب ، وعدت إلى قريتى دون أن أحس بهذه الهمسات أو دون أن أعلق عليها ، ولكن سرعان ما انهالت الوفود على منزلى تطلب منى أن أرشح نفسى وتبايعنى على الاستجابة . ولم تنقطع الوفود من كل قرية ومن كل نجع ، وشاهدت ما يمكن أن يسمع إجماعا على ترشيحى .

نكان الناخب بالريف وتكريم المعلم :

وانفعلت انفعالا سيطر علىَّ وعلمنى كثيراً مما لم أكن أعلم ، إنهم يتهمون قرانا بالجهل ، ويتهمون أهلينا بالريف بأن المال والرشوة تحرك وجدانهم ، والذين يقولون هذا هم الذين لم يعرفوا الريف ولم يتدارسوا أحواله وقيم الحياة فيه ، ليت هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد جاءوا إلى دائرتنا ليروا وليسمعوا كيف تصرف الناس وماذا قالوا ، لقد كانت الدائرة كلها أصواتاً تهدر بالترحيب وهتافات تحمل التحية ، وتجمع طلاب الجامعات على اختلاف ثقافاتهم وكأنى أستاذ لكل

منهم ، طبعوا المنشورات على حسابهم ، وطافوا بالقرى يحملون ماسموه بالبشرى ، والتقى المتعلمون هنا وهناك يؤيدون ويبايعون . واستجاب الزارع والتاجر والصانع بشيء من الزهو لأنهم سيبعثون أستاذا بالجامعة ليكون ممثلا لهم بمجلس الشعب ، ولم يطلب الناس منى مالا . ولاطمعوا فى عون ، وإنما جاءت وفودهم تطلب شيئا واحدا هو أن أزور القرى ليتم لقاء بينى وبين الجماهير التى ارتبطت بى دون لقاء ، أما أهل بلدتنا « عليم » فقد تخلوا عن أعمالهم وأهملوا مصادر رزقهم وتفرغوا للدعاية والزيارات . وراح كل منهم يتجه إلى أقاربه وأصدقائه فى تلك القرية أو هذا النجع . ورحت أزور البلاد فيستقبلنى الناس بسرور وغبطة ، وكانت زغاريد النساء ترتفع فى الجو ، وتحيات الرجال تملأ الأسماع والقلوب ، وتقربت للمتعلم ولغير المتعلم بكتبى فقدمت مجموعات منها لبعض البلاد ، كما ألقيت كلمات فى حشود الناس ، وكانت لغة العلم وسيلة قوية للقربى ، وطريقا سهلا للنفوس .

وأذكر أننى ذهبت مرة للعزاء ، ولكن أهل الفقيد اقترحوا أن ألقى كلمة فى السرادق بين جموع المعزين ، ولم أكن أنوى الكلام ، فموقف العزاء لا ينبغى أن يستغل فى الدعايات الانتخابية ولكن رغبة الناس دفعتنى إلى حديث طويل عن فلسفة الحياة وعن فلسفة الموت ، وعن الفكر الإسلامى فى الحياة بعد الموت ، وعن آداب المآتم ، وعن التزاماتنا لنؤدى واجباتنا فى الحياة ، واستطردت فى استحياء إلى مناسبة الانتخاب . ولكن الناس شجعونى على الاستطراد فى القول بأن ألقوا بعض الأسئلة ، وكانت مجاملة طيبة منهم ، أن يتيحوا فرصة لى لأتكلم فى جموع من أكثر القرى المحيطة بنـــا ، ومن المجاملات التى أذكرها متصلة بهذا الموقف أن بعض المعزين من قرى لاتدخل فى حدود دائرتنا جاءوا يطلبون منى أن أجعل ترشيحى عن دائرتهم ، فلما أخبرتهم بأن هذا غير ممكن راحوا يغبطون أهل دائرتنا على ارتباطى بها .

وهناك مجموعة من الشبان فى بلدة مجاورة لنا إتصلوا بالمرشح المنافس

وطلبوا منه عدم نزول بلدتهم منعاً للفتن والاضطرابات .

لقد كانت موجة رضا بالغة الحد فى الروعة . تركت فى نفسى أطيب الذكريات ، وربما يسألنى القارىء عن نتيجة الانتخاب فأقول له : إن الترشيح لم يتم فقد تبين لنا أن مرشح الدائرة لابد أن يكون فى جداول الاتحاد الاشتراكى بها . وأنا لم أكن أحب الاتحاد الاشتراكى ولا أومن به . ومع هذا كنت للأسف عضوا به فى نطاق عملى بالقاهرة لا بالريف . وجرت محاولات لنقل القيد ولكنها لم تتم ، وعدت أدراجى إلى القاهرة وبنفسى أطيب الذكريات بالنسبة لآلنا فى الريف الذين طالما ظلمهم النقاد . لقلة تعرفهم عليهم . ولو عرفوهم لأدركوا أن المحتد الطيب والنفس الطيبة والإباء والشمم تتخذ من الريف مكانها المختار .

تحية طيبة تحمل أعمق عرفان بالجميل إلى بلدتنا و... جميعا ... إلى أولئك الذين وقفوا بجانبى وبذلوا أقصى الجهد لمساعدتى . ولست أذكر هنا أسماء هذه القرى وهؤلاء الرفاق خوفا من أن أنسى بلدا أو شخصا فيسىء ذلك إليه . وباسم العلم الذى كرمونى به أعاهدهم على خدمة الوطن والدين بكل إخلاص وعمق من أى موقع أقف فيه .

* * *

كيف نتعرف على المرشحين بالمدن ؟

بقيت نقطة مهمة تتصل بالانتخابات أعرضها رجاء أن نجد لها حلا . لقد رشحت فى دائرتنا ، وكان سهلا على أهل الدائرة أن يعرفوا كل شىء عنى وعن سواى من المرشحين . فعائلات الريف بينها اتصال واضح . ويمكن أن نتعرف بيسر على كل النواحى التى تهم الناخب فى المرشح .

ولكن كيف يمكننا أن نحسن الاختيار بالمدن التى لا يعرف الجار فيها جاره ، ولا يعرف الساكن فى عمارة شيئاً عن السكان الذين يسكنون معه نفس العمارة ، وقد رأيت فى المعادى حيث أسكن عشرة من المرشحين بعضهم

من حلوان وبعضهم بين طرة أو دار السلام أو المعادى ، ووجدتنى لا أعرف شيئاً عن أى منهم ، وسألت بعض الناس فلم يكن المسئول بأعلم من السائل ، ووقفت حائراً ، وأخيراً قررت ألا أدلى بصوتى ، أو بلغة أخرى ألا أضع صوتى حيث لا أعرف مقره ، وآثرت أن أدفع الغرامة على أن أختار لمجلس الشعب من لا أعرف عنه شيء ولا عن صلاحيته أية إشارة .

لقد كانت الأحزاب من قبل تختار لنا ، فكان انتخاب الناس لمرشح الوفد مثلا معناه حرصهم على أن يجيء الوفد إلى الحكم بمبادئه واتجاهاته ، ولكن بعد إلغاء الأحزاب اضطربت الأمور ، ولذلك أقدر أن المجالس البرلمانية بدون احزاب هيئات لا أساس لها ولا أمل فيها ، وهى تمثل الحاكم ولا تمثل الشعوب .

طلاب الجامعات من ريفنا وحياتهم فى بيتنا

عندما كنت طالباً بالتعليم العالى كنت ملتحقاً بالقسم الداخلى . وكانت دار العلوم تهيىء لنا المسكن والزاد ، وعلى هـذا نجوت مما يعانيه الطلاب فى القاهرة المزدحمة من عناء البحث عن مسكن يعيشون به ، ولكن نجاتى من هذا لم تدعنى جاهلا بما يقاسيه الآخرون ، فقد زرت بعض الزملاء من مختلف الكليات وشاهدت كيف يعيشون ، فوجدت الكثيرين منهم يعيشون فى الحارات والأزقة ، ووجدت الطرق إلى مساكنهم بعيدة عن النظافة ، ورأيت جماعات الذباب توشك أن تطارد السكان ، واحتجت مرة أن أتصل بطلاب من بلدتنا وكان معى عنوانهم ، فوجـدتنى أتسـلق مطلعا ثم أهبط إلى واد سحيق ، وأسير فى مناطق عجيبة ، وأسمع عبارات مريرة هى طابع أطفال تلك المناطق ، ثم وجدت « طلمبة » وشجرة توت وأحسست أنى فى منطقة تجمع مباذل المدن ومباذل الريف ، وكان ذلك حيث يسكن هؤلاء الطلاب .

ولـمـا انتهيت من دراستى العالية وعينت مدرساً بالأورمان النموذجية ، ذهبت أنا وزميلان لى هما الأستاذ عبد الله حشيش والأستاذ أيوب المسلمى لنبحث عن شقة نسكن فيها معاً ، وقصدنا حى السـيدة زينب باعتباره الحى الشعبى الذى يلائمنا الإيجار به ، واتصلنا بسمسار فى ميدان السيدة زينب فسألنا عن الإيجار الذى نرغب فى دفعه شهريا ، فقلنا له حوالى سبعة جنيهات ، وكان ذلك سـنة ١٩٤٥ أى أن الجنيهات السبعة كانت لها قيمة يعتد بها ، ولكن السمسار صاح فينا بأن علينا ألا نفكر فى عمارات الميدان والشوارع الكبيرة المتفرعة منه وعلينا أن نتجه للحارات الداخلية . وكان رأيه سديدا ، فلم نجـد مسكناً بهذا الإيجار إلا فى حارة نائية حاولت حديثاً أن أتعرف عليها فوجدتها قد أزيلت من الوجود وابتلعها أحد الشوارع الجديدة .

هذا العناء ثبَّت فى نفسى حقاً من حقوق الطلاب فى عنقى ، فلما أتيح

لى أن أبنى لنفسى مسكنا أعددت به شقة صغـيرة مستقلة ، أضـواؤها متلألئة ومعها دورة مياه ، وتتبعها حديقة صغيرة — وفرشت هذه الشقة بفراش مناسب ، وجعلتها هديتى إلى طلاب الجامعات من ريفنا لا فرق بين قريب وبعيد ، ولا بين غنى وفقير ، فقد كان بعض الموسرين يفضلون أن يعيش أولادهم فى هذه الشقة ليكونوا تحت رعايتنا وعلى اتصال بنـا ، ودفعنا مساعدات مالية منتظمة للطلاب المحتاجين بالإضافة إلى رسوم الجامعات وثمن الكتب ، أما الموسرون فقد قنعوا بالمسكن المجانى النظيف الذى يقع فى منطقة جميلة ، ويضعهم مع طبقة طيبة من السكان .

وتوالى الطلاب جيلا بعد جيل يتعلمون ويتخرجون من مختلف الكليات مرتبطين بهذا المسكن ، وكنا نجد فى جوارهم أنساً ووداً .

كم كلفتنا هذه الشقة ؟ الحق أن تكاليفها أقل جدا من فائدتها ، وقد دفعت التكاليف مرة واحدة ، ولكن فائدتها تتجدد على مر السنين ، وياحبذا لو اتجه الموسرون هذا الاتجاه ، إن هذه الرغبة هى التى دفعتنى لكتابة هذه السطور لأدعو القادرين على تقليد هذا الاتجاه ، ولست أقصد بالقادرين الأغنياء ، فالله يشهد أننى بدأت هذا التصرف وأنا أقرب إلى الفقر منى إلى الغنى ، ولكنى أقصد بالقادرين هـؤلاء الذين يسيطرون على أنفسهم ، ويوسعون دائرة التزاماتهم ، ويجعلون فى أموالهم حقا معلوما للعون على طلب العلم .

وأرجو ممن يفعل هذا ألا يتوقع الولاء والوفاء مـن هؤلاء الذين ساعدهم ، فلا شك أن بعضهم لا يعرف الولاء ولا يحب الوفاء ، وربمـا حاول بعضهم فى مستقبل الزمن أن يهرب من هذه الذكرى وأن يتمرد عليها لأنه ظنها تسىء إليه ، إنى أوصى من يفعل هذا أن يتلذذ به ، وأن يتذكر القرآن الكريم الذى قال : لا نريد منكم جزاء ولا شكورا .

إنها متعة أنعم بها حينما أرانى أشركت سواى فى نتائج جهدى ويسرت العلم لطلاب العلم .

الديمقراطية والشواطىء

كثيرون من الناس يهرعون إلى الشواطىء فترة من فترات الصيف بعد جهد طويل طيلة العام ، وأنا شخصياً ممن اعتادوا أن يتخذوا الاسكندرية ملاذا لهم مدة أسبوعين أو ثلاثة كل عام ، أتفرغ خلالها للبحر والطبيعة وأتخفف من اللجان والاجتماعات والارتباطات والتليفون ... ولا أقول إننى أتخلص من العلم فذلك مالاطاقة لى به ، فالعلم عندى هو الهواء وهو الحياة ، بل إنى أصحب إلى الإسكندرية بعض الأعمال العلمية الصعبة التى تحتاج إلى التفرغ لها والعكوف عليها ، وبين جمال البحر وصفاء الجو والبعد عن التزامات القاهرة أستطيع فى الغالب أن أكتب ما أريد .

وقد اعتدنا منذ سنوات طويلة أن ننزل فى منطقة « سيدى بشر » وأصبحنا بمرور الزمن أصدقاء لسكان المنطقة ، فهم يكرموننا ويساعدوننا بكل طاقاتهم ، وساحل البحر هناك جميل ، كان فى الماضى هادئاً وديعا ، لأن المنطقة التى كنا ننزل بها كانت خاصة لا يدخلها إلا أصحاب الكبائن أو الذين يدفعون بعض الرسوم (ثلاثة قروش للفرد) ، وكانت بجوارها مناطق عامة لا تدفع رسوم على ارتيادها ، وبالتالى كانت هذه المناطق صاخبة حافلة بكل أنواع المرح والصراخ واللعب . ومن الطبيعى أن هناك جماعات تذهب للبحر طلبا للراحة والهدوء ، وجماعات أخرى تذهب إليه للمرح واللعب ، وكان كل فرد يجد طلبته فى مكانها .

ثم جاءت الديمقراطية أو الاشتراكية ، وهللنا جميعا مرحبين راجين أن نجد فى رحابها ما افتقدناه من قبل ، ولكن باسم الاشتراكية المظلومة أزيلت الحواجز بين منطقة ومنطقة بالبحر . وكان هذا مصدر عناء كبير . فكأنك وصلت دار العبادة بالسوق ، أو أزلت الأستار بين الماكينات وقاعات البحث . لقد أصبح البحر ضجيجاً ارتفعت فيه الأصوات ، وزحاما يركب الناس بعضهم بعضاً أو يكادون ، وملاعب كرة من الأمام

ومن الخلف ، تحول بينك وبين المـاء وتحول بينك وبين الشواطىء • وامتلأ الشاطىء بالأوراق والمهملات والمخلفات • وبالتالى لم يعد الساحل مكان راحة أو مكان تفكير • فاضطررت أن أعتزل الساحل وأن ألجأ إلى « كازينو بترو » على الكورنيش لأرى المـاء من بُعد ، بَعد أن أصبح عسيراً أن أكون على مقربة منه • وفى مكانى الجديد وجدت كثيرين قـد فعلوا مثل ما فعلت ولم يعد يطيب لهم أن يجلسوا فى كبائنهم أو يسعدوا بصفاء البحر وجماله •

هل من الاشتراكية أن نتصرف على هذا النحو ؟

وهل قضت الاشتراكية بهذه المساواة ؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا توجد الدرجات بالقطار والسيارات العامة ودور الخيالة ؟ ولـماذا لا نفتح الأندية لكل الناس مشتركين وغير مشتركين ؟ ولماذا ندع الناس متفاوتين فى لباسهم وطعامهم ؟ ولماذا نترك السيارات الفاخرة وبجوارها الأوتوبيسات المكتظة بالبشر ؟

ثم لماذا خصصنا شواطىء خاصة لسكان المعمورة ؟ ولرواد ستانلى وسان ستيفانو وبوريفاج والنوادى الممتدة على كورنيش الاسكندرية •

إن الاشتراكية كمـا عرفتها من أدق مراجعها هى أن نتيح تكافؤ الفرص للمواهب والقدرات ، فليس الباب موصداً أمام أى ذكى كما كانت الأبواب موصدة من قبل ؛ فالكفء يستطيع أن يعمل ويكدح دون عائق يقف أمامه حتى يصل إلى غايته • والاشتراكية ألا يعيش المتطفلون على حساب الكادحين ، وهناك فى ظل الاشتراكية طبقات لا يمكن الاستغناء عنها ؛ هناك الوزير والطبيب والمهندس والعامل والخادم • ولكلٍّ مكانه فى الهيئة الاجتماعية بحسب مواهبه • ولا يجوز للعامل أن يجلس على كرسى الوزير • ولكن يجوز له أن يعمل ويبرز مواهبه إن كان موهوبا ،

حتى يصل إلى منصب الوزير أو أكبر منه فى يوم من الأيام أو أن يدفع ابنه إلى هذا الهدف •

هناك فى النظام الرأسمالى طبقية ثابتة ؛ فللغنى أسر لايتعداهم إلى غيرهم ، وللوزراء أسر ، وللنجارين أو الحدادين أسر كذلك يتوارث الصغير صناعته عن أبيه وهكذا ، ولكن النظام الاشتراكى به طبقية ولكنها متحركة ، فابن الوزير إن أهمل انحطت درجته ، وابن الحداد إن جد علت مكانته ، وشغل أسمى المناصب •

كم أتمنى أن نصحح مفهوم الاشتراكية ليعمل كل فرد فى نطاق كفاءته ولينال نتائج جهده • وفى ظل الاشتراكية الصحيحة ستوضع الأسس السليمة لحياة تريح الناس جميعاً • وسيجد من يريد الهدوء على ساحل البحر مكانا للهدوء ، ومن يريد ملاعب وصخبا سيجد أمكنة للصخب والملاعب • أما الذى أراه على ساحل البحر بالاسكندرية فشىء بعيد عن كل القيم وبعيد عن كل المبادىء السامية •

نحن وإسرائيل

تهمس بعض الأفواه أحياناً : لمـاذا لا نعترف بالأمر الواقع ونصالح إسرائيل ؟ لمـاذا يظل التوتر يسود المنطقة ؟ إلى متى نريق دماء أبنائنا ونوجه أكثر ميزانيتنا للمعركة مع ما يسببه ذلك من خشونة وحرمان ؟ وأسئلة كثيرة من هذا اللون يهمس بها بعض الناس •

وأنا كمؤرخ أحب أن أضع لهؤلاء بعض الحقائق لعلهم يتدبرون أمرهم بعمق ، وأبدأ فأوضح أن هناك صلحاً ومودة بين اليهود وبين أمريكا ، فماهى نتيجة هذا الود ؟ وهناك صلح بين يهود انجلترا وبين باقى سكانها فما هى نتيجة هذا الصلح ؟ وهكذا دواليك •

النتيجة هى أن القلة اليهودية أصبحت تتحكم فى الكثرة الغالبـة بأمريكا وبانجلترا وغيرهما ••• وذلك عن طريق وسائل الإعلام والدعاية ، فقد ثبت فى الإحصاء الذى أجرى سنة ١٩٥٦ الخاص بالصحافة أن اليهود يصدرون ٨١٩ صحيفة ومجلة بمختلف اللغات ، وفى مختلف الأقطار ، وهو عدد يمثل الأغلبية العظمى من صحف العالم ومجلاته ، ولليهود مثل هـذا التفوق فى وسائل الإعلام كدور النشر ووكالات الأنباء ، بل والسينما والإذاعة والتليفزيون فى معظم بلاد العالم ، ويسيطر اليهود على الصحافة والنشر بطريق آخر هو طريق احتكار تجارة الورق ، فهم يقبضون أيديهم ويبسطونها حسب استجابة الصحافة لأغراضهم ، ويتسرب بعض الكتاب من أتباعهم إلى الصحف التى لا تخضع لهم تمام الخضوع ، وإذا حدث أن صحفيا عُرِفَ بمعارضة اتجاهاتهم وضعوا العراقيل أمامه حتى يفقد وظيفته أو يخضع لاتجاهاتهم •

فاحتكار اليهود متكامل الحلقات ، فهم يسعون إلى احتكار ما يسيطر على معدة الإنسان ، ويسعون كذلك إلى احتكار ما يسيطر على عقلـه وعواطفه لذلك كان احتكار الصحافة وشركات الأنباء ودور النشر مـن

الخطوات الأساسية فى هذا السبيل — فعن طريق هــذه الوسائل ينشر اليهود مــا يناسب مصالحهم ويمنعون من النشر كل ما يعارض هــذه المصــالح •

وهكذا خضعت القوى الكبرى لليهود عن هذا الطريق ، وهناك طريق اخر يعمل لنفس الغرض وهو المــال اليهودى والمرأة اليهودية • وعن طريقهما يصل سلطان اليهود إلى السيطرة على النفوس الضعيفة ، وهناك كذلك الحيل اليهودية التى تغرق الناس فى التفكير فى الأمور التافهة لتصرفهم عن الشئون الجليلة ، ومن هذه الحيل كرة القدم وغيرها من الألعاب الرياضية التى تشــد انتباه بعض السذج وتصرفهم عن المشكلات الكبرى ببلادهم •

وقد هُزِمنا أمــام جيوش إسرائيل فى بعض المواقف العســكرية ، وانتصرنا عليهم فى حرب السادس من أكتوبر (١٩٧٣) العاشر من رمضان (١٣٩٣ هـ) ولكن أمريكا لم تتحمل هــذا النصر ، فأسرعت بعون واسع لإسرائيل ، ومن العبث أن نطلب من أمريكا ألا تؤيد إسرائيل ، فالمطلعون يقررون أن إسرائيل تمثل ولاية أمريكية فى قلب الشرق الأوسط ، والمعاهدات بين أمريكا وإسرائيل تحمل هذا المعنى •

وبالتالى لا نستطيع الاعتماد على الاتحاد السوفيتى الذى ظهر لنا من مواقف متعددة أنه يتجه إلى إضعافنا لنخضع له ونسلمه الزمــام •

ولا نستطيع كذلك أن نحارب أمريكا فذلك شىء مستبعد ، ومن هنا كان من الضرورى أن ننتهز فرصة الانتصار الذى لم يتم على إسرائيل فى حرب رمضان وندخل فى مفاوضات نحقق بها بعض أطماعنا ونستعيد بعض حقوقنا ، وطبيعة المفاوضات أنها أخذ وعطاء وليست من جانب واحد ، وفى هذا الأخذ والعطاء كان نصيبنا معقولا ، فقد عادت قناة السويس الى نشاطها ، واستعدنا بترولنا واستعدنا كل سيناء •

صحيح أن هناك قيودا ولكن لم يكن بدٌ من ذلك لنلتقى ، صحيح أننا اعترفنا بوجود إسرائيل ولكن الحق الذى لامراء فيه أن إسرائيل موجودة أردنا أو لم نرد ، وأن التعبير الذى يقول « اسرائيل المزعومة » شعار أهوج لا يتمشى مع الحقيقة .

وصحيح أن العرب تخلوا عنا وتركونا ننفق على المعركة من أموالنا ونقدم التضحيات من أرواح أبنائنا ، وكانوا يعدون ما يقدمونه لنا من مال كأنه منحة وعطاء وليس مشاركة لهدف مشترك ، وانتهزوا أقرب فرصـــة ليقطعوا معونتهم ويحاربوا هذا الشعب الذى ضحى بالكثير من أجلهم .

ونذكر تاريخيا أن الرسول صلوات الله عليه عقد معاهدات مع يهود خيبر ووادى القرى وتيماء وفدك ، وعقد صلاح الدين الأيوبى معاهدة مع الصليبيين ، فليس هناك ما يمنع من عقد معاهدة الآن ويترك المستقبل لـما يخفيه المستقبل .

ويؤخذ علينا أننا وافقنا على تطبيع العلاقات مع إسرائيل واعتقادى أنه لا توجد قوة تستطيع أن تطبّع العلاقات مع دولة تساعد إيران ضد العراق ، أو تضرب المفاعل العراقى ، أو تهاجم لبنان من حين إلى آخر وتحتل أرضه ، وتقتل فيه الأبرياء ....

لتكن كلماتٍ عن التطبيع ولكن وضعها موضع التنفيذ يحتاج لصفاء وحسن جوار وطيب معاملة ، وذلك لا نجده فى إسرائيل .

مصر والاستيراد

إن جيلنا يذكر تماما يوم كانت بلادنا زاخرة بكل جديد وكل جميل ، وكان الناس فى البلاد العربية ، وفى إفريقية ، وكثير من مناطق آسيا ، يفدون لها ليجدوا بها كل وسائل المدنيـــة والرقى وكل مطالب الترف والرفاهية ، وكانت مصر منذ أزمنة بعيدة مشعل العلم والنور ومركز العرفان والخير ، فطالب العلم لا يجـــد سواها فى دول الشرق الأوسط • والمريض يجىء لها مع الأنين ويعود مع الصحة والسلامة ، والمكتئب الحزين يجـــد فى نسيمها الانطلاق والانتعاش •

وكنت فى الشرق الأقصى حيث عرفت أن أثرياء العرب الذين استوطنوا إندونيسيا كانوا يفدون إلى القاهرة لشراء جهاز كل عروس من الأسر الغنية ، وكانت العروس من هذه الطبقة إذا لم تحصل على جهازها من القاهرة لا تكتمل فرحتها ، وتعد نفسها خسرت قسطا كبيرا من السعادة •

ومرت الأيام وجدّت ظروف وبُلينا بالحرب مع هذا العدو الغادر الخائن ، ووجهنا جزءاً كبيراً من دخلنا للاستعداد لمواجهته (حوالى ١٠٠٠ مليون جنيه سنويا) وكان لابد من أجل ذلك أن تخلو أســواق القاهرة من مظاهر الترف ، وأن نعيش فى شىء من الحرمان النسبى ، وفى نفس الوقت تدفق البترول فى كثير من البلاد العربية ، وبينما كنا نسير نحـــو التقشف من أجل المعركة ، اتجه منتجو البترول إلى البذخ والإسراف فيه ، وبينما خلت أسواق القاهرة أو كادت من وســـائل الترف زخرت أســـواق « أبو ظبى » و « الكويت » ••• بأحدث ما أنتجه العقل البشرى من وسائل المتع والنعيم •

وحصلت بذلك مفارقات عجيبة ، ففى مصر يعيش المفكرون والمؤلفون فى مختلف فروع المعرفة ، ولكنّ ورق الطباعة وماكينات الطباعة الحديثة قليلة بها ، وغير موجــودة أحياناً ، وفى مصر أطباء من أرقى المستويات ولكن صيدليات القاهرة تخلـــو من بعض الأدوية الضرورية ، وفى مصر

أعظم المهندسين ، ولكن أدوات البناء نادرة ، وفى مصر يوجد الخياطون المهرة للرجال والنساء ، ولكن القماش الفاخر غير موجود ....

والمصريون يَغْشَوْن البلاد العربية وبلاد العالم زائرين أو عاملين ، ورأوا هناك ما لم يجدوه بالقاهرة فاتجهوا للاستيراد ، وبالغوا فيه ، فإذا ظهر قماش بالكويت ، اشترت السيدة المصرية منه فساتين بعدد ألوانه ، وفعل الرجل فى ملابسه مثل ذلك ، كما اتجهوا لشراء الأجهزة النافعة والأجهزة المسلية على السواء ، وبالغوا فى ذلك أيضاً ، وعندما عزت قطع الغيار الخاصة بالسيارات اتجه صاحب كل سيارة لشراء رصيد كبير من قطع الغيار قد لايحتاجه طيلة عمر السيارة ، واتجهوا كذلك لشراء الأدوية ، ولو أن مفعولها قد يبطل قبل أن يحتاجوها .

المهم حصل نَهَمٌ فى الاستيراد وفى الشراء من الخارج ، وفى تكوين مخزون كبير دون تفكير عميق فى مدى فائدة المشتريات ، إذ أصبح خزن البضائع هدفا فى ذاته .

استيراد الأشخاص ولغير ضرورة :

والعجيب أن الرغبة فى الاستيراد تعدَّت الأدوات والمنتجات المرتبطة بالترف والنعيم ، وأصبحت الرغبة فى الاستيراد ذاتية ، حتى إذا وجد بمصر ما يفضل الأشياء المستوردة ، ويتضح ذلك تمام الوضوح عندما نرى استيراد الأشخاص الذين يرتبطون أىَّ ارتباط بفن من الفنون ، فالشباب الذى يحترف الغناء فى أى بلد ، لايجد كالقاهرة مكانا لإعلاء شأنه ، والحديث عنه ، وتقديمه للناس ، والشاعر الذى لا يسمع به أحد فى بلده ، يجد بالقاهرة الندوات تقام إليه ، وكبريات الصحف والمجلات تنشر له وتذيع أمره ، والمفكر المسلم الذى لا تعرفه المكتبة الإسلامية ، تقدمه وسائل الإعلام المصرية على أنه فيلسوف مسلم عالى الشأن عميق الفكر والبحوث ، .....

إنه فى تقديرى داء الاستيراد تعدَّى الأشياء إلى الأشخاص ؛ وأضرَّ بنا أكثر مما نفع .

العرب الآن وعرب الأندلس

عشت فى تاريخ الأندلس فترة طويلة عندما كنت أكتب الجزء الرابع من موسوعة التاريخ ، وقد كنت أغرق فى الدهشة ، وأوشك أن أصرخ عندما أرى الصراع يدور بين ملك عربى وملك عربى آخر من ملوك الطوائف والعدو يتربص بالجميع ، ويمد الجميع بالسلاح ، ويتقدم ليجنى الثمار دائما سواء انتصر هذا الملك أو ذاك ، فقد كان العدو يرى انتصار أى ملك عربى انتصارا له واندحار أى ملك فائدة تعود ثمرتها إليه .

كنت أغرق فى الدهشة وأنا أقرأ هذه المهازل وهذه الخيبة ، وأتساءل كيف اتجه هؤلاء الأوغاد للهو ، وأضاعوا بلادهم ؟ وركعوا تحت أقدام أعدائهم ، هؤلاء الأعداء الذين لم يكتفوا بالركوع بل قتلوا الراكعين وأبادوهم ، ألم يدرك هؤلاء أن التاريخ سيدوّن عنهم هذه المخازى وتلك المواقف المزرية ؟ وأن الأجيال تلو الأجيال ستقرأ هذا التاريخ وتلعنهم على إهمالهم وانحرافهم ؟

ولم أكن أعرف أن الأقدار تخبىء لى أحداثاً أبشع وأقسى ، لا لأسمع عنها ، ولا لأعرف أنها حدثت منذ مئات السنين ، بل لأراها رأى العين وأرى ضحاياها .

إن الصحافة الآن تحمل كل يوم أكثر مما حملت المراجع القديمة عن تاريخ العرب فى الأندلس ، إن العرب الآن بين نائم ، ومخدوع ، ولاه . وإن كلمتنا هنا محاولة لإيقاظ النائم وتنبيه المخدوع وتوجيه اللاهى إلى الاتجاه الصحيح .

إن الاستعمار وإسرائيل عدوان للجميع ، وإذا كان الثقل يتجه نحو مصر ، ذلك لأنها القلعة التى يمكن أن تقاوم ، وإذا — لاقدر الله — خرت مصر فابتلاع سواها هين سهل ، إن الذين يغريهم الثراء يجب أن ينتبهوا إلى أن الثراء هو هدف الاستعمار وإسرائيل ، والذين يخلنون

أنفسهم بعيدا يجب أن يدركوا أن الوسائل الحديثة قربت البعيد وقضت على المسافات ، والذين يخطر ببالهم أن يعملوا للتطوير ويهملوا المعركة ، عليهم أن يدركوا أن موقفنا الآن مرتبط بالوجود العربى نفسه ، ومع الوجود يمكن التطور والرقى ، وبدون الوجود لاتطور ولارقى ، ولم ينتظر شعب فيتنام ليتطور ثم يدفع الغاصب ، ولا انتظرت الشعوب التى جاهدت من أجل الاستقلال ، بل مارست حرباً زادتها تدميراً لتثبت وجودها أولا ثم يكون من السهل بعد ذلك أن يجىء دور التطور أو التطوير •

والعدو الذى نقاتله لانصفه بالشراسة أو القوة ، وإنما أبرز مزاياه الغدر وتحين الفرص ، إنه عدو يكره ويحقد ، ويطغيه النصر ويتلذذ بالدم ، عـــدو كثير الأطماع ، واسع الشَّرَه ولكنه بجانب ذلك جبان تزعزعه الوقفة الصلبة ، ويهزه الإصرار العنيد فى المعركة ، وذلك حاله على مر التاريخ ، يقسو أمام مَنْ يضعف له ، ويرتعد أمام من يَثْبُتْ أمامه •

قدر العرب واحد ومن الجهل أن نتناسى ذلك :

وقدر الأمة العربية مرتبط تماماً بعضـــه ببعض ، ولن يكون هناك استقلال لقطر عربى واحتلال لقطر عربى آخر ، فإما حرية للجميع ، وإما عبودية للجميع ، فالأمة العربية وحدة واحـــدة ، ومن السذاجة أن يعتقد إنســـان عربى أن من الممكن أن ينعم بالحرية إذا امتد الاحتلال إلى أى بلد عربى غير بلده •

وجميع المؤرخين يؤكدون أن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ كان مبدأ لخطة ترمى لاحتلال العـــالم العربى كله ، فإذا كانت مصر أو تونس مثلا لم تكترث بما حدث للجزائر وعاشت سنينها بعد احتلال الجزائر فى يسر واطمئنان فإن ذلك عين الغفلة وجهل بالتاريخ البشرى ومحركاتـه ، ولست أعد الدول العربية بعد احتلال الجزائر إلا فى حالة تخدُّر وعدم وعى أيقظتها الحقيقة المرة عندما دهمها الاستعمار ، ولكن هذه اليقظة جاءت بعد فوات الأوان •

مرة أخرى أريد أن أبرز هذه الحقيقة التى يبدو أنها تخفى على كثيرين ، وإنى لأحس لا بالحسرة ولكن بالإشفاق عندما أرى عربياً يعتقد أن من الممكن أن ينال السلامة وقد نزل الضر بسواه من العرب ، إنها نظرة سطحية ، نظرة الواهم المخدوع ، إنها فكرة ألقى بها العدو فى عقول بعض الأغرار ليجنى ثمارها وينال نتائجها ، ولنعد إلى التاريخ ليؤكد لنا أن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ كان خطوة نحو احتلال الشمال الإفريقى كله بوجه خاص واحتلال الوطن العربى كله بوجه عام ، مهما طال الزمن منذ بدأ التخطيط إلى أن تم التنفيذ .

وكمؤرخ أذكّر المفكرين العرب بالمحاولات التى أجرتها الدول الاستعمارية لتقسيم العالم العربى عقب احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ ، أذكرهم بمؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ وباحتلال تونس سنة ١٨٨١ واحتلال مصر سنة ١٨٨٢ ومعاهدة فرنسا السرية مع إيطاليا سنة ١٩٠٠ لاقتسام النفوذ بحيث تكون مراكش لفرنسا وطرابلس وبرقة لإيطاليا ، والمعاهدة المكملة لها سنة ١٩٠٢ واتفاق ابريل السرى سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وبريطانيا ، واتفاق أكتوبر من نفس العام بين فرنسا وأسبانيا وميثاق الجزيرة سنة ١٩٠٦ واحتلال المغرب سنة ١٩١١ واحتلال سوريا والعراق وفلسطين سنة ١٩١٨ .

علينا أن نتذكر هذه التواريخ المتلاحقة وأن نتأكد أن طول المدة بين احتلال أول بقعة وآخر بقعة فى الوطن العربى ليس إلا لظروف خاصة لا تغيب عن الفهم الواعى ، وفى ضوء هذا نحذّر الذين ينعمون بالاستقلال بأن يومهم آتٍ لا ريب فيه إن لم يجتمعوا بإصرار لتطهير الجسم العربى من هذا الوباء ، ونحذر الذين ينعمون بالغنى بأن غناهم لن يجديهم فتيلا وسيأكله الوباء إن امتد الوباء .

وأقرر كذلك أن بعض الناس يلقون تبعة ما نعانيه الآن على سرعة انهيار الجبهة المصرية سنة ١٩٦٧ ، ويبالغ بعض هؤلاء فيقفون من المصريين

موقفاً قاسياً ، وبعضهم يعود إلى الوراء فيلقى التبعة على الملك عبد الله وسلوكه سنة ١٩٤٨ ، وخلال السنين السابقة واللاحقة لهـذا التاريخ . وبعضهم يرجع أكثر إلى الوراء فيلقى التبعة على الأمير فيصل الـذى اجتمع بوايزمان سنة ١٩١٨ وتعاطف معه ، وبعضهم يلقى التبعة على وعد بلفور سنة ١٩١٧ أو على تقرير خبراء كامبل بنرمان سنة ١٩٠٧ أو على مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ ، ولكن الحق هو أنها حلقات متتالية ومنظمة ، والعدو يشغلنا بأن يلوم بعضنا بعضاً ليعد هـو لجولة تالية ، وإننا نهتف بالعرب أن يفيقوا قبل أن تتتابع الحلقات .

وقد كان من الممكن أن تتأخر حلقة من هذه عاماً أو أكثر من عام ، ولكنها لابد آتية مادامت السلسلة لم تحطم ، وينبغى أن ندرك أن خطأ شخص أياً كان هذا الشخص لا يمكن أن يؤخذ وسيلة للاضرار بالمجموع أو لتعطيل الاتحاد لمواجهة الخطر ، فإن ذلك هو أسمى ما يتطلع له العدو . وخطأ فرد هو أقل ما يمكن أن نقع فيه لأن العصمة لله وحـده ، بل هناك ما هو أبعد من الخطأ ، هناك احتمال الخيانة يقوم بها شخص أو أكثر من شخص بدافع الأنانية أو التدهور النفسى ، وحتى هذا لا يمكن أن يكون وسيلة ضد الهدف الأسمى وهو الاتحاد ، فعلى الطريق دائمـا يقابل السائر أنواعاً من العقبات ويقاس جهد الإنسان بمقدار ما يحقق من نصر على هذه العقبات .

وقد عرف تاريخنا الوسيط بعض الخيانات ارتكبها بعض الحمقى ، ولكن أجدادنا لم يتخلوا عن التعاون بسبب هـذه الخيانات بل أوقعوا بالخائن مـع استمرارهم فى المسـيرة حتى حققوا التعاون الكامل وبالتالى حققوا الانتصار .

وعلى هذا فلقاء العرب وحدة واحدة ليواجهوا العدو شىء ضرورى ووسيلة وحيدة للحفاظ على وجودهم وكيانهم ، وأرجو ألا تقف نقاط الخلاف عقبة دون الوصول إلى الوحدة ، فإنه إذا كانت هناك نقاط خلاف فإن هناك نقاط التقاء كثيرة جداً ويتحتم أن تتخذ أساساً للقاء .

اقتراح عملى لمشاركة العرب فى المعركة :

إن من الممكن أن يتعاون أى بلد عربى يتجه اتجاها اشتراكيا مع أى بلد عربى آخر له نزعة رأسمالية ، ولكن ليس من الممكن أن يعيش أى بلد عربى فى أمن بجوار إسرائيل أياً كان اتجاهه الاقتصادى ، وقد التقت الاتجاهات العربية جميعاً بعد هزيمة ١٩٦٧ وتعاونت مادياً لتعيد بناء نفسها ، ولكن هذا التعاون أراه تعاوناً أعرج ، إنه أشبه بمنحة تقدمها دولة إلى أخرى مع شىء من المن ، **والذى أراه أن تكون هناك نسبة معينة من كل ميزانية ، ونسبة معينة من سكان الأقطار العربية ليقف هؤلاء العرب فى صف واحد بالمعركة ولينْفَق عليهم من المال العربى ، وتدار المعركة بفكر عربى مشترك ، ويتجدد دفع الرجال من كل قطر إلى الميدان ؛ ودفع المال من كل ميزانية دون تردد حتى تنقشع الغمة .**

أسلحة أقوى من الفانتوم :

قد يقول المترددون والخائفون : إن انتصار العرب صعب مادامت أمريكا تؤيد إسرائيل ، تأييداً واسعاً ، أو بالأحرى مادمنا نحارب أمريكا مع إسرائيل ، ومادامت روسيا مترددة أو متورطة فى دورها الجديد مع أمريكا فلن تمدنا بما نحتاجه من سلاح ؟

وأقول لهؤلاء فى قوة الأب الذى يعلن افتخاره بأنه مستعد أن يلقى بأولاده فى الميدان ، وأن يسخّر كل قواه للمعركة ، أقول لهم : إنا معنا سلاحا أمضى من أسلحة أمريكا وإسرائيل ، ويتحتم علينا أن نستعمل هذا السلاح الذى أثبتت كل التجارب قوته وفاعليته : إنه السلاح الذى يواجه به الشباب الأعزل فى إيرلندا كل قوى بريطانيا ، إنه السلاح الذى واجهت به إندونيسيا وهى عزلاء أسلحة هولندا وكل قوى الغرب عقب هزيمة اليابان ، إنه السلاح الذى صمدت به الجزائر أمام فرنسا إحدى الدول الكبرى التى كانت تعد الجزائر جزءاً منها .

إنه الدم والإيمان والتضحية ، حتى لو استطعنا أن نقتل فرداً واحداً من اليهود نظير مائة منا ، إنه ألا نعيش عبيداً خائفين على المبانى الضخمة من الغارات ونسمح بتدمير النفوس والتراث والمكانة الاجتماعية والدولية •

ذلك فى تقديرى هو السلاح ، أما الأغانى التى نحارب بها فسلاح هزيمـــة ، وأما الهتافات التى نستعملها والشعارات التى نرفع أصواتنا بها فســـلاح ضياع ، والعدو يهزمنا بسلاحه مرة وبالكمد مرة أخرى فكم من أحرار يموتون هما ونكداً لمـــا وقعنا فيه ، ثم هو يهزمنا بالزمن فآلاف الملايين من الجنيهات التى تنفق للاستعداد بدون معركة هى فى الحقيقة سلاح ضدنا لأنها تدع الناس فى حيرة وفى حرمان وفى اضطراب اقتصادى غير محدود الأجل •

ويوم ندخل المعركة على هذا النحو سنحرك ضمير العالم الذى يتهمنا بالتردد ، ولايرى — بسبب سكوتنا — أزمة فى منطقتنا •

ويوم ننال النصر بهذا الطريق سيكون الفخر لنا جميعاً ، ولن يوجد أناس ينعمون بالحرية على حساب دماء الآخرين وحرمان الآخرين ، ويوم نفعل ذلك سننجو من حساب التاريخ ، الذى أخشى أن يسجل علينا ماسجل على عرب أسبانيا ، فنموت وتبقى لعنات التاريخ تنصب على الذين عاصروا هذه الفترة وأهملوا ، ولعلنا بذلك نكون قد بلغنا ، فاللهم اشهد •

* * *

أعداء لمصر يتظاهرون بالود لها :

بقيت نقطة كبيرة الأهمية ترتبط بالتقاء العرب فى مواجهة العدو ، وهذه النقطة هى من مشاهداتى التى تأكدت منها فى المؤتمرات العامة التى شرفنى أن كنت أحد ممثلى بلادى بها ، وخلاصة هذه النقطة أن هناك جماعات تتظاهر بالعروبة ، وهم لا يربطهم ولاء للعروبة ، يتظاهرون بحب مصر ليحاربوا مصر ، وقد رأيتهم يقاومون بشـــدة كل اتجاه يرمى لوحدة

العرب ، وأحسست من تحركاتهم أنهم يقصدون عزل مصر ، وإضعاف مصر ، ويتخذون أساس ذلك كلمات مثل : الرجعية والتقدمية ، أو الرأسمالية والاشتراكية فإذا قلت لهم إن هناك نقاط التقاء مهمّة ينبغى أن تتغلب على ما يمكن أن يكون من نقاط الاختلاف ، صاحوا يرجفون ويكيلون التهم لهؤلاء وأولئك ليباعدوا بين دول العرب .

أتمنى أن نكشف هذه الانحرافات ، ولعل الصيحة التى أدلى بهـا الرئيس أنور السادات فى عيد العمال سنة ١٩٧٣ مُعدّدا المملكة العربية السعودية والمغرب والعراق ..... بين الدول التى تلعب دوراً مهما فى المواجهة الشاملة ، لعل هذه الصيحة تُسْكِت هـذه الأصوات التى تهمس فى الظلام ، والتى تتخذ من الهزيمة سلعة تربح على حسابها ، مهما كانت التضحيات المـادية والأدبية التى تنزل بالوطن العربى وبدين الإسلام .

إننا نصرخ بأن جماعات لا تدين بالوفاء لوطننا ، ولا تدين بالولاء لديننا ، تريد الشرّ لهذا الوطن ، والضعف لهذا الدين ، وتتخذ من هذا الوضع القائم وسيلة لها ومن التظاهر بحب مصر أداةً لتنفيذ خطتها . فلنكشف هذه الجماعات المنحرفة ، ولنبعدها عن الطريق ، لتعلو كلمة الله .

مراكز الفكر الإسلامى بمصر

ينبغى أن تعيد النظر فى جهودها

ما هى مراكز الفكر الإسلامى بمصر ؟

إننا دون تردد نضع الأزهر فى قمتها ، ثم نضع كلية دار العلوم ، ومعهد الدراسات الإسلامية ، ووزارة الأوقاف ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وجمعية الشبان المسلمين ، والجمعية الشرعية .

وهل هناك مراكز إسلامية أخرى بالعالم الإسلامى ؟

نعم هناك مراكز أخرى عديدة ، ولكن يمكن القول إنها صدى للمراكز الإسلامية بمصر ، وإنها تحاكيها فى مناهجها وطرقها ، وتستعير من مصر أساتذتها غالباً ، ومن هنا كان الحديث عن المراكز الإسلامية بمصر حديثا يشمل فى طياته كل المراكز الإسلامية بالعالم أو أكثرها .

وأنا واسع الصلة بالمراكز الإسلامية بمصر كلها :

تعلمت فى الأزهر وعلمت به وعضو فى لجنة القرآن الكريم التى ألفها مجمع البحوث الإسلامية .

وأشغل وظيفة استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الاسلامية بكلية دار العلوم .

وأقوم بتدريس مقارنة الأديان والتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بمعهد الدراسات الإسلامية .

كما أقوم بتدريس هذه المواد بمعهد الإمامة الذى تشرف عليه إدارة التدريب بوزارة الأوقاف .

وعضو لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية •

وعلى صلة وثيقة بالشبان المسلمين وبخاصة بفرعها بالزقازيق •

وعلى صلة وثيقة كذلك بالجمعية الشرعية وبخاصة بمساجدها ومعاهدها بضاحية المعادى حيث أعيش •

ومن هنا فإنى أستطيع أن أتحدث عن جميعها حديث عارف خبير وفى الوقت نفسه حديث راغب فى الخير ساع إليه •

الأزهر وما يرجى منه :

وقد تحدثنا عن الأزهر من قبل ووضحنا حالته وما آل إليه ، وذكرنا أن الكليات الإسلامية به لاتزال تعيش مرتبطة بالماضى وغير متطورة مع الزمن ، وأشهد ويشهد معى عشرات الأساتذة أن خريجى الأزهر الذين نلتقى بهم فى معهد الإمامة ، والذين يُسْنَد لهم التعريف بالإســلام والدعوة له فى الداخل وفى الخارج أئمة ووعاظا ، هؤلاء غالبا فى حالة يرثى لها ، ويبعدون كل البعد عن المستوى اللائق ولا أقول المستوى الرفيع ، وقد يغضب من هذا الكلام من لا يعرفهم ، وقد يغضب منه أولئك الذين لم يفدوا لنا بعد بهذا المعهد ، أمــا الذين جاءوا لنا وسمعوا منى ومن سواى ، فإنهم أدركوا قصور ما قدّم لهم من فكر حول الإسلام والحضارة الإسلامية • وأشهد الله أن الكثيرين منهم ضحايا الإسرائيليات ؛ يدافعون عنها بحماسة أكثر مما يدافعون عن الفكر الإسلامى السليم ، اذ اختلط هذا وذاك عليهم • وفى كلمة واضحة نقرر إن الدراسات بالمعاهد الأزهرية وبالكليات الإسلامية بالأزهر أقل جداً من المستوى اللائق ، وقد وصلت الحال إلى أن كليات التربية بجامعات طنطا والزقازيق ••• رفضت قبول الطالبات الحاصلات على ثانوية الأزهر ، بعد أن ثبت ضعفهن ، إذ كانت نتيجة النجاح لهؤلاء فى كليات التربية حوالى ١٣ ٪ •

وكم كنت سعيدا عندما تلقيت خطابا باختيارى عضوا فى لجنة القرآن الكريم التى ألفها مجمع البحوث الإسلامية • ولكنى عندما اتصلت بأعمال هذا المجمع هالنى حاله • وأدركت أن دواء ناجعا يتحتم أن يقدم له • وإلا ضاعت الآمال التى تعلق عليه •

كلية دار العلوم بين اللغويات والعلوم الإسلامية :

وكلية دار العلوم حققت الكثير من التقدم فى العلوم الإسلامية • ولكن لايزال موكب اللغويات يهاجم العلوم الإسلامية ويهاجم الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ويوشك أن يراها علوماً دخيلة ينبغى أن تنكمش ليستطيع الطالب أن يرفع المبتدأ وينصب المفعول به •••• وتسأل هؤلاء الذين يهاجمون العلوم الإسلامية : ما الكلام الذى سيقوله الطالب ليطبق فيه قواعد اللغة العربية ؟ ولكنهم لا يجيبون ، كأن القواعد أصبحت هدفا لذاتها ، وهى فى الحق وسيلة يستعملها الطالب وهو يتحدث فى التاريخ الإسلامى أو يتحدث عن التشريع الإسلامى ، ولايزال الصراع قائماً ، وأخشى ما أخشاه أن ينتصر صوت القواعد فيحفظ الطلاب ألفية ابن مالك ويشرحونها ويعرفون بحور الشعر وقوافيه والخبن والخزل ، ثم لا يعرفون فكرا ولا يقرءون شعرا ، بل أخشى أكثر من ذلك ، أخشى أن تنتصر الأصوات التى ترى القواعد غاية ما يُرْتَجَى ، ثم لا يجيد الطلاب هذه القواعد ، وبهذا يخسرون الفكر الإسلامى والقواعد جميعاً ، إن العلوم الإسلامية بكلية دار العلوم أصيلة ، وإن لهذه الكلية طابعا متكاملا خاصا ينبغى الحرص عليه ، فبه وحده أخذت هذه الكلية مكانتها فى مصر والعالم ، وبه وحده تستطيع أن تواصل دورها المفيد •

معهد الدراسات الإسلامية :

أما معهد الدراسات الإسلامية فيؤدى خدمة عظمى لأنه يقبل من يتقدم له من خريجى الجامعات والمعاهد العليا كلها ، ويقدم لهم مجموعة

الدراسات الإسلامية ، وكنت أسمّى طلاب هذا المعهد « الهواة » ؛ فهم حاصلون على شهادات عليا • ويعملون كلّ في تخصصه ، ثم يلتحقون بالمعهد للتعرف على الفكر الإسلامى ، ويمكن أن تتم الدراسة بهذا المعهد بالانتساب للطلاب الذين يعيشون بمنأى عن القاهرة •

وهذا كله يغرى الراغبين فى التعرف على الدراسات الإسلامية بالالتحاق بهذا المعهد ، ويغرى كذلك الطلاب الراغبين فى مزيد من الدراسة بعد الشهادة العليا ، وليست لهم تقديرات تتيح لهم الالتحاق بأقسام الدراسات العليا بكلياتهم ، وكذلك أولئك الذين ليست هناك دراسات عليا فى المعاهد التى تخرجوا منها •

وقد كان لى الشرف أن اشتركت فى التدريس بهذا المعهد عدة سنوات ، فى عهد المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربى مع نخبة من أساتذة الدراسات الإسلامية الذين وضعوا مناهج ممتازة للتدريس بهذا المعهد ، وبعد وفاة الأستاذ الدكتور العربى أسندت قيادة المعهد لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى • ودعانى فضيلته للعمل معه بالمعهد فقبلت ، فالدعوة للإسلام هدف أحرص عليه ، ولا أزال حتى كتابة هذه السطور أعمل فى هذا المعهد العظيم ، والعلوم التى توليت تدريسها به هى التاريخ الإسلامى ، والحضارة الإسلامية ، ومقارنة الأديان ، وكان اقبال الطلاب المنتظمين والمنتسبين على هذه العلوم اقبالا ملحوظا •

معهد الامامة محاولة طيبة :

ومعهد الإمامة الذى أنشأته وزارة الأوقاف يؤدى مهمة ضخمة إلى أبعد حد ؛ إنه يتلقى مجموعة كل شهر من الأئمة والوعاظ ، وهم فى الحق أوضح دليل على ما وصل له مستوى الدراسة فى الأزهر من ضعف ؛ إن معلومات أكثرهم ضئيلة جداً كما وضحنا من قبل ، والأحدث تخرجاً منهم أقل معارف من القدامى مما يدلّ على أن مستوى الانحدار يزيد يوماً بعد

يوم ، وعمل الإمامة والوعظ عمل رفيع المستوى فى ذاته ، فهو يضع العالِم فى موضع المعلم للجماهير ، وكم فى الجماهير من مثقفين ومطلعين ، وإذا خسر الإمام الجولة فى خطبة الجمعة أو خسر الواعظ الجولة فى وقفاته أمام سامعيه فإن الناس يتنحون عنه ، ولا يرون أملا فى علمه أو فائدة من الاستماع إليه ، فلا يبقى أمامه إلا العامة الذين لا يعون ما يسمعون ولا جدوى فيما يعرفون .

قد يشغل خريج الأزهر منصب مدرس بالمدارس الإعدادية ، وهذا المنصب يقى صاحبه الحرج ، فصبيان المدارس الإعدادية قليلو المعرفة ، وهناك كتاب محدد لمنهاج اللغة العربية وضعه نخبة من رجال التعليم ، وليس على المدرس إلا أن يتدارس هذا الكتاب ويشرحه للتلاميذ ، وهذا شىء ممكن بل يسير ، أما عمل الإمام والواعظ فرفيع المستوى ، لأنه يلتقى بجماهير مختلفة الثقافات ، وعليه أن يؤثر فى سامعيه وإلا انفض عنه السامعون .

وقد أدركت وزارة الأوقاف حالة هؤلاء فأقامت هذا المعهد لتقديم دورات تدريبية إليهم . ولكن ما مدى فائدة هذه الدورات ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على فهم طبيعة الدورة ، فالدورة التدريبية مدتها ثلاثة أسابيع ، ويشترك فى تقديم المحاضرات بها عدد كبير من الأساتذة ، بل يشترك كذلك رجال الإدارة ليقدموا للوعاظ والأئمة أفكاراً ترتبط بما يزاولونه من أعمال إدارية ومالية ، وتبدأ المحاضرات من الثامنة صباحاً وتظل حتى الثامنة مساء باستثناء فترة قصيرة فى الظهيرة للغذاء والراحة فالعمل مرهق للغاية ، وهو عبارة عن دوامة تدور بسرعة ؛ فأستاذ يخرج ، وأستاذ يدخل ، وتدفق فى المعلومات ، بل تضارب فيها أحياناً ، فبعض الأساتذة محافظون وبعضهم متطورون ، بعضهم يدافع عن حديث منسوب لسيدنا رسول الله ويراه صحيحاً وأن رواته عدول ، وبعضهم يرى هذا القول موضوعاً ولا يتمشى مع الفكر الإسلامى الحقيقى

ولا مـع التفكير السـليم ، وإن أردت مثالا لذلك قلت لك أحاديث رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، وحديث تردد سيدنا رسول الله بين ربّه وبين موسى ليلة المعراج لتخفيض عدد الصلوات ••••••

وتنتهى الدورة بعد الأسابيع الثلاثة أو أحياناً قبل أن تتم هـذه الأسابيع ، وقل لى بربك ماذا يمكن أن يعرف هؤلاء الشيوخ من مـدد كهذه ، وليست لديهم مدة للاستذكار ؟ ولا مكتبة يرجعون إليها حيث تلقى المحاضرات ؟ ولا مكتبة ذات بال فى مساجدهم ومقار أعمالهم ؟

كل ما نعمله أننا نحاول أن نفتح أمام الشيوخ منافـذ للعلم ، وان نخبرهم أن هناك جديداً مهما فى مجال الدراسات الإسلامية ، وندعوهم للاطلاع حتى يتعرفوا على هذا الجديد ، وليتهم يفعلون •

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

ونصل الآن إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، واسمع مرة أخرى هذا العنوان العظيم « المجلس الأعلى للشئون الإسـلامية » ••• لاشك أن هذا العنوان يهزّك هزّا ، ولاشك أن الصورة التى ترسمها له كبيرة ومثيرة ، ومن أجل هذا كنت سعيداً كل السعادة عندما تلقيت خطابا فى مطلع الستينات باختيارى عضواً فى لجنـة « التعريف بالإسـلام » ، وهى لجنة مهمة جداً من بين لجانه كما يُنْبِىء بذلك اسمها ، ولكن يبدو أن الأسماء بهذا المجلس ليس لها مدلول دقيق ، ولهذا فإنى أريد أن أعرفك بهذا المجلس :

سلطات هذا المجلس كانت فى يد السيد الأستاذ محمد توفيق عويضة ، وهو شاب مهذب رقيق ، كان من قبل أحد الضباط بالجيش ، وهو يتولى السلطات الكاملة بالمجلس كسكرتير عام له يعاونه بعض الإداريين •

وبالمجلس لجـان تحمل عدة أسماء : الخبراء ـ الحديث ـ التعريف

بالإسلام •• ويختار الأعضاء لهذه اللجان بمعرفة السكرتير العام نفسه أو بترشيح من وزراء الأوقاف ، وفى لجنة التعريف بالإسلام التى أتشرف بالانتساب إليها مجموعة من صفوة الأساتذة والمفكرين ، وقد هزّنى اسمها عندما وقع علىّ الاختيار لعضويتها ، وكنت من أسبق الأعضاء بها ، وكان عددنا لا يتجاوز أصابع اليدين ، وطلب الأعضاء منى أن أُعدّ تقريراً لتسير عليه اللجنة فى عملها ، فرحت أبحث وأدرس ، ووضعت تقريراً حافلا ، فقد أخذت الأمر مأخذ الجد ، وقلت إن التعريف بالإسلام يكون بالكلمة المقولة والكلمة المكتوبة ، وحددت اللغات التى تكتب بها الكلمة أو تقال ، والأشخاص الذين يكتبون عن الإسلام أو يتحدثون عنه ، كما حددت الموضوعات والأماكن التى ينبغى أن تغمرها هذه الأحاديث والكتب بالداخل والخارج •• وعرض هذا التقرير الحافل على اللجنة ، فتدارسته فى عدد جلسات ، حذفت منه وأضافت إليه ، ثم أقرّته •

تسألنى : ماذا حدث له بعد ذلك ؟ فأقول فى إيجاز : غَمَرَه النسيان ولم نعرف عنه أى شىء ، كأنه كان هدفا وصلنا له وآثرنا السلامة بعد ذلك ، وأصبح هذا النسق هو خط العمل بهذه اللجنة ، فموضوعات تثار وتقارير توضع ، ومناقشات تدور ، وقرارات أو ليكن تسميتها اقتراحات تحدد • وترفع للسكرتير العام ويطويها النسيان بعد ذلك تماماً • لا متابعة ولا مراجعة ولا نتائج ، وقد أصبح عدد أعضاء هذه اللجنة حالياً حوالى الخمسين ، وأصبحت تضيق بهم الحجرة الرحبة غنية الأثاث التى يجتمعون بها ، ومع هذا فالعمل هو العمل ، أو قل إن عدم العمل المنتج ، هو دستور العمل بها •

ومن أعمال هذه اللجنة فحص بعض الكتب التى يتقدم بها أصحابها لتطبع على حساب المجلس ، ويحوّل كل كتاب (والأجدر أن نسميه مشروع كتاب) إلى لجنة لفحصه وكتابة تقارير عنه ، وتتلى التقارير فى اجتماع اللجنة ، ويدور نقاش طويل قد يستغرق جلسة أو جلستين وتَقْبَل اللجنة

الكتاب بعد ذلك أو ترفضه ، ولو قارنا الجهد الذى يبذل والمكافآت التى تصرف للأعضاء فى هذه الجلسات لأدركنا أن ذلك يفوق الكتاب بكثير ، ثم إن الكتاب الذى يُقْبَل يأخذ دوره بين قائمة الكتب التى يطبعها المجلس تبعاً لإمكانياته ، وتجربتى فى الكتاب الوحيد الذى طبعه المجلس لى باللغة الفرنسية أنه صدر بعد خمس سنوات من إقراره ، وكنت خلالها غيَّرت رأيى فى كثير مما كتبت به منذ سنوات .

ومن أجل إحساسى هذا نحو المجلس وأعماله توقفتُ عن حضور الجلسات فلم أجد جدوى فى مواصلة الجهد لغير طائل ، ولكن أملى فى مستقبل أنضر لهذا المجلس ، وحرصى على لقاء رفاق العمل فى لجنة التعريف بالإسلام جعلنى أحضر الجلسات مرة كل شهر أو كل شهرين ، بدل الحضور كل أسبوع ، فالجهد الضائع عمل لا يرضى الله ولا يرضى الضمير .

وهناك مؤتمرات إسلامية يدعى لها المجلس الأعلى ، ويمثّل السيد السكرتيرُ العام وفدَ مصر فى هذه المؤتمرات ومعه بعض الإداريين ، قلما صحب معه بعض العلماء ، ولاشك أنه من الأجدر أن يكوَّن وفد مصر من الباحثين المسلمين الذين يستطيعون أن يتكلموا بعمق فى الدراسات الإسلامية ولا بأس أن يكون معهم الأستاذ محمد توفيق عويضة رئيسا للوفد ليباشر بعض المهام السياسية أو التنظيمية .

ويصدر المجلس مجلة « منبر الإسلام » كل شهر ، ومن الممكن أن تصبح أكثر عمقاً وأصالة ، ويقدم مجموعات مما يطبعه من كتب لبعض البلاد الإسلامية وبعض المكتبات الإسلامية ، وليست هذه هى البضاعة التى يرجى من المجلس ولو رأى المجلس صناديق الكتب التى يرسلها ثم لم تفتح فترة طويلة ، واسطوانات الصلاة التى لا يصلّى أحد تبعاً لها ... لو رأى المجلس ما يعمل وما يمكن أن يعمل لتوقف وقفة تصحيح ووقفة إصلاح ، ولو قارن المجلسُ أعماله بأعمال المجالس المماثلة التابعة للأديان الأخرى لأحدث حركة تغيير شاملة ، وليته يفعل .

* * *

وبعـــد ، فعندمـــا ظهرت الطبعـــة الأولى من هـــذا الكتاب وبها الدراســـة الســـابقة كان وقعهـــا شـــديدا علـــى الأســـتاذ محمـــد توفيق عويضة ، وقـــد كنت أطمع أن تسهم كلماتى فى إصـــلاح الأحوال بالمجلس ، وكما وصفت الداء وصفت الدواء ، ولكن الأستاذ محمد توفيق عويضة لم يتعود أن ينقده أحد ، أو أن يتحدث أحد عن المجلس بغير الثناء ، ولهذا ضاق بكلماتى ، وهدد وزمجر ، ولكنى أرحته من ذلك فكل مايستطيعه كان أن يفصلنى من عضوية لجنة التعريف بالإسلام ، ففصلت نفسى ، وتوقفت تماما عن حضور الجلسات ، وتم بعد ذلك تغيير فى المجلس ولم أصبح عضوا به والحمد لله .



وفيما يلى موقفان جديدان عن هذا المجلس :

المجلس وموسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامى

من أهم الأعمال التى أقدم عليها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية اخراج موسوعة للفقه الإسـلامى أسماها « موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامى » وحفل هذا العمل بأخطاء تتصـل بالتخطيط وبالتنفيذ والمتابعة ، ففشل هذا العمل فشلا تاما بعد أن أنفق عليه مئات الألوف من الجنيهات ، وفى تقرير شامل عن هذا العمل كتبت ما يلى :

الموســوعات بين النظرية والتطبيق

ألزمتنى دراساتى أن أطلع على مجموعة من الموسوعات العربيـة والانجليزية ، ومن الموسوعات العربية التى اطلعت عليها :

دائرة معارف وجـدى (١٠ أجزاء) ودائرة معارف البستانى التى أخرج منها بطرس البستانى ستة أجزاء فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم حاول تلاميذه ومريدوه إكمالها بعده ، ومثل الموسوعة العربية الميسرة (مجلد واحد) .

ومن الموسوعات الانجليزية التى اهتممت بالاطلاع عليها :

The Encyclopaedia of Islam
The Encyclopaedia of Religions and Ethics
The Encyclopaedia Britannica
The Encyclopaedia of Education

وكان واضحاً أن الموسوعة تكون أحيانا مطلقة فتحوى خلاصـة لمـا يدخل فى دائرة العلم الإنسانى مثل الموسوعة البريطانية أو الأمريكية

أو الفرنسية ، وتكون أحيانا مرتبطة بفرع واحد من فروع المعرفة مثل موسوعة التربية التى ذكرناها من قبل أو موسوعة العلوم الاجتماعية .

وتسير الموسوعات على الترتيب الأبجدى ، ويتجه الاهتمام فى الموضوعات إلى ذكر موجز مركز للنقطة موضوع البحث ، ثم تقدم مراجع لمن يريد مزيداً من التوسع ، ويغلب أن يوقع الكاتب على الموضوع الذى يكتبه ليتحمل مسئولياته العلمية والأدبية .

وقد كان للمسلمين دور كبير فى كتابة الموسوعات ، فقد وضع الفارابى كتاب « إحصاء العلوم » الذى كان قمة فى البحث والدراسة ، ووضع النويرى موسوعته الكبيرة « نهاية الأرب فى فنون الأدب » فى ثلاثين مجلداً ، ثم وضع عدد كبير من المسلمين كتب التراجم التى تعد نوعاً من الموسوعات يقول عنها Von Grunebaum : « إن مجموعة كتب التراجم التى أنتجها المسلمون لشىء يدعو إلى الدهشة والإعجاب لكثرتها ودقتها ، وما جمعته من مادة رائعة ، وإن علماء الغرب فى العصور الوسطى ليس لديهم مايقارن بنتاج معاصريهم من العرب فى هذا الميدان » .

وفى الحقيقة إن مجموعة كتب التراجم لتمثل جانباً غنياً فى الأدب العربى ، وهى بجانب كثرتها منظمة تنظيماً دقيقاً ، فللأطباء تراجمهم الحافلة ، وللأدباء والأعيان معاجمهم ، وللشعراء والعلماء والفقهاء طبقاتهم وسيرهم ، وهناك بجانب — هذا التوزيع العلمى — توزيع زمنى مثل الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، والكواكب السائرة من تراجم علماء المائة العاشرة ، وخلاصة الأثر فى تراجم علماء القرن الحادى عشر ، وسلك الدرر فى ذكر أعيان القرن الثانى عشر ، وهكذا .

* * *

وقد كوّن الأزهر الشريف لجنة لكتابة موسوعة لألفاظ القرآن الكريم كان لى شرف عضويتها ، وقد اتخذنا لذلك الخطوات التالية :

١ — جمع كلمات القرآن الكريم ٠

٢ — ترتيبها ترتيباً أبجدياً ٠

٣ — ربط كل كلمة بموضوعها ، فهناك كلمات يتحدث عنها مؤرخ ، وكلمات يشرحها الأطباء أو الجغرافيون أو علماء الجيولوجيا وهكذا ٠٠٠٠

٤ — ذكرنا ضرورة الاختصار غير المخل فى شرح هذه الكلمات بحيث لاتتجاوز الكلمة صفحة واحدة ، فالذى يكتب عن غزوة بدر يكتب أهم عناصرها ٠٠٠٠ ويوقع باسمه ويذكر أهم المراجع التى يمكن أن يرجع إليها من يطلب المزيد من المعلومات ، وهكذا ، لتكون الموسوعة فى متناول الجميع ، وحتى تؤدى دورها فى سرعة إعطاء القدر الكافى من الفكر للباحث ٠

وتوقف العمل فى هذه الموسوعة ويقال إن حكومة العراق بعثت تطلب أن تتبنى هذا العمل وتنفق عليه ، ثم حدثت الخلافات السياسية التى أوقفت سير العمل ، ولهذا ينبغى أن ترصد مصر لهذا العمل الجليل ما يستحقه من جهد ومال ٠

تلك فكرة سريعة عن الموسوعات ، ولكن لى علاقة بموسوعة (تحت التأليف) هى موسوعة الفقه الإسلامى ، وهذه الموسوعة هى التى دفعتنى لكتابة هذا المقال ، وموسوعة الفقه الإسلامى يقوم بإخراجها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وكانت تسمى « موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامى » فلما انتهى عهد جمال عبد الناصر سُميت « موسوعة الفقه الإسلامى » وقد حصلتُ على نسخة منها ، ويشهد الله أننى سررت غاية السرور عندما حصلت عليها معتقداً أنها ستقدم لى عوناً كبيراً فى الدراسات الفقهية التى كثيرا ما أحتاج إليها ، وما إن حصلت عليها حتى عكفت على

الاطلاع عليها دون تأخير ، وسرعان ماصُدِمْتُ صدمةً قوية لا أعتقد أننى صدمت مثلها عند قراءة أى كتاب من قبل .

ماذا فى موسوعة الفقه الإسلامى ؟ .

إننى ساضع أمام القارىء إحصاء دقيقاً ينوب عنى فى الحديث عن هذه الموسوعة ، ولكنى أبدأ بأن أمهد لذلك بأن أذكر أن المكافآت كانت تدفع للباحثين حسب عـدد الكلمات والصفحات بالإضافـة إلى مكافأة الجلسات التى كان يحصل عليها نفس الأشخاص ، وبسبب ربط المكافآت بالصفحات حدثت فى هذه الموسوعة مزالق خطيرة أعرضها على القارىء فى هذا الإحصاء الناطق :

أولاً — صدر من الموسوعة ١٥ جزءاً من القطع الكبير ويقع كل جزء فى حـوالى ٤٠٠ صفحة .

ثانياً — هذه الأجزاء كلها لم تشمل إلا نصف حرف الألف فقط وبدقة إلى الألف مع العين (كلمة إعادة) .

ثالثا — استغرق العمل فى هذه الأجزاء عشرين عاماً .

رابعا — للرغبة فى كثرة الكسب امتد الحديث عن الكلمة الواحدة فشمل مئات الصفحات أحيانا ، ونماذج ذلك كثيرة منها كلمة إجارة التى استغرقتْ من ص ١٩٩ إلى صفحة ٣٣٠ بالجزء الثانى ، وكلمة إسكان من ص ٥ إلى ١٦٢ بالجزء التاسع ، وكلمة اشتراط من ص ١٣٩ إلى ص ٢٦٩ بالجزء الحادى عشر ، وكلمة إشهاد من ص ٣٦ إلى ص ٣٦٨ بالجزء الثانى عشر ، وكلمة إعادة التى استغرقت الجزء الخامس عشر كله .

خامسا — للرغبة فى الإسراع بالكسب نُقلت كلمات كثيرة جدا من موقعها الطبيعى إلى حرف الألف فكلمة « آبق » كان مكانها الطبيعى كلمة « رقّ » ولكن جىء بها إلى الجزء الأول لسرعة الكسب ، وجاءت كلمة

« الاشتباه فى الطهارة » بحرف الألف ، ومكانها الطبيعى كلمة « الطهارة » فى حرف الطاء ، حيث يتحـدث الفقهاء عن الطهارة ، ثم يتحدثون عن الاشتباه فيها ، وخلقت كلمة إشهاد ومكانها الطبيعى « الشهادة » فى حرف الشين ، وغيرها كثير جـداً •

سادساً — إذا كانت هذه الأجزاء قد استغرقت ٢٠ عاماً فمعنى هذا أن الموسوعة تحتاج إلى حوالى مائتى عام لتكْمُل أو بلغة أخرى إلى عـدة أجيال من المفكرين •

سابعاً — إذا كان نصف حرف الألف قد استغرق ١٥ جزءاً فمعنى هـذا أن الموسوعة ستكون فى حوالى ٢٠٠ جزء وهو قدر يجعل الاستفادة منها غير ممكنة ، ويحتاج إلى حجرة كاملة لاستيعابها •

ثامناً — إن النفقات لاتمام هذه الموسوعة ستكون باهظة جداً بدون أية فائدة ترجى منها •

وكل هذه المزالق نتجت لأن التخطيط للموسوعة لم يكن سليماً ، فقد كان من الطبيعى أن تعد أولاً الكلمات التى تدرس فى هذه الموسوعة وأن ترتب ترتيباً دقيقاً ، ثم أن يحدد قدر من السطور لكل كلمة بحيث لاتزيد الكلمة عن صفحة واحـدة أو صفحتين على الأكثر مع إعطاء مراجع لمن يريد مزيداً من التفصيلات •

وأخيرا فنحن نسأل : من المسئول عن ضياع هـذا الجهد وهـذا المال ؟ وهو سؤال لا نحب أن نجيب عنه ، فلسنا نحاول أن نغضب أحداً أو نشهّر بأحد ، ولكنها قضية دينية وطنية التزمت أن أعرضها فقط لعلنا نعود للموضوع بإصلاح خطته ، وإصلاح أدائه حتى لا نستمر فى عمل يأكل الجهود والأموال ويغضب الله ولا يرضى أحداً على الاطلاق ،

وتسألنى ما الطريق للإصلاح ؟

والإجابة التى لا تعرف المواربة هى أن نهمل الأجزاء التى طبعت تماماً فليس فيها ما يغنى على الاطلاق ، ونطلب من الله العوض للجهد الذى بذل بدون تخطيط سليم ، ولمئات الألوف من الجنيهات التى أنفقت على غير جدوى ، ونطلب من الله المغفرة لجيل من الشيوخ انتقل أكثرة إلى رحمة الله ، ونبدأ فى العمل من جديد بطريق سليم وتبعاً للخطة التى أوردناها ، أو لخطة أحسن منها ، على أن تتم الموسوعة كلها فيما لايزيد عن عشرة أجزاء ، ويمكن أن يكتمل هذا العمل فى مدة لاتتجاوز ثلاث سنوات على الاطلاق عندما نتبع التخطيط الدقيق والعمل الذى يراد به وجه الله .

وماذا يقول الباحث عندما يتذكر أن هذا العمل قام به رجال الدين وانفق عليه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ؟ وإذا ضعف هؤلاء عن إخراج عمل دينى سليم فإلى مَنْ نلجأ ؟

ولكن الأمل لايزال موجودا ، والخير كذلك لايزال موجودا ، والفشل فى عمل يجب الا يلاحقنا والا يخيفنا ، فالنجاح ممكن لو حسنت النيات ، وهناك بلا شك نوايا كثيرة حسنة .

هل نحاسب الذين قصروا أو نتركهم لحساب الله ؟ الإجابة ليست لى بل هى لك أيها القارىء وللدولة .

كلمة واحدة نعلنها وهى أنه لو أن هذا المجلس أقيم لوجه الله لوضع على قمته متخصص فى الشئون الإسلامية ، ولكان الأمل فى استقامة الحال اوسع واعمق .

مـوقف آخـر

للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

هذا الموقف تبرزه وثيقة نشرها كاتبها الأستاذ ابراهيم سـعدة رئيس تحرير أخبار اليوم فى ١٩٧٦/٩/١١ وهاك نصها :

نائب الوزير

وقرار رئيس الوزراء !

صدر قرار جمهورى بتنظيم مهرجان إسلامى مصرى فى واشنطن ، مشاركة من مصر فى احتفالات مرور ٢٠٠ سـنة على استقلال الولايات المتحدة الامريكية ، وتضمَّن القرار الجمهورى أسماء أعضاء الوفد الذى يضم عددا من أساتذة الدين وأربعة من الصحفيين والاذاعيين لتغطية هذا المهرجان .

وكنت أحد أعضاء الوفد الصحفى ممثلا عن أخبار اليوم . وتلقيت دعوة بالسفر والاقامة فى واشنطن لمـدة ١٠ أيام على حساب الخزانة المصرية . وأسندت رئاسة الوفد الكبير الى محمد توفيق عويضة الامين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ونائب وزير الاوقاف المصرية ، ورئيس اللجنـة العليا لرعاية أبناء مصر فى الخارج .

وبالفعل سافر توفيق عويضة ومعه طاقم مكتبه إلى الولايات المتحدة قبل افتتاح المهرجان بعدة أيام . أما باقى الوفد فقـد حددوا له السفر ليلة افتتاح المهرجان . وقبل ساعات من سفر الوفد المصرى صدر قرار من ممدوح سالم ــ رئيس الوزراء ــ بإلغاء الرحلة والاكتفاء بسفر ٣ فقط من أساتذة الدين حتى لا تتكبد الدولة مبالغ طائلـة لا داعى لها فى مرحلـة التقشف التى نمر بها .

وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحـد • ولكن محمد توفيق عويضة لم يسكت • اعتبر هذا بمثابة تحـدٍ لهيبته ومركزه •

واعتبر توفيق عويضة أن القرار الجمهورى لا يلغى الا بقرار جمهورى آخر • ورأى أن يتجاهـل القرار الوزارى ويتمسك بتنفيـذ القرار الجمهورى !

وبالفعل اتصل عويضة بأعضاء الوفد الاعلامى (٣ صحفيين رجالا واذاعية واحدة) وقال لهم ان مدير مكتبه سوف يلتقى بهم ويخطرهم بما قرر ان يفعله •

وجاء مدير مكتب عويضة لزيارتى فى مكتبى بأخبار اليوم • وفوجئت به يقدم لى تذكرة صادرة من شركة الخطوط الجوية العالمية الامريكية • للسفر من القاهرة الى واشنطون والعودة ، وخطابا الى أحد فنادق العاصمة الامريكية بالاقامة المجانية الكاملة لمدة ١٠ أيام • ولم ينس مدير مكتب عويضة أن ينبهنى الى أن هناك بدل سفر بالدولار سيكون فى انتظارى فور وصولى إلى الأرض الأمريكية !

وكانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لى • قلت لمدير مكتب عويضة ان الرحلة الغيت بأمر من رئيس الوزراء • وقد انتهى الامر بالنسبة لى منذ تلك اللحظة • وقمت برد بدل السفر الذى صرفته أخبار اليوم عن مدة سفرى واقامتى فى الولايات المتحدة •

وفوجئت بمدير مكتب عويضة يقول ان القرار الوزارى لايلغى القرار الجمهورى • واننا نريد أن نؤكد هذه الحقيقة بالاصرار على سفر الوفد الاعلامى الى الولايات المتحدة والاقامة بها لمدة ١٠ أيام كما جاء فى نص القرار الجمهورى •

وعبثا حاولت افهام مدير مكتب عويضة ان الرحلـة فقـدت الآن الغرض منها • فقد انتهى المهرجان منذ أسابيع • وعاد عويضة وأعضـاء

مكتبه الى القاهرة بعـــد أن حضروا افتتاح المهرجان • فما الداعى اذن لســـفر الوفد المصرى الصحفى إلى أمريكا ؟

ولم يفهم مدير مكتب عويضة أو على الأصح لم يشأ أن يفهم فالمطلوب هو سفر عدد من الصحفيين على حساب الدولة لا لشىء الا ليعرف رئيس الوزارة أن قراره لا يعترف به الأمين العـــام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية !

واعتذرت لمدير مكتب عويضة عن قبول الدعوة • ورفضت ان اتسلم تذكرة الطائرة المدفوعة الثمن من خزانة الدولة • وأفهمته صراحة أن المسالة انتهت بالنسبة لى بعد قرار رئيس مجلس الوزراء مباشرة •

وعاد مدير المكتب يلح مرة أخرى ويؤكد لى ان باقى زملائى الصحفيين وافقوا على السفر وانهم تسلموا بالفعل تذاكرهم وهناك من سافر والباقى فى طريقه الى السفر قريبا !

ولم أتراجع أمام هذا الاغراء • فاذا كان أحد الزملاء — أو جميعهم كما قال سكرتير عويضة — قد تسلم التذكرة وقبل الدعوة فهذا شـــأنه ولا يلزمنى أنا فى شىء •

وانتهت المقابلة عند هذا الحد • وحمل مدير مكتب عويضة أوراقه وانصرف •

ورأيت أن أكتب هذه القصة بكامل تفاصيلها •

ان الهدف السابق من وراء هذا السفر هو تغطية المهرجان المصرى الإسلامى فى واشنطن • وقد انتهى الآن هذا المهرجان • فما الهدف اذن من سفر الصحفيين إلى الولايات المتحدة ؟

ان الدولة فى حاجة الى كل دولار • الى كل فرنك • الى كل جنيه •

ورغم هذا فهناك من كبار رجال الدولة من لا يهمهم أبدا بعزقة آلاف الجنيهات باغلى وأعز العملات الصعبة .

ان ما فعله توفيق عويضة لا يجب أبدا أن يسكت عليه .

ولنا هنا سؤال بسيط هو : كيف استطاع نائب وزير أن يقف من رئيس الوزراء هذا الموقف ؟ هل هى عملية سحرية ؟ أو أن الموازين قد انقلبت ؟

ابراهيم سعده

جمعية الشبان المسلمين :

ولننتقل خطوة أخرى للشبان المسلمين ، وكان الناس يقولون إن جمعية « الشبان المسلمين » أعيد تخطيطها لتملأ الفراغ الذى كانت تشغله جمعية « الإخوان المسلمين » ولكن الحق أن الشبان المسلمين لم تملأ هذا الفراغ بعد ، وأكثر ما تقوم به جمعيات الشبان المسلمين بعض المحاضرات فى مناسبات مختلفة كما أنها تقيم حفلا سنويا تقريبا ، تتلألأ فيه الأضواء ، ويقدم بعض الصبيان باسم المسلم الصغير لتلاوة بعض ما يحفظون من القرآن الكريم .

إشارة سريعة نقدمها هى أن هناك جمعية مسيحية اسمها « جمعية الشبان المسيحيين » ولست أعرف أى الجمعيتين أقدم ، وأيتهما اقتبست تسميتها من الأخرى ، ولكن الذى أعرفه أن جمعية الشبان المسيحيين لها نشاط واسع ، يشمل بيوت ضيافة ، وحلقات رياضية ، ورحلات فى الداخل والخارج ، واجتماعات فكرية وأدبية ... ، وقد جذبت هذه البيوت لها مجموعة كبيرة من الشبان المسيحيين ، وتعدتهم للأسف فأخذت تجذب بعض الشبان المسلمين لهدف أو لآخر .

ليت جمعية الشبان المسلمين تعيد النظر فى موقفها ونشاطها .

الجمعية الشرعية :

لنبدأ حديثنا عن الجمعية الشرعية بهذه الرسالة التى تلقيتها من أحد قراء هذا الكتاب وهو الأستاذ أحمد مقلد ، ثم لنا بعد ذلك تعليق قصير عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الكبير الدكتور / أحمد شلبى

السلام عليكم ورحمة الله •

كتاب (رحلة حياة) كتاب عظيم سيصبح فى المستقبل مرجعا هاما بل هو من الآن مرجع من المراجع الهامة ، وهو يثير القارىء ويشوقه أن يقرأه كله من أوله لآخره ؛ من الصفحات الأولى التى فيها بيان لكتب الأستاذ المؤلف ، فالصحائف التى فيها محتويات الكتاب فالمقدمة ، حتى آخر سطر فيه حيث تقول : وليكن ذكرك مسك الختام كما كان مطلع الافتتاح •

ولكن لى كلمة قصيرة جدا بالنسبة لعظم الكتاب ، وهى مهمة عندى وعند كثيرين من الذين يهتمون بقراءة كتب السيد الدكتور المؤلف ، فإنكم ذكرتم من مراكز الفكر الإسلامى جمعيات الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، وذكرتم للمقارنة الشبان المسيحيين ، ولم تذكروا شيئا عن الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية التى أسسها المرحوم الشيخ محمود خطاب السبكى منذ ستين عاما تقريبا وكان يقوم رحمه الله بالوعظ والتجوال فى أنحاء البلاد وحده للتعريف بالدين الصحيح خاليا من البدع والخرافات ، وانضم إليه عدد كبير من العلماء ، وقامت الجمعية بإنشاء قسم للوعظ سبق الأزهر فى هذا المجال ، ومازال قائما للآن ، وكان يضم حوالى مائة واعظ قاموا بنشر مبادىء الدين الصحيحة بالحكمة من غير تشدد ولا رجعية ولا تعصب ، ووضعت لهم الجمعية نظاما محددا

يسيرون عليه . وكان مركز هذه الجمعية فى مسجد بقرية الخيمية وهو أول مسجد أسسته الجمعية ، كما أُلحقت بهذا المسجد مكتبة حافلة بالكتب الإسلامية فى الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية ، وغيرها .

وكانت هذه المكتبة ومازالت مفتوحة للاطلاع ولتيسير الحصول على الكتب .

كما أنشأت الجمعية شركة المنسوجات الوطنية . وقامت الجمعية بدعوتها هذه فى هدوء حتى أصبح لها فى كل حى من أحياء القاهرة فرع بما فى ذلك الأحياء التى كان التجول فيها محرماً كالترجمان والقلاية والمحمرة وعشش شركس والشيخ على ، وأصبح فيها بمساعدة أهلها فروع الجمعية . وتحول الكثيرون من قطاع طرق عاطلين ، إلى مسلمين يدعون الإسلام الصحيح بين أهليهم وجيرانهم ، وهدى الله بهم ناسا كثيرين .

وأصبح للجمعية الآن أكثر من ألف مسجد ، وأصبح من وعاظ الأزهر وعلمائه وأساتذة الجامعات والقضاة والمستشارين ورؤساء المحاكم والوزراء من يعتنق مبادىء الجمعية الشرعية .

وإن الثورة الدينية والاجتماعية التى قامت فى مصر منذ نصف قرن لمحاربة بدع الجنازات وزيارة القبور وبدع الموالد والزار والاحتفال بالأعياد غير الإسلامية كلها أثر من آثار دعوة هذه الجمعية .

ونحن الآن احوج مانكون إلى هذه الدعوة التى تعمل على نشر مبادىء الإسلام الخالية من البدع والدجل والخرافات التى شوهت معالم الإسلام وأدت إلى أن اختلط على الناس السنة والبدعة ، وإن الكلمة التى وردت فى كتاب رحلة حياة عن الإخوان المسلمين لهى كلمة عظيمة حقا ... فواعجباه أن يذكر هذا عن جماعة لم تدم إلا فترة قصيرة بالنسبة للجمعية الشرعية ولم تُذْكر كلمة واحدة عن الجمعية الشرعية من قلم رجل يعتبر إماما من أئمة العلم فى عصرنا هذا ، فى حين أن كثيرين من أعضاء

الجمعية الشرعية المتخرجين من دار العلوم والمنتشرين فى ميدان التربية والتعليم يهتمون بقراءة كتب الدكتور المؤلف ويحثون تلاميذهم على قراءتها .

وسيادة المؤلف يقرر فى كتابه (رحلة حياة) أنه على اتصال واسع بالمراكز الإسلامية كلها ، ولم يذكر عن هذه الجمعية شيئا وهى التى تنتشر فروعها فى القاهرة وفى جميع محافظات الجمهورية ، ولها أيضا فروع فى كثير من البلاد العربية كسوريا والأردن والسودان ، وقد اتصلت الجمعية ببعض مراكز الفكر الإسلامى بالهند وباكستان ليتزودوا بمبادىء الجمعية وينشروها فى بلادهم .

وإذا كانت اللحية والعمامة ذات الذؤابة شعارا لأعضاء هذه الجمعية فإن الكثيرين من أعضائها والمنتمين إليها ليست لهم لحىً ولاعمائم فليس هذا الشعار إجباريا ولو أن فى التحلى بهذا الشعار اتباعا للسنة وفيه إشارة للتآلف كما يفعل الآن جماعات المنظمات العالمية من أنها تتخذ لها شارة موحدة حتى يتعارف أفرادها ولو اختلفت جنسياتهم ولغتهم وهو مانراه فى جماعة الكشافة والرواد وغيرها .

فأرجو وألح فى الرجاء أن يذكر السيد الدكتور المؤلف هذه الحقيقة عند إعادة طبع هذا الكتاب وياحبذا لو أفرد سيادته كتابا خاصا يحدثنا فيه عن الإسلام من غير بدع ولاخرافات مسجلا فيه مجهود الجمعية الشرعية فى هذا الشأن .

أطال الله لنا فى عمر المؤلف حتى يحقق للعلم ما يرجوه من نفع للأمة .

أحمد مقلد

* * *

لقد نشرت هذا الخطاب الجليل كله لعل ذلك يرضى الحقيقة ، ويرضى أخانا فى الإسلام الأستاذ أحمد مقلد ، ولعله يقيلنى من عثرتى آن° خــلا كتابى فى طبعته الأولى من جماعة كهذه لها جهود رائعة لخدمة الإســلام والمسلمين ، وغير بعيد من منزلى بالمعادى يقع مسجد الفتح ، وهو أحــد المؤسسات الشاهقة التى تتبع هذه الجمعية المباركة ، وهذا المسجد يعيد للواقع صورة طيبة لمسجد سيدنا رسول الله ، فهو باختصار مركز حافل لخدمة البيئة ومساعدتها ، ويمكن أن نسميه « مجمّعاً » إذ به كل الوسائل التى تساعد الإنسان فى حياته ؛ فهو يحوى مسجدا ومستشفى ومكتبة ، ويتبعه معهد دينى ، وتقام به دروس لمساعدة التلاميذ فى الامتحانات ... وغير ذلك . فهو مركز إشعاع ومنارة هدى وخير ، وهو مثال من أمثلــة متعددة ونماذج كثيرة .

فتحية القائمين بهذا العمل الجليل فى هذه الجمعية ودعاء أن يثيب الله مؤسسها العظيم .

* * *

والآن ... بعد أن تعرفنا على المراكز الإسلامية بمصر ، نحب أن نسأل : هل وقفت هذه المراكز مرة لتحاسب نفسها ؟

هل استعرضت هذه المراكز نشاطها وتدارست مدى نجاحها ومــدى فشلها ؟

هل طورت هذه المراكز نفسها مع الزمن ؟

لست أريد أن أجيب بالنفى ، لأن الأمل فى التطور يدفعنى إلى الرفق والأناة ، وأرجو لهذه المراكز الفكرية كل نجاح ، وأتمنى أن تقف من حين لآخر وقفة حساب تنطلق بعدها إلى أسمى الأهداف لخدمة الإســلام والمسلمين .

وإذا قارنا دراسة الطب منذ ربع قرن بدراسة الطب الآن ، أو فعلنا مثل ذلك فى الرياضة والموسيقى ، فإن النتيجة رائعة والتطور مذهل ، وكان ينبغى أن يكون هناك فى الدراسات الإسلامية تطور بهذا النسق ، أو ربما أكثر من هذا النسق ، لأن النكسات الفكرية فى الماضى لم توقف تطور الطب بمقدار ما أوقفت تطور الدراسات الإسلامية .

وإذا رأينا ما أنتجه العقل الحديث فى مجال مقارنة الأديان والتشريع المقارن والحضارة الإسلامية .... لرأينا أن تطوراً كبيراً قد حدث فى نطاق الفكر الإسلامى ، ولكن هذا التطور لم يدق بعد كثيرا من أبواب مراكز الفكر الإسلامى بمصر ، أو قل إن بعض الأبواب موصدة أمـــام هذا التطور ولا تفكر فيه .

وقد انطلق المبشرون والمستشرقون انطلاقاً مسعوراً لمقاومة الإسلام وإثارة الضباب حوله ، ولابد من تربية جيل من الدعاة ، فمن الملاحظ أن المبشر يعرف الكثير عن الإسلام ، ويتلمس الهنات فيـــه ، ويجيد لغات متعددة ، وعنده طاقة من الصبر ، وهواية الاتصال بالجماهير وإقناعهم برأيه ، وهذه المزايا غير موجودة عندنا فليس عندنا دعاة بالمعنى الصحيح ، وهذه الكلمات تكتب وهناك محاولات لإنشاء معهد أو معاهد للدعاة ونرجو لها التوفيق . وألا يقف الروتين الإدارى فى طريقها أو يعرقل سيرها .

ثلاثون عاما مع ثورة يوليو

هذه الكلمات تكتب فى الأيام الأخيرة من شهر يوليو سنة ١٩٨٢ ، وفى هذه لأيام تقوم احتفالات بمرور ثلاثين عاما على ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، وأكثر الهيئات اهتماما بهذه الاحتفالات الحزب الوطنى الديمقراطى الذى كان يسمى هيئة التحرير ، فالاتحاد القومى ، فالاتحاد الاشتراكى ، فمنبر الوسط ، فحزب مصر ، وأخيرا الحزب الوطنى الديمقراطى الذى اقام احتفالا بهذه المناسبة ، ألقى فيه رئيس الجمهورية الرئيس محمد حسنى مبارك خطابا حافلا ، أنصف فيه عهد ما قبل الثورة ، ذلك العهد الذى حاولت الثورة أن تسوّد صفحته ، وأن تعتبر نفسها واضعة الأساس لتاريخ مصر ، وتحدث الرئيس كذلك عن الأزمة الاقتصادية بصدق ، وأبرز ما تعانيه البلاد من متاعب اقتصادية ، وكان الرئيس السابق (محمد أنور السادات) قد أعلن فى أعياد الثورة فى العام الماضى أن الاقتصاد المصرى قد انتصر على المشكلات وأن الميزانية فيها فائض هذا العام !!! ومع الحزب الوطنى هللت الصحافة القومية كذلك بهذه المناسبة وأسمتها عيدا .

وإذا تركت الحزب الموقر والصحافة التى تسمى قومية ، وعدت إلى ذاكرتى ومذكراتى ماذا أجد فى المقارنة بين عهد ما قبل الثورة وعهد الثورة ؟

لقد عاصرتُ الثورة من أول يوم وسجلت الأحداث حولها من يوم إلى يوم فى جزأين من أجزاء « موسوعة التاريخ » هما الجزء التاسع والعاشر من هذه الموسوعة ، وعشت عن طريق الدراسة والتدوين عهد ما قبل الثورة وردست أحداث ذاك العهد فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة الذى يشمل تاريخ مصر من مطلع الإسلام حتى قيام الثورة .

ماذا نرى لو أجرينا مقارنة تاريخية دقيقة بين ثلاثين عاما تبدأ

من تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ إلى قيام الثورة وبين ثلاثين عاما بعد الثورة ؟

أولا — كان للانجليز بدون شك نفوذ عظيم فى مصر قبل الثورة ، ولكنه بدون شك أيضا بدأ يتناقص قليلا قليلا مع قيام الحياة النيابية ، ثم مع معاهدة ١٩٣٦ ، ثم مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث وقف محمود فهمى النقراشى يصفهم فى مجلس الأمن بأنهم قراصنة ، وحيث ألغى الزعيم مصطفى النحاس سنة ١٩٥١ معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد وأوقف تماما نشاط المعسكرات الانجليزية فى منطقة القناة وعين عبد الفتاح حسن جميع العمال المصريين فى وظائف بالدولة ٠

ويفخر المتسرعون من أتبـاع الثورة بأن الثورة قضت على نفـوذ الانجليز فى مصر ، والحق أن نفوذ الانجليز فى العالم كله قد تقلص بعد الحرب العالمية الثانية وبعد ظهور العملاقين « الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى » فتداعى سلطان الانجليز فى كل مكان وأصبحت الدولة التى كانت لا تغيب عنها الشمس محصورة تقريبا فى الجزر البريطانية ومثل هـذا حدث لفرنسـا ولبلجيكا وللبرتغال ولهولندا ، فمن الخطأ التاريخى أن ننسب للثورة مفخرة إخراج الانجليز والقضاء على نفوذهم بمصر ، والذى يدعى ذلك انسان لا يعرف التاريخ ٠

هذا جانب من القول عن النفوذ الأجنبى فى مصر قبل الثورة ، فماذا يرى من يرصد التاريخ حول النفوذ الأجنبى الذى فرض على مصر فى عهد الثورة ؟ هل كان للاتحاد السوفييتى مثلا نفوذ فى فترة ما على مصر ؟ لقد قرر أنور السادات ذلك ، وافتخر بالقضاء على هذا النفوذ سنة ١٩٧٢ ٠

ثانيا — يقرر التاريخ أن ملكا مستبدا كان يعيش فى القصر الملكى قبل الثورة ، وكان يباشر سلطانه بدكتاتورية مقيتة ، وهذا شىء لاشك فيه ، ولكن الذى لاشك فيه كذلك أن القصر ظل بعد الثورة يباشر نفس النفوذ وبطريقة أعنف بواسطة جمال عبد الناصر وأنور السادات ، وقد

خلق الرجلان هيئات وأحزابا وقوانين كلها قيود وكلها ضغط على الانسان المصرى والإنســان المصرى لا يمكن أن يفرّق بين مستبدٍ يلقّب ملكا ومستبد يلقّب رئيسا للجمهورية .

ثالثا — يسخرون من أحزاب ما قبل الثورة ، والذى يفعل ذلك جاهل بالأمر أو خائف من الحقيقة . فأحزاب ما قبل الثورة كانت غالبا نابعة من الشعب . ولكن أحزاب ما بعد الثورة صنعها كلها الحاكم ، ولا تمثل الرأى العام من قريب أو من بعيد . وكلنا يذكر واقعة الانتقال الجماعى والهجرة من حزب مصر إلى حزب الزعيم [1] ولم يسمح ولى الأمر حتى الآن أن يقيم الشعب حزبا جديدا يعبر عن إرادته واحتكر قضية قيام الأحزاب أو وضع القوانين التى تعوق قيام حزب لا يرضى عنه .

خامسا — إن الرصد التاريخى للانتخابات يقرر أن رئيس الوزراء يحيى إبراهيم الذى أجرى الانتخابات سنة ١٩٢٤ سقط فى الانتخابات أمام شاب صغير كان مرشح الوفد ، أما انتخابات ما بعد الثورة فكان من المحتم أن تكون نتائجها فوق ٩٩ ٪ لصالح الحاكم أيا كانت اتجاهات الناس وميولهم .

سادسا — كانت فى مصر صحافة حرة بدون شك قبل الثورة . وكان عددها عظيما ، وانكمش هذا العدد تماما ولم يبق إلا صحافة قليلة العدد من جانب على الرغم من تضاعف عدد السكان ، وتسيطر الدولة عليها وتعين رؤساء تحريرها وكبار رجالها من جانب آخر ، أما ادعاء أن الصحافة سلطة رابعة أو عاشرة فكلام لا مدلول له .

سابعا — من الناحية الاقتصادية كان الجنيه المصرى أغلى من الجنيه الانجليزى قبل الثورة ، ثم انهارت قيمة هذا الجنيه بعد الثورة حتى أصبح ليس أقل من الجنيه الاسترلينى فحسب ، بل أقل من الدولار . أما عن ديون مصر فى عهد الثورة فقد فاقت كل خيال .

---

(١) من كلمات فايز حلاوة بالعدد ٣٠٠ من مجلة أكتوبر .

ثامنا — دخل الجيش السياســة بقيام الثورة واستطاب الجيش حياة السياســة وترفها ، ومن المعروف أن الجيش اذا دخل السياســة فســدت السياسة وفســد الجيش .

وباسم هذه السياسة العرجاء رصد التاريخ هزائم مريرة نسبت للجيش المصرى فى عهد عبد الناصر ؛ هزيمة ١٩٥٦ وهزيمة اليمن ١٩٦٢ — ١٩٦٧ وهزيمة ١٩٦٧ واحتلت إسرائيل منطقة سيناء أكثر من مرة وتوقفت قناة السويس أكثر من مرة ولعدة سنوات وسقط عشرات الآلاف مــن المصريين قتلى وجرحى نتيجة سوء التخطيط والادارة .

تاسعا — فى اجراء مقارنة بين مصر وبين بعض الدول الأخرى . ولا نختار اليابان أو المــانيا أو نظيراتهما لأن الخيال لا يلعب بنا ، بل نختار إندونيسيا وهى قطر كثير العدد (١٥٠ مليون) وكثير المشكلات (آلاف الجزر وملايين الصينيين الذين يسيطرون على جانب كبير من الاقتصاد) أو نختار الباكستان (٩٠ مليونا) ولها حروب كثيرة مع الهند وملايين اللاجئين ، فى هذه المقارنة تشيل كفــة مصر ، ففى إندونيسيا والباكستان — وكنت فيهما حديثا — استقرار اقتصادى عظيم ونظافــة وطرق مرصوفة الى قمم الجبال ... وهو شيء لا ننعم به فى مصر .

عاشرا — وأخيرا وليس آخرا الحزب الذى أقامه أنور السادات ، لمــاذا يظهر به اللصوص والمرتشون وتجار المخدرات ؟ ولمــاذا يظهر « محافظ » يتهم بتهم مريرة مخجلة ، بل وزراء تفوح حولهم الشائعات ؟ ومَنْ الذين سرقوا مجوهرات القصور وهى ثروة مصرية هائلة اختفت فى عهــد الثورة ؟

كلمة أخيرة ، إن الانسان هو أغلى ما فى هذا الكون ، وله سخر الله ما فى السموات وما فى الأرض فماذا فعلت الثورة به ؟ وما تاريخ المعتقلات فى هذه الثورة ، لقد عاش أنور السادات يتغنى بأنه أغلق تماما المعتقلات التى فتحها عبد الناصر ،ولكن اتضح أن ذلك كان ضد أعماقه وميوله ، ومن أجل ذلك انفجرت طبيعته قبيل نهايته ففتح المعتقلات على أوســع

نطاق ، ودفع لها خصومه من رجال السياسة والصحافة والدين والاعلام والفكر ، جنبا الى جنب مع بعض المنحرفين ، ولم يعبأ بالأعمار ولا بالأقدار فكان التشفى ظاهرة بارزة فى هذا التصرف .

إن معتقلات عبد الناصر وما جرى فيها من أهوال مما هو بعيد عن القيم والأخلاق والإنسانية لشىء تقشعر منه الأبدان ، وقد اندفع أنور السادات فى أيامه الأخيرة لتقليد سلفه ، ولكن العمر لم يتسع له ليكرر التنكيل والتعذيب ، وبالتأكيد لم يوجد قبل الثورة ما يماثل أو ما يقرب من فظائع معتقلات هذه الثورة المشئومة .

إننا نهتف بولى الأمر أن يُعْنَى بالانسان المصرى ، وأن يعطيه حقه كاملا ، وأن يؤلف من المصريين وحدة وتجمعا بحيث لا يحس بعض الشعب أنه مسلوب الحقوق ، وبعد ذلك يتقدم لتوحيد العرب ، أو توحيد المسلمين ، أو توحيد دول عدم الانحياز .

ونهتف بولى الأمر كذلك أن يعيد مصر الى الاستقرار لتصبح الثورة تاريخا كثورة ١٩١٩ وليست واقعا مستمرا ، ونرجو أن نسجل الحاضر مفاخر عجز الماضى عن تقديمها . كما نرجو أن يكون الاحتفال بثورة يوليو المشئومة هذا العام هو آخر احتفال بها .

الإسرائيليات والجمود
وحرب أعلنتها على الجبهتين

إن تكوينى وثقافتى ، وحبى للإسلام وولائى له ، واعترافى بأفضاله علىَّ شخصيا وعلى البشرية جميعا ، كلّ هذا ألزمنى أن أبـذل أقصى الجهد لخدمة الدراسات الإسلامية التى تخصصتُ فيها ، وتخليصها من الإسرائيليات والجمود ، ومن هنا كـان لزاما عـلىَّ أن أفكر فى كـل قضـية من القضايا الإسلامية ، فإن كـان هنـاك نصٌ صريح بذلت الجهد لفهمه وربط القضية به ، وإن لـم يكن هنـاك نص بذلت الجهد لأجد حلا للقضية فى نطاق الإطار الإسلامى ، ويشهد الله أننى ما تكلمت كلمة ولا كتبت حرفا إلا ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى ، وإلا لرفع كلمة الله جل وعلا ، ولكن ذلك طالما جرَّ عـلىَّ كثيرا من المتاعب مـن بعض الجامدين .

صحيح أن جمـاهير المثقفين يقْبلون عـلى فكرى ويرضونه ، ويقتنون كتبى بملاحقة منتظمة ، ولكنَّ هناك جماعة الجامدين الـذين يحاربون الفكر ولا يريدونه ، والذين يقفون فى وجه كلِّ جديد .

وكثيرون من المسلمين يقولون إن باب الاجتهاد مفتوح ، ويقنعون بهذا القول ولا يجتهدون ، فإن اجتهد أحد منهم هاجمه الجامدون دون تفكير ودون رويّة .

الإسرائيليات والجمود :

ويقول الباحثون إن الإسلام أُصـيب بعقبتين عطّلتا تقدّمـه ، وأوقفتا تطوّره ، وهاتان العقبتان هما : الإسرائيليات من جانب ، وجمود كثير من الفقهاء من جانب آخر . وعن هؤلاء الجامدين يقول الإمام محمد عبده : إن الإسلام محجوب بالمسلمين .

وقـد أعلنتُ الحـرب عـلى الجبهتين ، وحققتُ نصرا عظيما ،

ولكن جبهة الجامدين استغلت ضــدى سلطات إدارية ، بعد أن عجزت عن الحوار العلمى ، ولا زلت أصارع والنصر إن شاء الله لكلمة الحق ٠

وإذا كان المسلمون يتحرّزون من الإسرائيليات فإنهم لا يتحرّزون من الجامدين ، وبخاصـــة أن هــؤلاء يظهرون بمظهر الورَع والحفــاظ على التراث ، وفى ظل الحفاظ على التراث توقّف هؤلاء الجامدون عنــد فكر لا يتجاوزونه ، وساعد على ذلك عقم طريقة التدريس التى سيطرت على العالم الإسلامى بواسطة الأزهر أو أمثاله من الجامعات الإسلامية الأولى فى الماضى ، وهذه المعاهد أدّت بلا شك خدمات جليلة للإسلام ؛ شرحت قواعده ، ونقلت مبادئه إلى ملايين الناس فى مختلف البقـــاع ، ولا ينكر أحد دورها وما أدّته من خدمات للإسلام والمسلمين ، لكن نشاط هذه الجامعات كان كافيا فى الفترات الأولى من فترات التاريخ الإسلامى ، ولم يتطور مع الزمن ، ثم جاء العهد الحاضر حيث اتضح قصور هذا النشاط عن مسايرة الأحداث كما سنرى ٠

ثم إن الكثير من العلماء الســابقين وجهوا جلّ اهتمامهم لشــئون العبادات وعلاقة الإنسان بربه ، وذكروا فى ذلك تفصيلات كثيرة ، ولــم تنل المعاملات من جهودهم قدرا كافيا ، وجدّت فى المجتمع الإســلامى شئون مختلفة فى نواحى السياســة والاقتصــاد والعلاقات الدوليــة والثقافية ، ولم يكن لأكثر هؤلاء خبرة فى هذه المجالات فأعرضوا عنها دون أن يَضمّوها إلى نطاق الدراسات الإسلامية ، مع أنهم يعلنون أن الإسلام دين كل زمان ومكان ، وأنه دين متطور يشمل كل نواحى الحياة ٠

ومما ساعد على حركة الجمود أن المعاهد السابقة كان يجلس فيها الشيخ معلما لتلاميذه فترة طويلة أو قصيرة ، فإذا ضعف عن العمل أو مات أخذ أحدُ تلاميذه مكانَه ، وقدّم لطلابه ما سمعه من شيخه ، وهكذا دواليك ، دون أية اضافة أو تجديد ٠

ثم إنهم جميعا كانوا إلى عهد قريب يعتمدون على الكتب التى كُتبت

فى عهود ماضية ، بأسلوب غير أسلوب العصر ، ومنهج غير منهج العصر .

ومـن هنـا كـانت الدراسـات الإسلامية واقفة فى حيز محدود دون حركـة أو اجتهـاد أو تأليف ، وقـد اسـتمر ذلك إلى حـوالى منتصف القرن العشرين ، أى أن جيلنا عاصر هـذا الوضع وضاق بـه من الشيوخ ، ومن الكتب التى كتبت بأسلوب غير أسلوب العصر ، وبفكر خال من النقد والمقارنة وحسن الأداء .

الإسرائيليات تتسرب للفكر الإسلامى :

وقبل أن نسير مع هؤلاء الجامدين ونعطى أمثلة لمواقفهم نذكر أن الإسرائيليات تنبهت لمكانة هؤلاء الجامدين ، فاسـتطاعت أن تغرس فيهم بعض مبادئها بطريقة أو بأخرى ، وغزت مبادىء الإسرائيليات عقول بعض هؤلاء الجامدين ، فأخذ هـؤلاء موقف الدفاع عن هذه المبادىء التى هى فى الحق بعيدة عن الإسلام ، ومناهضة لمبادئه ، وسنعطى كثيرا من الأمثلة على ذلك فيما بعد .

عيوب جديدة عطلت الاجتهاد :

ثم ظهرت الدول الإسلامية المستقلة وكثر عددها ، وأخذ الحكـام مكـان الصـدارة فيهـا ، فحـدثت عيوب أخرى غـير عيـوب الجمود والإسرائيليات ، وتضافرت العيوب القديمة مـع العيوب الجـديدة لكبح حركة الاجتهاد والفكر والتطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

ما هذه العيوب الجديدة التى ظهرت فى الميدان ؟

الإجابة نقدمها بصراحة فيما يلى :

١ — الاهتمام بإرضاء الحكام :

إننى أقول بملء الفم على مسئوليتى أمام الله وأمام الناس إن من أبرزها تبعية كثير من العلماء للحكام ، ومحاولة إرضائهم ، لدرجة أنه يقل جدا أن وقف عالم يستنكر قرارا أصدره الحاكم ، ومـا أكثر

القرارات التى تخالف مبادىء الإسلام ، كالمصادرات العشوائية التى عرفتها مصر فى عهد عبد الناصر ، وكالاستيلاء على أموال الناس بدون حق ، وكتحديد إيجارات المساكن والأطيان بدون عـدالة ، حتى أصبح ايجار الشـقة فى الزمالك شهريا لا يشترى نصف كيلو من اللحم ، وأصبح إيجار الفدان لا يصل ولا يقرب من عشر ما ينتجه الفدان ، **وكثير من العمارات السكنية والأرض الزراعية يملكها فقراء يعانون الجوع الآن ، أما الساكن والزارع فقد أصبحا من بين الأغنياء ، ومر الزمن وهذه المظالم لا تزال كما هى ، على الرغم من مرور عهد السادات ، وعشر سنوات من عهد حسنى مبارك !!**

والعجيب أن قانون العلاقة بين المالك والمستأجر كان قد أعد سنة ١٩٩٠ وكان على وشك أن يقدم لمجلس الشعب لنظره ، ولكن كلمة واحدة من الرئيس حسنى مبارك أوقفت هذا الأمل ، لقد قال « مش وقته » فتراجع كل شىء ، وليس يعرف الإنسان متى يجىء وقت الإنصاف بعـد مظالم استمرت حوالى أربعين عاما .

إن دعوات المظلومين لا تهدأ ، فلعل حسنى مبـارك يحس بها . ولا يقصد بالقانون الجديد إلا العدالة ، والعدالة يجب ألا تتأخر .

بل وصل الأمر إلى القبض على الأبرياء وتعذيبهم بل وقتلهم ، وعلماء الإسلام فى العصر الحديث صامتون ، وأحيانا يباركون هذه التصرفـات التى لا يعرفهـا دين ولا قـانون ، وإذا كـانت مصر قـد فـاض بهـا الظلم فى عهد الثورة العسـكرية المشـئومة ، فإن أكثر الـدول الإسلامية عانت مثل ما عانته مصر أو بعض هذا العناء .

وكلمة حق هى أن علماء المسلمين فى الماضى لم يقفوا من الحكام هذا الموقف ، بل كان العلماء موئل الشعوب وملاذ المظلومين .

٢ — وظائف يلوّح بها الحكام للعلماء :

ومن العيوب التى ظهرت حرصُ بعض العلماء والمفكرين على وظيفة معينة ، والتضحية من أجلها بكل القيم والمبادىء ، وقد عَرَفَ الحكام هذه النقطة من الضعف فى نفوس العلماء والمفكرين فأبقوا بعض المناصب الكبرى فى أيديهم ، يلوّحون بهـا لمن يسيل عليهـا لعـابهم ، فمنصب شيخ الأزهر فى يد الحاكم وحده ، ومناصب رؤساء الجامعات فى يـد الحـاكم ، ومناصـب المحـافظين كذلك ، فإذا وصـل الواحـد منهم سنّ المعاش لوح الحـاكم لـه بمنصب فى القطاع العـام أو مكـان فى مجلس الشورى وهكـذا ... واستسلم عدد من العلماء لذلك ، فلم يقفوا موقف رفض أو معارضة لاتجاه الحاكم .

٣ — عدم الرغبة فى مواصلة البحث :

ومن هذه العيوب عدم الرغبة أو عدم القدرة على مواصلة البحث والدرس ، وقد اتضح لى هذا الوضع عندما نشرتُ فى صحيفة الأهرام بحثا عن حِلّ شهادات الاستثمار ، فقد اتصل بى عدد من العلماء يذكرون أنهم اقتنعوا برأيى وأن أدلتى واضحة . ولـو عُنِىَ هـؤلاء بالبحث والدرس بإخلاص ، لوصلوا بسهولة إلى النتيجة التى وصلت لها .

٤ — لتظاهر بالورع :

ومن هذه العيوب التظاهر بالتقى والورع ، فالـذى يقول مثلا إن شهادات الاستثمار حـرام يُعَدُّ فى نظر الجماهير أكثر تُقىً وورعاً من الذى يقول بحلها ، أو هكذا تتخيل هذه الطائفة من الشيوخ .

ويشهد الله أن بعض من قالوا بحرمة شهادات الاستثمار كان لهم سلوك يتنافى مع الورع فى كثير من المواقف ، وكثير منا يعرفون ذلك .

وفى إحدى المرات صرخ واحد فى وجهى بأن شهادات الاستثمار حرام حرام حرام ، وأن الذين يتعاملون بها آثمون ، وقلت له إن كثيرين من العلماء من أمثال فضيلة الشيخ شلتوت وفضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف

وفضيلة الشيخ عبد الرحمن عيسى وفضيلة الشيخ على الخفيف وفضيلة الشيخ يس سويلم وغيرهم قالوا بحلها ، فلماذا أنت مُصِرٌّ على تأثيم المتعاملين بهذه الشهادات ؟ وكان عليك كمفكر إسلامى أن تفرح إذ وُجِد طريق يحمى هؤلاء المتعاملين من الإثم والعذاب .

ولم يستطع هذا الشخص أن يجيب .

والجواب فى الحقيقة يكمن فى سلوكه هو ، فإنه يربح ربحا وفيرا لانتسابه إلى مؤسسة تنافس شهادات الاستثمار .

وعن هذه العيوب التى اشترك فيها الحكام والعلماء لا تزال معنا دراسات قدَّمها بعض الباحثين الجديرين بالتقدير ومن هؤلاء الأمير شكيب أرسلان الذى يقول إن **أكبر عوامل تقهقر المسلمين** هى :

١ — فساد أخلاق الأمراء والحكام الذين اعطوا أنفسهم حرية التصرف على نحو استبدادى على أساس مفاهيم خاطئة بأن هذه الشعوب ليست إلا خدما لهم ، وقد بلغوا فى ذلك غاية الظلم والعنف ، فكانوا يقضون على أى رجل حرٍّ يحاول أن يردَّهم عن استبدادهم أو يكشف عنه .

٢ — ضعف العلماء وتزلّفهم للأمراء ، ومحاولة تبرير تصرفاتهم ، والفتوى بقتل كل رأى حرٍّ بحجة أنه خارج عن الجماعة .

٣ — الجامدون من رجال الدين الذين يقاومون التطور والتجديد بدافع الجهل أو التعصب والحسد ، والذين ينظرون إلى الإسلام على أنه دين عبادة فقط وليس نظاما ومجتمعَ حضارةٍ (١) .

ومن هذه الدراسات ما كتبه الأستاذ عبد المتعال الصعيدى الأستاذ **بكلية اللغة العربية عن « عوائق التجديد » وهو يذكر أن تخلف العالم الإسلامى يرجع إلى الأسباب التالية :**

---

(١) الأمير شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون ص ١٣٤ والأستاذ أنور الجندى : « الاسلام فى معركة التغريب » ص ٣٢ .

١ — تمسك ملوك المسلمين وأمرائهم فى العصر الحديث بحكمهم الاستبدادى ، ومَنْ فكّر منهم فى الإصلاح لم يتجاوز الإصلاح العسكرى دون أن يفكر فى إصلاح طريقة الحكم ، وقد كان الحكم الاستبدادى أسّ الفساد فى العالم الإسلامى ، وبهذا لا يمكن أن ينجح إصلاح مع بقائه ، لأن الإصلاح حينئذ يقوم على أساس فاسد ، فالحكم الاستبدادى يباعد بين الحاكم والرعية فلا يتعاطف الحاكم مع الشعب ، ولا يتقبّل الشعب على الحاكم .

٢ — إن جمهور علماء الدين مضوا على جمودهم فلم يتنبه منهم إلى الإصلاح الدينى إلا نفر يُعَدّ على أصابع اليد الواحدة ، أما جمهور العلماء فقد ظلوا على جمودهم وتبعهم جمهور العامة ، فتوقف النشاط الذهنى وساد الجمود .

٣ — إن ملوك المسلمين وأمراءهم قاوموا الحركات الإصلاحية الدينية ونظروا لها على أنها ثورة عليهم من القائمين بها ، وأخذوا يحاربونها بكل قسوة ، فلقى المصلحون ما لقوا من تعذيب وسجن وقتل (١) .

. . . .

ذلك هو وضع بعض علماء الإسلام بين الإسرائيليات والجمود والأطماع ، فماذا حدث لى شخصيا فى هذا المجال ؟

لقد قلت آنفا وأشهدت الله أننى لم أقل كلمة ولا دوّنت كلمة إلا بعد فحص ودراسة ، وإلا ابتغاء وجه الله ، ولمحاولة خدمة الفكر الإسلامى ، وشجعنى القراء على ذلك إذ أقبلوا على كتبى إقبالا أسمى من أن يخطر ببالى ، وكان السر فى هذا الإقبال أننى لم أدوّن ما قاله السابقون دون مراجعة ، بل فكرت فى كل موضوع ، وفى كل سطر ، وبحثت ،

---

(١) المجددون فى الاسلام ص ٥٧٧ وما بعدها بايجاز .

وتدارست ، واستشرت ، وترددت ، حتى إذا استقر رأيى على شىء دوّنته ، ورفعت به صوتى ، وصفقت جماهير المثقفين لآرائى ، فقد كانت هذه الآراء معبّرة عما يدور فى كل ذهن صاف ونفس بريئــة ، وأحسّ الكثيرون أننى أدوّن ما يدور بخاطرهم ، ولكن الــذين لا يعملون ولا يحبون أن يعمل الناس وجدوا فيما قلت فرصة للهجوم ، وكان الجمود أو الحقد هما الدافع لهذا الهجوم ، فأنا لم أقل إلا ما يخدم الإسلام ، وأنا دائما أميل إلى جانب الحرص ، وأن يكون رأيى وثيق الصلة بكتاب الله جل وعلا وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفى نطاق تفكير الأفذاذ من السابقين .

لعل القارىء الكريم يريد أن يعرف نماذج من آرائى ، وهذا حق القارىء ، وإن كنت هنا أعرض نماذج قليلة من القضايا التى تحدثت فيها ، وأوجز الكلام عنها ، وأشير إلى كتبى التى أوردتُ فيها تفاصيل هذه الموضوعات وسواها ، ليعود لها القارىء إن أراد مزيدا من التفصيل .

١ — قضية شهادات الاستثمار :

وقد أفضت في شرحها من سنة ١٩٦٩ حينما كنت عضوا بوفد مصر في « كوالالمبور » عاصمة ماليزيا ثم شرحت رأيي في كتابي « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » ووضحت الفرق بين الربا وبين شهادات الاستثمار ، فالربا فيه استغلال لحاجة المحتاج ، وفيه ضياع المواساة والإحسان ، وفيه تسليط طبقة الأغنياء على الفقراء ، وفيه إضعاف الاقتصاد ••• وليس هناك شيء من ذلك في شهادات الاستثمار ، واعتمدت على كبار المؤلفين كالفخر الرازي وابن تيمية وقد قالا بذلك في مواقف تشبه « شهادات الاستثمار » كما اعتمدت على الامام محمد عبده الذي قال بذلك في صناديق التوفير ، وقال بهذا الرأي عدد كبير من الأئمة الباحثين في العصر الحديث أوردت آراءهم •

ولم يقبل رأيي عدد من الشيوخ ، فقد كانت لهم مصالح في عدم الأخذ بحل شهادات الاستثمار ، وثاروا ، ولكن كلمة الحق رجحت بعد طول جهاد ، وأعلن مفتي جمهورية مصر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي سنة ١٩٨٩ حل شهادات الاستثمار ، ولم يتركه الجامدون وإنما هاجموه ، بل هاجموا الدكتور عبد المنعم النمر لأنه أيده ، وقالوا عنه « إنه المحرض الأول للفتاوى الطنطاوية » وذلك هبوط بمستوى البحث والنقد [١] •

إن الربا حرام قطعا ، بل هو من أشنع ما حرم الله ، ولكن ما الربا ؟ لقد قال الرسول في ذلك : لا ربا إلا في النسيئة ووضح الإمام الرازي أن في الربا عيوبا خلقية واجتماعية واقتصادية ، وذكر أبو الأعلى المودودي أن الربا يرتبط بالأثرة والبخل وتحجر القلب ، وقطع الأواصر في المجتمع إذ يكون فيه عوز شخص وفقره فرصة يغتنمها شخص آخر للاستغلال •••• [٢] وشهادات الاستثمار لا تدخل أبدا في هذا النطاق •

---

(١) انظر العدد التاسع من مجلة « الاعتصام » الصادر في ديسمبر ١٩٨٩ •

(٢) انظر كتاب « الاقتصاد في الفكر الاسلامي » للمؤلف •

٢ — الإسراء والمعراج :

ذكرت فى الجزء الأول من « موسوعة التاريخ الإسلامى » وفى كتابى عن « الإسراء والمعراج » أننى أومن إيمانا كاملا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، وأنه عُرج به من بيت المقدس إلى السموات العلا ، إلى سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى ، وأن القرآن الكريم جاء بذلك فى سورتى الإسراء والنجم ، وذكرت أننى أومن أن ذلك كان بالروح والجسد ، وأن الله سبحانه وتعالى تجلّى على الرسول وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات فى اليوم والليلة .

وهكذا أيها القارىء الكريم تجدنى شديد الاتجاه للجانب المحافظ ، فكثير من فقهائنا يرون أن الإسراء ثابت بالقرآن الكريم ، ولكن المعراج ثابت بالحديث الشريف ، ولكنى أثبتهما جميعا بالقرآن الكريم ، وبعض الباحثين قالوا بأنها رحلة بالروح .... ولكنى أكدت يقينى بأنها بالروح والجسد ، واستشهدت بانتقال عرش بلقيس فى لمح البصر من اليمن لفلسطين .

فماذا كان موضع الخلاف بينى وبين الجامدين والراغبين فى نامش الأخطاء ؟

إن الخلاف يكمن فى قضايا جانبية نوجزها فيما يلى :

ذكر هؤلاء حديثا عن أن الرسول صعد مع جبريل عليه السلام ، وأخذ جبريل يقف مع الرسول أمام كل باب من أبواب السماوات السبع ليدق جبريل الباب ، وكان الملاك حارس الباب يسأل : من الذى يدق ؟ ومن معك ؟

فهؤلاء يعدُّون الملاك مثل البشر ، لا يَرَى من يقف خلف الأبواب ، وكأن السماء بها أبواب صلدة كأبواب الدنيا ، وهى تفتح فقط عند اللزوم .

وذكر هؤلاء أن الصلوات التى فرضت كانت خمسين صلاة فى اليوم والليلة وان موسى « احتبس محمدا » (وتعبير احتبس ألمح فيه روح الاسرائيليات ، وكان من الممكن أن يقال استقبل أو واجه) واستكثر موسى الصلوات الخمسين وقال لرسولنا : أنا أعلم بالناس منك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، وأخذ يعيده عشر مرات حتى أصبحت الصلوات خمسا فقط ، وهكذا تخيل هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى موجود فى مكان معين ، وأن موسى فى مكان آخر ، وأن محمدا أخذ يروح ويغدو بين المكانين •

وتخيل هؤلاء مساومة تنزل العدد من ٥٠ إلى ٤٥ ثم إلى ٤٠ ثم إلى ٣٥ وهكذا ، تعالى الله عن ذلك •

ووضع هؤلاء الفقهاء العلل التى تبيح أن يكون موسى أعلم بالأمة العربية من محمد العربى الذى كان آنذاك فى الثانية والخمسين من العمر ، وكان قد مضى على بعثته اثنتا عشرة سنة ، ومما قاله هؤلاء الفقهاء فى التعليل لذلك أن موسى عانى من بنى إسرائيل فهو أعلم بصعوبة البشر ، ونسى هؤلاء أن بنى إسرائيل لا يمكن أن يقاس عليهم ، فهم الذين قال عنهم القرآن الكريم « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » (البقرة ٧٤) وتوعدهم الله جل جلاله بأنه « ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » (الأعراف ١٦٧) جزاء لما ارتكبوا من الاثم والعدوان •

وقد قرر العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز [1] أن الأموات جميعا بما فيهم الأنبياء لا يخرجون من قبورهم إلا يوم البعث ، واستشهد بقوله تعالى « ثم انكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (المؤمنون ١٥ — ١٦) ، وبقوله عليه الصلاة والسلام : أنا أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة ، فكيف خرج موسى من قبره وراح يستقبل الرسول ويرشده •

---

(١) التحذير من البدع ص ٦ — ٧ •

وذكر الحديث الذى يتمسك به هؤلاء الفقهاء أن موسى عندما رأى محمد يرتفع عنه فى السماء بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : هذا الغلام الذى بُعث بعدى يسبقنى فى الدرجة ... وكلمة « غلام » عن رسولنا لا تليق بمقامه ، وجو الحسد لا يليق بالأنبياء .

ولم أر أن هذه النصوص هى من الحديث الشريف ، وتأكد لى أنها من الإسرائيليات التى اندست فى الفكر الإسلامى ، وأخذ الفقهاء يدافعون عنها ، وهناك دراسات أوسع عن هذا الموضوع أوردتها فى المراجع السابقة ، واعتمدت على رأى قوى قال به كثير من العلماء فى مقدمتهم العالم الجليل الشيخ عبد الجليل عيسى رحمه الله ، والعالم الجليل الشيخ محمد الغزالى أطال الله فى عمره .

والعجيب أنه وجد من الناس من تقولوا عنى كما شاء لهم خيالهم ، فبعضهم لم يقرأ ابداً ما كتبته عن هذه القضية ولا عن غيرها ، ولم يسمع منى كلمة عنها ، وكل ما سمعه هو أن للدكتور أحمد شلبى رأيا فى الاسراء والمعراج ، فدفعه خياله المريض للاعتقاد بأنى أنكر الإسراء والمعراج ، وكتب ضدى على هذا الأساس . غفر الله له .

٣ ــ صحيح البخارى :

ومناقشة حديثٍ ورد فى البخارى فتحت بابا جديدا يقول إننى أشكك فى الأحاديث ، ومعاذ الله أن أقف ضد أحاديث الرسول ﷺ ، فأنا مدينٌ فى دراساتى فى الحضارة الإسلامية لفيْض من الأحاديث الشريفة ، وأحفظ منها المئات منذ نعومة الأظافر ، ولكن المسألة مسألة قــول معين يراه البعض حديثا ولا أراه حديثا عن الرسول ، وصحيح البخارى موضع تقديرى . ولكن يجب ألا ننسى القول السائد عبــر التاريخ وهــو أن البخارى أصح كتابٍ **بعد كتاب الله** ، أى ليس مثل كتاب الله الذى تفضَّل الله فتعهد بحفظه (انا نحن نزلنــا الذكر وإنا لــه لحافظون) والتعبير « أصح كتابٍ بعد كتاب الله » يعطى فكرة أن من الممكن أن يكون بــه ما ليس صحيحا ، سواء كان ذلك خطأ من الإمام البخارى وهو ليس بمعصوم ، أو كان مِنْ دسِّ الإسرائيليات على الكتاب بعد عصر البخارى فى طبعاته المتعاقبة ، والدليل على الدس أن الأحاديث المطعون فيها كما يقول الإمام العاملى هى ستون حديثا ، وجميعها عن أنبياء بنى إسرائيل ، وليس بينها حديث عن التشريع أو الأخلاق ، وقد أوردتُ بعض هذه الأحاديث فى كتابى عن « الاسراء والمعراج » وهناك كثيرون من الأئمة ناقشوا البخارى وعلقوا على عمله ، ورفضوا عصمته ومن هؤلاء :

١ ــ الجيانى	فى كتابه	الأوهام الواقعة فى صحيح البخارى
٢ ــ ابن عبد البر	فى كتابه	الأجوبة المرعبة عن المسائل المستغربة من البخارى .
٣ ــ البلقينى	فى كتابه	الإفهام بما وقع فى البخارى من الإبهام
٤ ــ ابن خلف	فى كتابه	التعديل والتجريح لرجال البخارى
٥ ــ العاملى	فى كتابه	الكشكول

ولكن الجامدين يريدوننا أن نعامل البخارى كما نعامل القرآن الكريم ، وهيهات أن نسوِّى بين الاثنين .

٤ — عمر السيدة خديجة عند زواج الرسول بها :

فى كتابى عن « الرسول فى بيته » تحدثت عن عُمْر السيدة خديجة عند زواج الرسول بها ، وليس فى هذا الموضوع آية كريمة أو حديث شريف ، وإنما هى أفكار من صنع المسلمين والباحثين ، وهذا يجيز لى بكل تأكيد أن أذكر رأيى بين هذه الآراء ، ولكن الجامدين كانوا عَبَدَة لأقوال السابقين ، ولم يشأ هؤلاء أن يفكّروا ، وحاولوا أن يحرموننا التفكير ، فهاجم بعض منهم رأيى فى هذا المجال .

ماذا قلت عن ذلك ؟

أورد فيما يلى نص كلامى من ص ٢٨ — ٣٠ من الكتاب المذكور :

تختلف الآراء حول عمر السيدة خديجة عندما تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيرى بعض المؤرخين أنها كانت فى الأربعين من عمرها ، وحجتهم فى ذلك أن السيدة خديجة تزوجت قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه مرتين ، فلما مات زوجها الثانى مرّت عليها فترة كانت ترفض فيها الزواج ممن تقدموا لها .

وواضح من ذلك أن الذين قالوا بهذا الرأى لم يقدموا دليلا حاسما لقبوله ، وأن المسألة مجرد استنتاج .

أما الرأى الذى نراه فهو أن السيدة خديجة كانت فى حوالى الثامنة والعشرين من عمرها ، ونعتمد فى هذا الرأى على عدة عوامل :

١ — لو كانت السيدة خديجة فى سن الأربعين لما سمحت لها مكانتها وشرفها أن تعرض نفسها للزواج وبخاصة من شاب لم يتزوج من قبل ، ويصغرها بحوالى خمسة عشر عاما ، اى انه فى عمر أولادها .

٢ — لو كانت فى سن الأربعين لما استطاعت أن تنجب ستة من الذكور والإناث للرسول صلى الله عليه وسلم ، فالمرأة فى مثل هذه السن قد لا تنجب ، أو تنجب طفلا أو طفلين وتتوقف .

٣ — ثم إن السيدة خديجة أنجبت للرسول صلى الله عليه وسلم ابنها « الطاهر » فى الاسلام أى بعد أكثر من خمس عشرة سنة على الأقل من زواجها ، ومعنى هذا أنها أنجبت وهى فى السادسة والخمسين أو السابعة والخمسين ، وواضح جدا أن المرأة لا تنجب فى مثل هذه السن إلا نادرا ، لأن سن اليأس عند المرأة يبدأ قبل ذلك ، وبخاصة فى الجزيرة العربية حيث يبدأ الرشد فى سن مبكرة ، ويبدأ اليأس مبكرا كذلك .

٤ — وليس زواجها مرتين ورفضها الخطاب بعد ذلك دليلا على وصولها سن الأربعين ، فالفتيات فى الجزيرة العربية كن يتزوجن آنذاك فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، وقد تزوجت حفصة بنت عمر ابن الخطاب من خنيس بن حذافة ، ولما مات زوجها تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان عمرها عند زواج الرسول بها ثمانية عشر عاما ، وتزوج الرسول صلوات الله وسلامه عليه عائشة وهى فى مطلع العقد الثانى من عمرها .

ولو فرضنا أن السيدة خديجة تزوجت زوجها الأول وهى فى الرابعة عشرة ، أو فى الخامسة عشرة وبقيت معه ثلاث سنوات ومات وهى فى الثامنة عشرة ، ثم تزوجت بعد عام من زوجها الثانى ، وبقيت معه ثلاث سنوات أيضا ، فإنها تصبح فى الثانية والعشرين من عمرها عندما مات زوجها الثانى .

٥ — أما عن الخطاب الذين تقدموا لها وردتهم فنذكر أنه كان من عادة العرب أن يسرعوا بزواج الأرامل حفظا لهن من متاعب الحياة ، فاذا كانت السيدة خديجة ردت اثنين أو ثلاثة أو أربعة فإن ذلك يمكن أن يكون خلال عام واحد أو عامين .

وعلى هذا فالتقدير الذى نراه صحيحا هو أن السيدة خديجة كانت أسن من الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل ، وقد رحب الرسول بها فى هذه السن لأنه كان محتاجا إلى امرأة فيها حكمة ولها تجربة .

وقد قال بهذا الرأي ابن كثير (السيرة النبوية ١ : ٢٦٤) والأستاذ عباس العقاد (فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٢٠) وقد أضفتُ إلى قولهما بعض الشروح والتحقيقات كما سبق .

ماذا فى هذا الكلام حتى يثور الجامدون ويصيحوا ضده ؟

لقد فكر السابقون فقالوا ما قالوا ، فهل يحرم علينا أن نفكر كما فكروا ؟ إنه مرض الجامدين الذين وصفناهم أنهم لا يعملون ولا يحبون أن يعمل الناس .

٥ — نهاية السيد المسيح على الأرض :

فى كتابى « المسيحية » قدمت دراسة طويلة موثقة المصادر عن أن السيد المسيح عليه السلام بعد أن نجا من الصلب استوفى أجله ومات كما يموت الناس ، ورفعت روحه إلى بارئها مع أرواح النبيين والصديقين والشهداء .

وهب الجامدون يقولون إن المسيح رفع لله بجسده وروحه وملابسه ، وتسألهم : إلى أين ؟ إن الله سبحانه وتعالى فى كل مكان أو ليس له مكان كما يقول علماء التوحيد ، « وسع كرسيه السموات والأرض » فإلى أين رفع المسيح ؟

وما القول فى قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء ، عند ربهم ، يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم ... » فقوله تعالى أحياء ، والعندية فى قوله « عند ربهم » و « يرزقون » ... كلها للروح ، أما جسد الشهيد فقد ووري التراب أو لاقى قدره إن كان قد استشهد فى البحر أو وسط الحرائق .

وقال السيد رشيد رضا إن المسلمين يقلدون المسيحيين فى قولهم إن المسيح رفع بجسمه وروحه ، فالمسيحيون يعتقدون أن المسيح ابن الله ، نزل للتكفير عن خطيئة البشرية ، وبعد الصلب والدفن قام من قبره وعاد إلى أبيه .

ويحذر السيد رشيد رضا المسلمين من هذا القول الخاطىء .

كبار المسيحيين يرون أن الذى رفع هو الروح :

وقد أتيحت لى فرصة لأسأل مجموعة من كبار القسس بالفاتيكان سؤالا مهما ، قلت لهم :

إن سؤالى يرتبط بالعقيدة المسيحية ، فأنتم تعتقدون أن المسيح ابن الله نزل للتكفير عن خطيئة البشر ، ودخل رحم مريم ، وولد ، وعاش فى فلسطين ، وأكل مما يأكل الناس ، وشرب مما يشرب الناس ، وقدم دعوته للناس ، ثم صلب حتى مات ، ودفن ، ثم خرج من القبر بعد بضعة أيام وعاش مع الحواريين فترة ، ثم رفع إلى السماء .

والسؤال هو : هل الذى نزل مـن السماء ودخل رحم مريم كـان لاهوتا أو ناسوتا ، أى هل كائنا إلهيا أو إنسانيا ؟ وبلغة أوضح : هـل كان روحا أو جسما ؟ والاجـابة لابدّ أن تكـون إنه كان روحـا دخل رحم مريم وحملت به السيدة العذراء ، ثم وُلد ، فهل الذى يصعد للسماء هو الذى نزل من السماء أى الروح ، أو الذى يصعد للسماء هو جسـم المسيح الذى تربّى فى فلسطين كما يتربى الناس ؟

ولم أتلق جوابا من هؤلاء القسس آنـذاك ، ورُفع السـؤال إلى القيادات المسيحية ، ثم تلقيت بعد حين على عنوانى بالكلية نسخة من النشرة المسيحية الرسمية (IRF) .

The International Religious Foundation

عدد يناير وفبراير سنة ١٩٨٨ وعلى الصفحة رقم «٢» من هذه النشرة جاء ما يلى عن نهاية المسيح ثم عودة روحه لا جسمه للحياة بعد الدفن ، ومعنى عـودة روحه للحيـاة هى ـ كما ورد فى النشرة ـ عودة تعليماته وإرشاداته عن طريق الحواريين ، وفيما يلى هذا النص مصوّرا من هذه النشرة .

To Be Born Anew

Christ was "put to death in the flesh, but made alive in the spirit." (I Peter 3:18) This leaves no doubt that Christ's resurrection was not the revival of his body but of his spirit.

"It is the Spirit that quickeneth; the flesh profiteth nothing; the words that I speak unto you, they are spirit, and they are life." (John 6:63)

It is obvious that Christ's resurrection was the revival of his spirit, his words, his teaching. The story of his rising on the third day after crucifixion means the revival of his teaching. It means that his teaching which had lost its light and died when he died on the cross revived among his followers on the third day, and became Christianity.

To Be Born Anew

« Christ was put to death in the flesh, but made alive the spirit, This leaves no doubt that Christ's resurrection was not the revival of his body but of his spirit.

"It is the Spirit that quickeneth, the flesh profiteth nothing : the words that I speak unto you, they are spirit, and they are life.

« It is obvious taht Christ's resurrection was revival of his spirit, his words, his teahing. The story of his rising on the third day after crucifixion means the revival of his teaching. It means that his teaching which bad lost its light and died when he died on the cross, revived among his followers on the third day, and became Chrisitianity.

وترجمة هذا النص هى :

عودة الحياة

« المسيح قُتِل جسما ولكنَّ روحه لم تمت ، وهذا يؤكد أن بعث المسيح لم يكن إعادةَ الحياةِ لجسمه ، بل إبرازَ روحه للوجود والخلود .

إنها الروح التى تنشط ، أما الجسم فلا قيمة له ، وكلمات السيد المسيح نابعة من روحه التى لم يتطرق لها الفناء .

وإنه لمن الواضح أن بعث المسيح كان تجديدا لنشاط روحه ، ونشاط توجيهاته وتعليماته ، وقصة بروزه فى اليوم الثالث بعد الصلب معناها عودة الحياة لتعليماته ، معناها أن التعليمات والارشادات التى فَقَدَتْ بريقها عندما مات المسيح على الصليب نشطت من جديد بين حوارييه بدءا من اليوم الثالث لصلبه ، وكوّنت المسيحية » .

وهكذا قنع المسـيحيون بأن الذى رفع هـو الروح ، وهم بذلك يعودون للعقل الذى سَخِرَ من رفع إنسان بجسمه وروحه ، والعجيب أن بعض المسلمين لا يزالون على تقليدهم للمسيحيين فى موضوع رفع السيد المسيح بجسمه وروحه ، مع أن قادة المسيحية تنازلوا كما رأينا عن هذا الاتجاه المزيَّف ، ولا شك أن عقلاء المسلمين قالوا بهذا الرأى السـليم منذ عشرات السنين ومئات السنين ودونتُ آراءهم فى كتابى « المسيحية » . ولكن الجامدين لم يرضهم اتجاهى فى قضية نهاية المسيح على الأرض .

هل المسيح حقا هو ابن الله نزل للتكفير عن خطيئة البشر ؟

ونظل مع الفكر المسيحى ، أو قل مـع الإسرائيليات التى حرَّفت المسيحية بواسطة « بولس » اليهودى الأصل ، نظلُّ مع هذه الإسرائيليات فنقول :

إن الوثيقة المسيحية التى عرضناها أثبتت أن المسيح دُفن وأنه لم يخرج من القبر بعد ذلك ، وذلك يجيز لنا أو يحتِّم علينا أن نقول إن هذا يعنى ضمناً أن المسيح ليس ابن الله ، وانه لم ينزل من أعلى ، فلو كان ابن الله حقا ونزل للتكفير عن خطيئة البشر لعاد إلى أبيه بعد قضاء الغرض من نزوله ، ولكن عدم عودته معناه عدم نزوله فليس من المعقول أن يُدفن ابن الله ، وهو شىء قررناه بالتفصيل فى كتابنا « المسيحية » وهو الجزء الثالث من أجزاء سلسلة مقارنة الأديان . وليست المسألة إلا كما يقول الفكر الإسلامى : وخلاصة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى أودع فى رحم السيدة مريم قوة جعلها تحمل بالسيد المسيح قال تعالى : « ومريم ابنة عمران التى أحصـنت فرجها فنفخنا فيـه مـن روحنا » (التحريم الآية ١٢) وبهذا فالله واحد والمسيح عليه السلام نبىٌ من أنبياء الله .

٦ — المسيخ الدجال أو المسيح الدجال :

المسيخ الدّجّال علَم على شخصية ذاعت عند الكثيرين من المسيحيين والمسلمين ، ويعتقد المسيحيون أنه شخص سيأتى آخر الزمــان ليقود قوّى الشر ضد قوى الخير ، وقد ورد ذكره فى رسالة للقديس يوحنا الأولى (الإصــحاح الثــانى : الفقرة ١٨) « منشــورات دار المشرق ببيروت » •

ويقول الأستاذ أحمد عطية الله [1] : إن المسيخ الدجال شخصــية أسطورية لا سند لها من القرآن أو الحديث الصحيح ، يقولون إنه يظهر آخر الزمان ، وينشر ضلالاته بين الناس فيتبعه خلق من الكفار والمشركين والمنافقين ، وهــو رجل دميم الخلقــة يثير فــزع النــاظر اليــه ، ويمتطى حمارا يجوب به وجه الأرض ، ويعتبر ظهوره من أشراط الساعة ، وتنتهى حياته فى بيت المقدس بعد أن يعم فسادُه الأرض •

والموضوع كله خرافى وأسطورى ، ولا حقيقة له ، فيجب أن ترفضه الجماهير ولا تستمع اليه ، وإذا ادّعى أحد أن هناك حديثا عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن المسيخ الدجال ، فليس هذا الحــديث إلا مختلَقا ، وهو من وضع الإسرائيليات التى تعمل جاهدة للتضليل •

وكم من ملايين السنين يحتاجها راكب حمار ليجوب الأرض وينشر ضلالاته ؟!

---

(١) القاموس الاسلامى : الجزء الثانى •

٧ — المهدى المنتظر :

خرافة اخرى من الخرافات التى ظهرت فى العالم الاسلامى ، ووقف الجامدون حيالها بين مؤيد او صامت ، وتعرضنا لها بالتفنيد مع العلماء الذين هاجموا هذه الخرافة .

والمهدى المنتظر خرافة أو بلغة الانحراف الذى شاع هى « الرجعة » أى أن يعود المتوفَّى بعد فترةٍ للحياة ، وقد قال بها عبد الله بن سبأ ونَسَبَ للرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه سيعود بعد فترةٍ للحياة ، فهو ليس أقل من عيسى الذى قال الجامدون إنه — كما ذكرنا من قبل — عاد للحياة ، وخرج من القبر ، ورُفع بجسمه وبروحه للسماء ، وقال عبد الله بن سبأ عن علىّ كرم الله وجهه أنه أيضا لم يمت ، وإنما اختفى ، وسيعود لا محالة .

ولما مات محمد بن الحنفية سنة ٨١ هـ ، وهو ابن الامام على من زوجةٍ من بنى حنيفة ، أنكرت فرقة « الكيسانية » أنه مات ميتة تامة وقال شاعرها « كثيِّر عزَّة » شعراً يفيد أنه تغيب وعنده عسلٌ وماء وأنه سيخرج ليستعيد مجده ويهزم أعداءه .

. . . .

وسبطٍ لا تراه العين حتى   يقودَ الخيلَ يتبعها اللواءُ

تغيَّب لا يُرى فيهم زمانا   برضْوى عنده عسل وماء

ولما سقطت الدولة الأموية ظهر من يقول بظهور المهدى وهو رجل « سفيانى » سيعيد أمجاد الدولة الأموية .

ويَنْسَب « المهدى » كذلك للدولة العباسية ، ويقال إن الخليفة المنصور العباسى سمَّى ابنه « المهدى » ليعيد أمجاد آل البيت وليقضى على أعدائهم .

هذا وللقضية جذور مسيحية ، فقد قال المسيحيون إن عيسى عليه السلام عاد للحياة بعد الصلب ، وخرج من القبر ، وعاش فترة مع الحواريين ، ثم صعد السماء والحواريون يرونه .... وقد أثبتنا من قبل زَيْفَ هذه الفكرة .

على أن عقيدة « المهدى المنتظر » ذاعت وشاعت عندما لجأ لها الشيعة الإمامية ، والقصة هي أن الحسن العسكرى كان الإمام الحادى عشر عند الشيعة الإمامية ، واقتب العسكرى لأنه كان يعيش فى سامراء مدينة العسكر ، وكان له ابن وحيد اسمه « محمد » وقد وُلدَ هذا الابن سنة ٢٥٥ هـ وتوفى الحسن العسكرى وابنه محمد فى عام واحد هو سنة ٢٦٠ هـ ولم يتفق الشيعة الإمامية على إمام جديد ، فالإمامة عندهم بالوراثة ، وقد انقطع نسل الإمام موسى الكاظم زعيم الاثنى عشرية بعد وفاة الحسن العسكرى وابنه الوحيد فى عام واحد هو سنة ٢٦٠ هـ ولهذا لجأ زعماء الشيعة الإمامية إلى القول بأن الطفل محمد لم يمت وإنما نزل سردابا كان يصل بين بيت أبيه وبين المسجد ، واختفى الطفل منذ ذلك التاريخ ، وسيظهر يوما ليملأ الأرض عدلا ونورا بعد أن مُلئت ظلما وجوْرا ، وقد زرت ذلك السرداب وقصصت قصتى مع المشرف عليه الذى تَقَدَّم له هبات سخية لإشرافه على المكان الذى يقال إن الإمام اختفى فيه ، والذى ينقل تعليمات الإمام لأتباعه والعارفين بفضله .

وقد اعترف لى هذا المشرف عندما عرف ثقافتى بأن القضية ليست إلا خرافة ، ويمكن للقارىء أن يطّلع على ما دونتُه عن هذه القضية فى المراجع التاريخية .

وكان هذا الموقف من زعماء الشيعة الإمامية حرصاً على أتباعهم أن ينفرط عقدهم ، أو أن يتجهوا إلى طائفة أخرى من فرق الشيعة .

وحرصا من الشيعة أن يثبتوا هذه العقيدة الباطلة اختلقوا الأحاديث لتقويتها ودعْمها .

والعجيب أن القول بمهــدى منتظر تسرب من الشــيعة إلى أهل السنة ، وكان أهل السنة أو بعضهم متأثرين بما شاع من أحاديث حول هذا الموضوع ، وينبغى أن نقرر أن أهل السنة عندما قالوا بالمهدى المنتظر لم يقرروا أنه محمد بن الحسن العسكرى ، بل اتجهوا إلى القول بمهدى منتظر دون أن يحددوا شخصه . **ويقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدى [1] إن المسلمين بعد أن انتشر فيهم انحراف الحكم ، وبَعُدَ عن العدالــة ظهرت فيهم فكرة المهدى المنتظر ، وقد اختلط عند هؤلاء المهدى المنتظر بالمجدد المنتظر .**

ويقول الدكتور عبد المنعم النمر [2] معلّقا على قول أهل السنّة بأنهم ينتظرون المهدى المنتظر : إنها عدوى من الشيعة أُصيب بها أهل السنة معتمدين على أحاديث ثبت ضعفها وأنها موضوعة .

ويقول الأستاذ أحمد أمين [3] : إن فكرة المهدى المنتظر كانت مؤامرة شنيعة أفسدت عقول المسلمين .

الخمينى والمهدى المنتظر وصورة من الضلال :

ولا يزال الشيعة يقولون هذا القول المنحرف ، وقد بالغ « الخمينى » فى الانحراف إلى درجة تهزّ الإيمان ، فقد قال فى مناسبة ذكرى الامام المنتظر ما يلى :

لقد جاء الأنبياء جميعا من أجل إرساء قواعد العدالة فى العــالم ، ولكنهم لم ينجحوا ، حتى النبى محمد خاتم الأنبياء ، ..... والشخص

---

(١) المجددون فى الاسلام ص ٥٨٦ .
(٢) الشيعة ــ المهدى ــ الدروز ص ١٦٩ ــ ١٧٠ .
(٣) ضحى الاسلام جـ٣ ص ٢٤٣ .

الذى سينجح فى ذلك ويرْسى قواعد العدالة فى جميع أنحاء العالم ، ويقوّم الانحرافات هو المهدى المنتظر [١] .

وكان هذا من الخمينى صورة واضحة من الانحرافات الشيعية .

وفى الهند ظهر ميرزا غلام أحمد القاديانى الذى ادّعى مرة أنه المسيح المنتظر ، وادعى أخرى أنه المهدى المنتظر ، وادعى ثالثة أنه نبى من الأنبياء ، وما أيسر الادعاءات لمن لا يقيم وزنا لفكر ، ولا يحترم عقله ولا عقول الناس .

وهناك كتاب مهم فى هذا الموضوع هو « لا مهدى منتظر بعد الرسول محمد خير البشر » لفضيلة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس الشئون الدينية والمحاكم الشرعية فى دولة قطر وهو كتاب يبرز بطلان هذا الإدعاء الذى يضر كثيرا ولا يفيد فى شىء .

وأخيرا فليس هناك « مهدى منتظر » وليكفّ الجامدون عن هذا القول الذى يخلق الضعف والاعتماد على خرافة ، وإذا كنا نريد نهضة فلْنعتمد على أنفسنا فى وضع أسسها دون انتظار خرافة لتحقق لنا ما نتمنى ، إن أعداء الإسلام يهمهم أن ننام وأن تطول غفوتنا فى انتظار هذا المهدى الذى لن يجىء .

وليت الجامدين يقرءون ما يكتبه الثقات ليكفّوا عن تخدير المسلمين بمثل هذه الخرافات .

بقى أن أذكر حكاية حدثت لى سنة ١٩٩٠ فقد جاء إلى مكتبى بالكلية طالب متورم الجسم ، تبدو عليه البلاهة وسألنى : هل تنكر ظهور المهدى المنتظر ؟

---

(١) نقلا عن د . عبد المنعم النمر : الشيعة ــ المهدى ــ الدروز ص ١٧٧ .

فقلت : نعم إننا لسنا محتاجين لمهدى بعد القرآن الكريم وأحاديث الرسول الصحيحة ، وعلينا أن نعمل ونكدح لنعيد إلى حياتنا ازدهارها ورقيها دون انتظار لمن يأتى بطائل .

فقال الطالب عن نفسه : وما رأيك أننى المهدى المنتظر .

وأحسست أننى أمام شخص أبله ، فحرصت على التخلص منه ، وذكرت لـه أننى مشغول فلتتركنى إلى عملى ، ولكن الشخص تشبث بكلام مضطرب ، وذكر أن ولادته لـم تكن طبيعية ، وأن طفولته كانت توحى بأن له مهمة عظمى سيقوم بها .

وزحزحته عن حجرة مكتبى بكل الحيل ، وقد كان نموذجا من النماذج التى ادعت هذا الادعاء المزيف .

٨ — وهناك عشرات أو ربما مئات من هـذه النماذج دونتها فى موسوعة التاريخ الإسلامى وموسوعة الحضارة الإسلامية وسلسلة مقارنة الأديان ، فليعد لها من يشاء .

الجامدون يمثلون الدول أحيانا :

وامتد نفوذ الجمود إلى السلطة أحيانا ، ووقع على الضرر مـن السلطات لأننى أفكر لخدمة الإسلام ، وسأقدم فيما يلى بعض ما نزل بى من أضرار بسبب هذا الجمود :

١ — أرسل لى ناشر من « دبى » يطلب مائة مجموعة من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » وأرسلنا له المجموعـات التى طلبها ، وعرضت الكتب على شيخ ليسمح بدخولها للبلاد ، فرفض لأن الجزء الثـالث منها يتحدث عن الإسراء والمعراج على ما وصفت ، وعادت الكتب للقاهرة مع تكاليف الإرسال والعودة على حسابنا والأمر للـه .

والحق أن الضرر الذى نزل بنا كان أقل جدا من الضرر الذى نزل بإخواننا فى الإمارات العربية المتحدة ، فقـد حرمهم هذا الشيخ مـن الحصول على هذه الكتب بسهولة ، وألزمهم جهدا كبيرا ليحصلوا عليها

من خارج الإمارات ، ودخلت هذه الكتب كل بيت تقريبا ولكن بعد محاولات للحصول عليها من هنا وهناك ، بل إنى أقسم أن بعض أهل الإمارات اتصلوا بى تليفونيا يطلبون الأجزاء المائة ، ولما أخبرتهم أنها لم تكمل بَعْدُ ، طلبوا منى الإسراع فى استكمالها .

وهكذا حاول هذا الشيخ أن يمنع ضوء الشمس ولكن الشمس ملأت الكون على الرغم منه .

٢ — وتلقيت رسالة رسمية من وزارة الثقافة فى « أبو ظبى » لأزور دولة الإمارات وألقى بعض المحاضرات ، وأقرر أن المحاضرات نجحت نجاحا عظيما ووجدت إقبالا هائلا من الناس ، وكان ضمن النشاط الذى دُعيت لــه أن أجيب على أسئلة فى الإذاعة عن طريق « التليفون » وجلست فى الاستوديو ووضعت السماعة على أذنى وجرت أحاديث مهمة من الذين لم يتيسر لهم حضور المحاضرات فى العاصمة ، وكان ذلك بناء على طلبهم وإلحاحهم ، ولاقت هذه الفكرة كل النجاح ، وطلب الكثيرون تكرارها ، وذهبت للاستوديو يوما آخر وبدأنا العمل ، وكان بين الأسئلة سؤال عن شهادات الاستثمار ، فتبرع موظف مصرى فى « أبو ظبى » كان يهمه أن تكون له حظوة عند بعض رجال الدين الذين كانوا يرون تحريم التعامل فى شهادات الاستثمار ، فاتصل هذا المصرى الرخيص بأحد رجال الدين ، وكان لرجل الدين « الشيخ عبد العزيز » مكان فى الدولة ، فأصدر أمره بإيقاف هذه الإذاعة .

ومرّ الزمن وقال مفتى جمهورية مصر العربية بهذا الرأى ، وأصبح من العبث الوقوف أمام كلمات الحق ، وبدل أن يناقشنى الإنسان المصرى الرخيص أو الشيخ عبد العزيز استعمل الشيخ سلاح القوة ضد سلاح الفكر والأمر لله .

٣ — وأنا أنشر كل كتبى عن طريق مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ولكن لظروف خاصة وافقت على نشر كتابى « الرســول فى بيته : زوج مثالى — وزوجاته — وأولاده — وأحفاده — وخدمه » فى المملكة الأردنية

الهاشمية طمعا فى سعة التوزيع وسرعته ، وذلك لأهمية هذا الكتاب التى سأشير لها بعد قليل ، والمهم أن أصول هذا الكتاب عُرضت على شـيخ فى وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالأردن ، فرفض هذا الشيخ الموافقة على نشر هذا الكتاب من أجل ما ورد به عن عمر السيدة خديجة ، ومن أجل أننى لم أقل « صلى الله عليه وسلم » عقب كل مرة يَرِدُ فيها بالكتاب اسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مع أن الصلاة والتسليم وردتا ثلاث مرات أو أربع مرات فى كل صفحة من صفحات الكتاب ، وواضح أن هذا الشيخ لا خبرة له بتأليف الكتب ، وأنه لم يكتب صفحة واحدة فى حياته ، ولكن للأسف معه نفوذ على المؤلفين ، وهكذا نجد فاقد الإبداع يسيطر على من يعملون فى مجال الإبداع .

وتركنا الأردن ونشرنا هذا الكتاب أروع نشر فى عاصمة عربية أخرى والأمر للـــه .

وهذا الكتاب له قيمة كبيرة عندى ، فقد كان وسيلتى غير المباشرة للردّ على افتراءات سلمان رشدى ، وهذا الرجل لا وطن له ، فلم يعد هنديا ولا أصبح بلونه ومشاعره إنجليزيا ، وهو كذلك لا دين له ، فلم يَعُدْ بهجومه وخياله المريض مسلما ، ولا عرف المسيحية ، والرجل الذى لا وطن له ولا دين له إنسان فارغ الرأس يقول ما لا يعنى .

وقد تحدث هذا الرجل عن أسرة الرسول ، وكان كتابى هذا ردّا غير مباشر عليه ، لأنى لم أورد آراءه وأردّ عليها حتى لا يكون فى ذلك إذاعة لضلالاته ، وإنما تكلمت عن الموضوع كلاما مستقلا .

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتـــاب ، ولكن الرجـــل الأردنى منع ظهوره هناك وكأنه كان يتخيل أن فى يده مفاتيح النشر ، حسابه على الله ، وأُبعد هذا الرجل بعد فترة عن وظيفته ، وجاء رجل آخر مستنير ، عالى الثقافة ، فقرر الترحيب بالكتاب ، ودخل الكتـــاب مطبوعا إلى المملكـــة الأردنية الهاشمية .

٤ — وتشغَّنى وزارة الأوقاف بمصر بتقديم محاضرات للأئمة لترفع مستواهم الفكرى ، ولهذا نظمت الوزارة لهم برنامجا سُمِّى « التدريب الراقى » ونَدَبت للقيام بهذا العمل مجموعة من العلماء والمفكرين ، وقد شرفنى أن كنت واحداً منهم ، وقد تلقيت فى هذا الشأن خطابا من الأستاذ الدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف يطلب منى الاشتراك فى هـذه الدورات بإلقاء محاضرات عن « الحضارة الإسلامية » •

ورحبت بهذا العمل رجاء أن أخـدم دينى ووطنى عن طريقه ، ثم لأسدد بعض ديونى للأزهر الذى نلت فيه جانبا كبيراً من الثقافة التى اشتغلتها فى العهد الحاضر •

ورحت بكل الجهد والأمل ألقى محاضرات فى الحضارة الإسلامية التى يمكن القول بعيدا عن أى صلف أو كبر أننى الوحيد الذى كتبت فيها كتابة شاملة فى عشرة مجلدات على نسق جديد لم يشاركنى فيه كاتب آخر •

وكـان طبيعيا أن يسـألنى بعض الأئمة عن رأيى الذى شـاع فى قضية الإسراء والمعراج أو فى قضية المهدى المنتظر •••• وغيرهما مـن القضايا التى تكلمت فيها والتى ذكرتها أو ذكرت بعضها فى هذا الكتاب ، وكنت أجيب بما أعرف ، وأشرح وجهة نظرى تماما •

وأقرر أن كثيرين جدا من الأئمة اسـتراحوا لكلامى وامتدحوه ، ووثقوا بى علاقاتهم ، ولكن لا يخلو الحال من أفراد جامدين لم يكونوا مستعدين للتحول عما أَلِفُوه من الاتجاهات الإسرائيلية واتجاهات الجمود التى غَذَّتْ نفوسَهم ، وأصـبحتْ فى تقديرهم هى الأسـاس للفكر الإسلامى ، وأن محاولة تصحيحها ليست إلا هجوما على الفكر الإسلامى ،

وشكا هؤلاء للمشرفين على الدورات ، واستجاب لهم — للأسف — هؤلاء المشرفون ، فلم أُدْعَ لاستئناف المحاضرات فى الموسم التالى •

وأنا فى الحق لم أخسر شيئا نتيجة لذلك ، وإنما كَسَبْتُ وقتى

وجلست أكتب وأواصل الدراسة والتأليف ، ولكن خسر هؤلاء فكراً قد لا يجدونه فى محاضرات أخرى .

ليت المشرفين تحققوا من القضية ، ولكنهم استجابوا لرأى الجامدين دون فكر أو روية ، ومما يذكر أننى ظللت ألقى هذه المحاضرات على الأئمة أكثر من خمس عشرة سنة ، وكنت — وأنا أسجل هذا — حظياً عند الأئمة والمشرفين السابقين ، ثم جاء زمن ألقى الزمام فى الإشراف إلى جماعة من الجامدين الذين لا يعملون ولا يحبون أن يعمل الناس .

وأقرر أننى لم أشك للوزير أبدا ولا لغيره ، فالعلم فى تقديرى يُسْعى إليه كما تعلمنا من شيوخنا فى العصور الزاهرة .

٥ — هذه نماذج من الضر الذى مسّنى ، ولكن هناك ما هو أشد ، فمعروف أن أهم المصادر المالية التى يعتمد عليها أستاذ الجامعة المصرى هى السفر للخارج معارا أو زائرا ، أما الإعارة فلم تكن لى رغبة فيها ، فقد قررت عقب عودتى من إندونسيا — التى سافرت لها بعد أن فصلنى جمال عبد الناصر من الجامعة — أن أبقى فى القاهرة أكتب لكل العرب ولكل المسلمين ، وكنت زاهداً تماما فى الإعارة ، وفيما تجلبه من مال ، ولهذا لم أتقدم قط لها .

ولكن الأستاذ الزائر عمل أستريح له ، فهو مدة قصيرة لا تؤثر على عملى العلمى بالقاهرة ، وهو فرصة لأعرض أفكارى فى التاريخ الإسلامى الذى جددت فى منهجه تجديدا واسعا ، فأصبح شاملا لكل المسلمين وليس مقصورا على العرب وحدهم كما كان من قبل ، كما أصبح ممتداً حتى الآن فلا تتوقف دراسته عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وجاء هذا العمل فى عشرة مجلدات كبيرة .

وكذلك أعرض أفكارى فى الحضارة الإسلامية التى بفضل الله لم أسبق لها والتى جاءت فى عشرة مجلدات أخرى .

وكذلك أعرض أفكارى عن مقارنة الأديان ، ذلك العلم الذى كتبتُ فيه أربعة مجلدات لا يكاد يوجد غيرها فى المكتبة العربية بعد ما كتبه الشهرستانى وابن حزم .

ثم فى منهاج البحث الذى يتمثل فى كتابى « كيف تكتب بحثا أو رسالة » الذى ظهرت طبعته الثانية والعشرون .

كنت فعلا أرغب فى أن أكون استاذا زائرا من حين لآخر لهذه الأسباب ، وربما لأن هذا العمل يمنح بعض المال الذى يساعد على تغطية تكاليف الحياة لأستاذٍ لم يذهب قط لإعارة .

ولكن تأثير الجمود حال دون دعوتى لهذا العمل ، وكان زملائى وتلاميذى يجوبون البلاد معارين وأساتذة زائرين إلا أنا .

لقد تفضل الله فلم يجعلنى فى حاجة مالية لهذا العمل ، ولكن ماذا لو كنت محتاجا من الناحية المالية ؟ إذنْ كان علىَّ أن أختار بين معاناة الحاجة أو أن أتخلى عن فكرى وأعيش كما يعيش الآخرون على درب السابقين دون أية إضافة أو تجديد ، وما كان أيسر ذلك علىَّ .

إننى أعرف كثيرين يقولون ما يُرضى أصحاب النفوذ ، ويطوون كل كلمة لا تُرضى هؤلاء مهما كان فيها من خيرٍ للفكر أو للناس ، خشية أن تُوقِف تدفق الذهب إلى جيوبهم ، إننى فى الحقيقة أرثى لهؤلاء .

والعجيب أن الذين يهاجموننى لما قلت فى الإسراء والمعراج ، ولرأيى عن عمر السيدة خديجة عندما تزوج الرسول صلوات الله عليه بها ... هؤلاء ينسون أكثر من مائة كتاب ألّفتها وهى جميعا تبرز روعة الإسلام ، وتقدمه بلغاتٍ مختلفة للمجتمع البشرى ، ما أقسى هؤلاء وما أشد ظلمهم أن يتركوا الخير كله ثم يهاجموننى لاختلافٍ فى الرأى فى قضية ليست من الأصول بين مبادىء الإسلام .

وينبغى أن يكون واضحا أن هؤلاء الجامدين لم يقفوا هذه المواقف منى وحدى ، بل إنهم يتتبعون كل مجتهد ليهاجموه ، لقد تتبعوا الإمام الفذ محمد عبده وأنزلوا به الضر ، وتتبعوا الإمام العالم الشيخ محمد الغزالى ، الذى يُعَدُّ فى تقديرى وتقدير الكثيرين العالم الأول فى عصرنا الحاضر ، هذا الرجل العظيم تعرض — بسبب اجتهاده — لأقسى مما تعرضت له من نقد وهجوم ، وكان الذين هاجموه من الصفوف الأخيرة فى موكب الفكر الإسلامى ، وقد رأينا فيما سبق أن فضيلة المفتى الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى هُوجم لبعض آرائه ، وهُوجم معه الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر لأنه أيَّده فيما قال .

فالجامدون — للأسف — يرون أن رأيهم هذا الرأى الوحيد ولا يسمحون لغيرهم أن يخالف رأيهم مهما كانت أدلته .

والجامدون للأسف الشديد يحاربون مَنْ خالفهم من المسلمين أكثر مما يحاربون أعداء الإسلام .

أيها القارىء الكريم :

هذا فصل جديد من فصول حياتى أضيفه للطبعة الرابعة ، وهو لا يشمل كلَّ ما عانيتُ وإنما يشمل بعضه فقط ، ولعلى فى طبعة قادمة أضيف صورا أخرى من العناء ولست هنا أشكو ، وإنما أصف لونا من ألوان الحياة يسود فى بلادنا الإسلامية ، وأحمد الله أن ذلك الضر الذى نزل بى كان ضعيف التأثير أو عديم التأثير ، وأن الفيض من الله كان واسعا فى كل مجال ، والله وحده هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهدك يا رب أن هذا القلم سيظل عميق الإخلاص للعمل ، متفانيا فى خدمة الإسلام والمسلمين .

وماذا بعد ؟

لقد سارت رحلة الحياة هذا الشوط الفسيح ، وقابل زورق الحياة كثيرا من العواصف والأنواء ، ولكن عناية الله أنقذت الزورق من كل ضر ، وجعلت الريح رخاء وبركة .

وقد وصفتُ قضايا الحياة التى عشتها وصفا موضوعيا ، رجاء أن تكون هذه الرحلة ذات ثمار طيبة للقارىء بما حوت من جهد وجهاد ، ويشهد الله أن الخير كان رائدى فى كل كلمة كتبتها أو فكرة أثرتها ، فاللهم أسألك أن تنفع بما كتبت ، فإنه ذوب قلبى وعصارة عقلى .

* * *

وإذا كنتُ قد وصفت ما رأيت ، وعرضت مشاهدى وتجارب الماضى فلست أعرف شيئا عن المستقبل ؛ إنه فى طيات الغيب ، ولكن ثقتى فى الله وإخلاصى الكامل للدين والوطن تطمعنى أن أدخل بسلام غمار الأيـــام القادمة ، وأطوى فى أمنٍ أحداثَ المستقبل ، فكن يا رب معى وأنا أخطو هذه الخطوات ؛ إننا ندعوك ونرجوك ، فاقبل الدعاء والرجاء .

وليكن ذكرك مسك الختام كما كان مطلع الافتتاح .

ISLAMIC CIVILIZATION

10

MY LIFE JOURNEY

BY
AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor
of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo Universtiy

Fourth Edition (1990)

Published by :
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبى

— تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج (إنجلترا)
— زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا ، ومثل مصر فى عدة مؤتمرات دولية .
— درس مجموعة من اللغـات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية .
— اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أسـتاذ ورئيس قسـم التاريخ الاسـلامى والحضارة الاسلامية وقـد حاضر — منتدبا وزائرا ومعارا — فى جامعة الأزهـر ، وعين شمس ، واندونيسـيا ، والسـودان ، وماليزيا ، والملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفى معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحـوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات الدبلوماسية .
- مؤلفاته (غير المكتبة الإسلامية) تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الحادية والعشرون من بعضها ، وأهم هذه المؤلفات :

١ — موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة أجزاء .
٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء .
٣ — مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء .
٤ — كيف تكتب بحثا أو رسالة .
٥ — المكتبة الاسـلامية لكل الأعمـار :
١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ، للأولاد والشبان والسيدات والرجال .
٦ — ISLAM : Belief Legislation Morals
٧ — History of Muslim Education

— كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية والتركية ، والاندونيسية والماليزية والفرنسية والفارسية .